أحمد خليل جمعة

نساء الأنبياء

في ضوء القرآن والسنّة

زوج النبي آدم عليه السلام

زوج النبي نوح عليه السلام

زوج النبي لوط عليه السلام

زوج النبي إسماعيل عليه السلام

زوج النبي إبراهيم عليه السلام

زوج النبي يعقوب عليه السلام

زوج النبي أيّوب عليه السلام

زوج النبي موسى عليه السلام

زوج النبي زكريا عليه السلام

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

نساء الأنبياء
في ضوء القرآن والسنة

حُقُوق الطَّبْع وَالتَّصْوِير محفُوظَة لِلْمُؤَلِّف

الطَّبعَة الأُولَى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار ابن كثير
للطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ تلفون: ٨١٧٨٥٧ - ٢٠٤٤٥٩ - ٠٣

الإهداء

إلى كل امرأة تؤمن بالله تعالى وتود الاستزادة من معرفة الحق، والوصول إلى ينابيع الخير الفياض.

إلى كل أم تريد أن تصل بابنتها إلى شاطئ الأمان فتكون زوجة صالحة، سعيدة، راضية، مرضية.

إلى كل زوجة تريد تهذيب صديقتها للاقتداء بنساء الأنبياء الصالحات، فكراً وسلوكاً.

إلى كل فتاة تبتغي الدنو من رحاب الحقيقة.

وتخطو بثقة وعزيمة في درب الاستقامة.

إلى كل هؤلاء

أهدي هذا الكتاب

أحمد

بطاقة شكر مفتوحة

أرى من الواجب المتحتّم عليّ أن أُقدّم وافر الشكر الجميل ، والعرفان الجزيل ، إلى الأخ العزيز الأستاذ علي ديب مستو ، صاحب دار ابن كثير الغرّاء الزهراء العامرة ، لِمَا لَهُ من باع طويل في نشر التراث العربيّ والإسلاميّ ، ولِمَا يبذله من جهد كبير في انتقاء الكتب الصالحة المفيدة ، وخدمتها طباعيًا وفق أحدث التقنيّات ، ليقدّم الكتاب إلى القارئ جيّد المضمون موشّى بطراز الإخراج الفنّيّ الذي لا يُضاهى . سائلًا الله تعالى أن يديم توفيقه عليه ، ليستمرّ في رفد الناس بالمزيد من الكتب النافعة ، وأن يجعل ثواب ذلك في صحيفة أعماله ، إنّه على ما يشاء قدير .

وإن كنت أنسى فلا أنسى صديقي الوفيّ الأستاذ يوسف علي بديوي ، الذي ما فتئ يطّلع على ما نكتب ، فيقدّم النصيحة ، ويهدي إلينا الملاحظات القيّمة ، فنستفيد ونفيد ، ثم يقوم بتصحيح تجارب الطباعة فشكر الله تعالى عمله ، وأثابه خير الثواب ، إنّه مجيب الدعاء .

أحمد خليل جمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ لله وكفى، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد النبي المصطفى؛ الذي وفَّى ووَفَى، أمَّا بعد:

فبفضلٍ من الله عز وجل، وحُسْن توفيقه نفدت نُسَخُ كتاب «نساء الأنبياء» بعد أن لاقى الكتابُ قبولاً لدى القرّاء الكرام، ومكانةً أثيرة بنفوسهم في العالم الإسلامي.

وهذه هي الطبعة الثانية...

وإنَّ ممَّا يشرحُ الصدر، ويُسِرُّ النفسَ أن يجدَ الكتابُ ـ في هذا العصر ـ قرَّاء له، وطُلَّاباً لمعرفة ما احتواه؛ أولئك الذين عَرَفُوا دينهم فاتَّبَعُوه، وأدركوا مسؤولياتهم الملقاة على كواهلهم، فكيَّفوا سلوكهم وفق أحكام ربِّهم، مُتَّبعين الصِّراط المستقيم على هدى، وخيرٍ، ونور.

إنَّ رواج الكتاب نعمةٌ من الله؛ لابُدَّ من تلقِّيها بالشكر والحمد، وهذا يعني أنَّ الأمةَ لاَ تزالُ بخير، وأن الثقافة ضرورةٌ حضارية، والإقبال عليها قفزةٌ متميزة لمن وَعَى واستقام، وأقبل على المعرفة بنهمٍ متزايد، ومحبّة لا تعرف الحدود.

وقد تميَّزتْ هذه الطبعةُ بمراجعةٍ جديدة، وحلّة قشيبة، ومظهر متألق،

كلُّ ذلك تقريبٌ للكتاب لدى القارىء الكريم.

والله وحده أسألُ أن يرزقني المثوبة على هذا الكتاب، وكذلك ناشره، ومُصحِّحه، وقارئه.

اللهم لك الحمدُ على كُلِّ حال، وأجِرْنا برحمتك من أحوال أهل النار، إنك على ما تشاءُ قدير.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والحمد لله رب العالمين.

دمشق ـ حرستا في ٧/ رمضان/ ١٩٩٨م

أحمد خليل جمعة

مقَدّمــة الطبعة الأولى

الحمدُ لله ربّ العالمين، أرسل الأنبياء دعاةً هادين، وبعث الرسل مبشرين ومنذرين، وجعلهم نوراً وضياء للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[الأنعام: ٤٨].

والصّلاة والسّلام على عبد الله ورسوله محمد ﷺ، أرسله الله بالهُدى ودين الحق، بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وجعله خاتم الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

أما بعد:

مرّة أخرى نلتقي على درب إبراز الحقائق، وتسجيل الماضي بلغة العصر، وعَرْض التاريخ الموثّق الحافل بصوره المشرقة، وألوانه الجذّابة الأخّاذة.

ورحلتُنا اليوم مع نساء الأنبياء في إشراقهن الروحي، وسلوكهنّ العملي، وأفعالهنّ الخيِّرة التي تأخذ بالألباب وتأسر النفوس؛ لما كان لها من أثر فعّال ونواحٍ مقتدرة على التغيير، وتَرْك البصمات واضحة لكل ذي بصيرة.

ومنذ القديم وللمرأة دور لايُنْسَى، لاسيّما إن تحقَّق لها مَن يقوم برعايتها، ويأخذ بناصيتها إلى جادّة الحق، فتكون التربية صالحة، والتنشئة مستقيمة، فإذا بالمرأة المتخرّجة في تعليمها الحيويّ الصائب تعطي أينع الثمار، فَتُورِقُ أشجارُ الكون محبّة وسلاماً وخيراً.

* * *

إنَّ متابعتنا للحديث حول دور المرأة في مختلف الأزمنة وتنوّع الوقائع؛ إنْ هو إلاّ تأكيد لدور المرأة في بناء الفرد الصالح، وتشييد صرح المجتمع السليم.

وللمرأة دور لا يضاهى في ميدان تربية أولادها، فإن كانت صالحة حسنة التربية، فإنها تستطيع أن تستوعب أطفالها، وتنشّئهم وفق معطيات الخير والحقّ والصواب، وأن ترعاهم الرعاية المثلى، ليغدوا أفراداً صالحين يقومون بدورهم الرائد في بناء مجتمعهم.

وها هي هاجر تلك المرأة القدوة في أخلاقها الحسنة، وسلوكها الطيب، تُربّي ولدها إسماعيل، وتتعهّده منذ طفولته حتى شَبَّ عن الطوق، وغدا رجلاً يدرج في مسارح الحياة.

لقد رهنت حياتَها ليحيا ولدها حياة طيبة، فكان الثمرة اليانعة التي آتتْ أكلها بإذن ربّها.

ومن يتصفّح حياةَ النبي إسماعيل يجدها حافلة بكل شذا عَبِق، وبكل أريج عَطِر، فقد أثبت أنه رجل بكل ما تحمل الرجولة من معنى، فهو صابرٌ على الشدائد، مُتحمِّل لكل ما ينزل به من بلاء، راضٍ بقضاء الله تعالى وقدره، فكان النبتة الصالحة لأم صالحة.

على حين نرى في الجهة المقابلة امرأة النبي نوح، تلك المرأة الشريرة؛ التي غلب الطبع السيِّئُ عليها؛ فخرَّب فطرتها، وجعلها لا تُحْسِن تربية ولدها؛ الذي تابعها على الكفر، فعندما جاء الطوفان نادى نوحٌ ابنَه أن تعالَ إلينا، والتجِىء إلى السفينة، مؤمناً بالله، فلا عاصمَ اليومَ إلا الله عز وجل.

لكنَّ التربية الفاسدة، وجموح الأهواء الضالّة، والكبر، والعناد، دَفَعَ بالولد العاقّ ليلقى حتفه مع الفئة الجاحدة.

ففي هذين المثلين نجد أن كلاًّ من الأبوين نبيّ، وهو يُحْسِنُ التربية بلا شك، ولكن للأم دور أعظم وأهمّ في التأثير على أولادها ورعايتهم، فهي أقرب من الرّجل إليهم، وأوثق علاقةً بهم، مما جعل للأم أهمية عظمى في

تهيئة المناخ العام للأولاد، فمنهم من ينشأ ضالاً، ومنهم من يهتدي إلى سواء السبيل، ويتعلّق ذلك بالأم من طرف خفيّ أو سبب مباشر.

* * *

ومّما لاريب فيه أنَّ أفضل وسيلة للتأثير في النفس الإنسانية هي القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة، ذلك أن التجسيد العملي للسلوك البشري هو تحقيق أسمى، وتنفيذ أفضل؛ من مجرّد النصيحة أو الوعظ أو الإرشاد.

فإذا رأيتَ داعيةً ما إلى وجهةٍ ما، ثم قارنتَ بين قوله وسلوكه، فإن تطابقا كانت محبّتُكَ له أعظم، وارتياحكَ إلى ما يقول أكثر قُرْباً، وأشهى مجتنى.

وإن كان الخلافُ قائماً بين القول والفعل حَصَل الشَّرْخُ في لُبِّ الفكرة، وكان الصَّدْعُ ذا أَثَرٍ خطيرٍ في مدى قابلية الناس لقول الواعظ أو حديث المرشد.

والذي نقصدُ إليه من هذا الكلام أن «نساء الأنبياء» الصالحات هنّ قدوة لغيرهنّ في مختلف مناحي الحياة.

إن أردتَ الفكر والعقيدة؛ فهنَّ في المقام الأرفع، والذّروة المختارة.

وإن شئتَ الطاعة لله والزوج؛ فهنَّ الفضليات، قد حُزْن عَرْشَ الطاعة، وفُزْنَ بقصب السّبق، وكان لهنّ القدح المعلّى الذي لا يجارى فيه ولا يُمارى.

وإن ابتغيتَ القول الحسن، والحكمة الصّائبة، والدّعوة إلى الله، والقيام بأعباء الوعظ والإرشاد، فهن الدّاعيات الأوائل إلى الله عز وجل، والهاديات إلى طريقه المستقيم.

وإن توخَّيْتَ الأخلاقَ الطيّبة، والعِشْرة الحسنة، والصفات الحميدة، فهنَّ المثاليات في هذا المضمار، الحائزات على الجوائز الأولى، ولا غرابة في ذلك؛ وهنّ المتخرِّجات في مدارس النبوة ومعاهد التربية؛ التي صُنِعَتْ على عَيْنِ اللهِ ورعايته.

* * *

وعندما تقرأ نساؤنا سِيَرَ هؤلاء الطليعيات، سرعان ما يتمُّ التأثُّرُ بفكرهن

وسلوكهن وجوانب حياتهنّ عامة. ومن ثمّ يتمُّ التحوُّلُ في السلوك نحو السموّ الأخلاقي؛ بعد تصديق القلب بالله وبرسوله، ذلك التصديق المطمئن الثابت؛ فيكون التحوُّل انديا حاً في رحاب الحياة، وانطلاقاً نحو تحقيق الخير والحق في مسارح الدنيا قاطبة، باعتبار أنّ مفتاح الشخصية هو الإيمان، ولا إيمان دون فِعْل، فالقول والسلوك قرينان متّفقان، وصِنْوان لا يفترقان.

* * *

وكتابُنا هذا مُوجَّه إلى الإنسانية كلّها، فهو يتحدث بالفعل الواقعي لا بالكلام النظري عن أثر الإيمان في حياة الفرد؛ عندما يحسُّ الإنسان بإنسانيته، ويحيا بخصائصها، ويشعر أنّ له كياناً ووزناً وقيمة وإرادة، فينشأ البحث عن الحقيقة، وتبدأ الرحلةُ نحو الأهداف العظيمة والمعاني الكبيرة في حياة الإنسان.

فإلى الباحثين عن السعادة الحقيقية، وإلى المنقّبين عن الطمأنينة والسكينة، نقدِّم لهم سِيَرَ «نساء الأنبياء» بشكل قصصي، ليدركوا أنَّ السعادة تكمن في الإيمان، وأن ينابيع الفرح تتفجّر من قلب الإنسان نفسه؛ عندما يهتدي إلى فطرته، ويستجيب للنداء العلوي، وتتضّح الغاية أمامه، فينجو من عذاب الحَيْرة وقَلَق الشّك، إذ يأنس بالله، ويعيش في صُحْبة الأنبياء، فإذا بالرّضا يشعّ، وباليقين ينبض، وإذا بالمؤمن راض عن نفسه وعن ربّه.

إنَّ كتابَنَا هذا هو من الأهمية بمكان كبير، لاسيما وأنه البِكْر في ميدانه، فلم يُسْبَقْ أن أُلِّفَ مثله بهذا الاستقصاء والتبويب، ففيه راحةٌ للنفس عندما تودّ الاسترواح لتحقيق السكينة والسعادة، فالإيمان الذي شَعَّ في نفوس نساء الأنبياء؛ ولَّد الأمل، والأملُ لا بُدَّ منه لمتابعة مسيرة الحياة؛ التي يثبت فيها المؤمن أمام الشدائد، مُستلهماً صبره وعزيمته من الإيمان بالقضاء والقدر، وأنَّ الله معه في السَّرَّاء والضَّرَّاء؛ لذا فكلُّ مصائب الدنيا تهون عند المؤمن.

وقد دَأَبْنَا منذ سنين على إبراز وَجْهِ المرأة على مرّ العصور؛ بوجهها المشرق، وفِعْلها الخلّاق، وصورتها التي لا تُمْحَى من ذاكرة التاريخ، فهي

تُضْمِر في أعماقها مختلف الصفات الحميدة والمزايا الرفيعة؛ لذا كانت لنا معها وقفات متنوعة؛ نذكر منها:

ـ نساء مبشرات بالجنة (جزءان).

ـ نساء من عصر النبوة (جزءان).

ـ نساء من عصر التابعين (جزءان).

وكلّها قد صَدَرَتْ، وكَتَبَ اللهُ تعالى لها القبول، وتلقَّاها القارئُ الكريمُ بشغف متزايد، إذ نالتْ ـ بفضل الله وعونه ـ مكانةً أثيرةً عنده، وسدّتْ فراغاً في المكتبة العربية؛ نحن أحوج ما نكون إليه؛ باعتبار أنَّ للمرأة دورها المتميّز، وأثرها البالغ في حياة الفرد والمجتمع والحضارة.

واستكمالاً لما نحن بصدده من تأليف هذه الموسوعة النسائية المجزّأة، رأينا أن نتابعَ الحديثَ عن «نساء الأنبياء» وهُنَّ في الذّروة من المسؤولية والتكليف، ولا عَجَب في ذلك وهُنَّ المقترناتُ برسل الله؛ المبلِّغين عن الله كلمة الحق إلى بني الإنسان.

وها نحنُ في هذا الكتاب نبرزُ وَجْهَ المرأة من جديد، ونُبيِّن دَوْرَها الفعّال في عصرها الذي وُجِدَتْ فيه، وما كان لها من أحداث ووقائع تتعلَّق بالنّبيّ الزوج، أو بالمحيط الذي عاشت فيه.

وهناك نموذجان واضحان، أحدهما خيِّر، والثاني يحملُ غشاوةً من الشر، ولكن الخير أعمّ، والحق أوضح، والعاقبة للمتّقين.

والصّنف الأول الخيِّر هو الأعمّ الأغلب، وهو الأوسع والأكثر انتشاراً في ساحات الحياة، ونقصد بذلك الزوجات الصّالحات.

فزوج النبيّ آدم كانت قدوة النساء في الأمومة.

وزوج النبي إسماعيل كانت مثلاً شروداً في الكرم.

وزوج النبي يعقوب كانت وفية راضية بقضاء الله وقدره.

وزوج النبي أيوب كانت صابرة مخلصة مطيعة لزوجها.

وزوج النبي زكريا كانت في قمّة الطاعة لله والإخلاص له سُبحانه.

وزوجا النبي إبراهيم كانتا مؤمنتين، مطيعتين، تقيّتين.

أما الجانب الآخر فهو الأقلّ، وفيه الزوج الشقية الكافرة، وقد ضَرَبْنَا عليها مثلين، هما:

زوج النبي نوح، المعاندة المستهزئة بدعوة التوحيد، والمؤذية للمؤمنين.

وزوج النبي لوط، المفشية لأسرار الزوج، فقد كانت سيئة الأخلاق، فاسدة الطّباع، منحرفة الفطرة.

وقد آثرنا الحديثَ عن هذين النَّموذجين لتتَّضحّ الصورة أكثر، ويبرز التضاد، فيكون الحق ناصعاً جليّاً، بينما تنحدر درجةُ الباطل متهاوية في الحضيض.

* * *

وبعد أن تبلورَ موضوعُ الكتاب في الذّهن، واتَّضحتْ جوانب منه، شرعتُ في تحديد مساره، فهو متشعّب المسالك، عميق الغَوْر، متنوّع الينابيع، فقد تشابه الكثير من القصص والأخبار التي لا تمتُّ إلى الحقيقة بشيء، ولا تثبت على سندان العقل، بل ينبذها التفكير السليم بمطارق من حديد، فتذوب متلاشية تحت أشعّة شمس الحقيقة والبحث العلمي.

وقد حَدَّدْتُ الموضوعَ تحت عنوان: «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة»؛ وذلك ليسلم القياد، وتتحدّد طريقةُ البحث والاستقصاء، فليس المهم في هذا الأمر جَلْبُ كلّ الروايات، أو تسجيل ما عنّ على بال الإخباريّين من قصص ملفّقة، وأخبار متهافتة، وروايات لا أصل لها، بل الجديرُ بالباحث أن ينخل الأخبار، ويتأكَّد من صحّة ما جمعه، فأمّا الزَّبَدُ فيذهب جُفَاء، وأمّا الحقّ وما ينفع الناس فيثبت في الأرض صالحاً شامخاً برأسه.

وهكذا كان؛ فقد تمَّ التحرِّي والتحرير بعد الجمع والتقصّي في بطون الكتب على اختلاف مشاربها، ثم كانت عمليةُ المقارنة شاقّةً وطويلةً، حتى

وصلنا ـ بعون الله ـ إلى شاطىء النّجاة على قارب الحقّ والحقيقة.

* * *

وكانت مصادرُ البحث متنوّعةً، نلخّصها فيما يأتي:

١ ـ القرآن الكريم:

وقد أخذنا منه الآيات، وكلّها ذات مصدر موثوق؛ لأنّها من عند الله تعالى، فالقرآنُ كتابٌ بعيدٌ كلّ البعد عن التحريف أو التبديل أو التغيير أو التزوير، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

٢ ـ السُّـنَّـةُ النبويّـة الشريفـة:

وقد رأينا في الأحاديث النبوية طائفةً عطرةً من الأخبار التي ترفد كتابنا، وتضيء جوانب كثيرة منه، فحديث النبيّ ﷺ إخبار صادق ـ إن صحَّ الحديث ـ عما كان وجَرَى في الأيّام السالفة والدّهور الغابرة.

وقد أشرنا إلى تخريج الأحاديث في حواشي الكتاب؛ ليكون القارىءُ على بيّنة من أمره، ويدرك كُنْهَ ما يقرأ من روايات وأخبار.

٣ ـ كتب التفسير:

وقد شكّلتْ مادّةً مهمّة في بحثنا، ذلك أنّ المفسِّرين ذوي معارف واسعة، واطّلاع كبير، على تنوّع مذاهبهم، واختلاف منابعهم التي استقوا منها مواردهم، فكان فيما جمعوه وبوّبوه ما أفاد في موضوعنا، وأعطاه روحاً متجددة؛ في مختلف التراجم التي أتينا عليها.

٤ ـ كتب التاريخ:

وتُعتبر هذه الكتب موسوعات معرفية على غاية من الأهمية، ففيها سَرْد للأخبار، وتوثيق لها، وفَحْص عن أحوال الإنسان من خلال الحوادث والوقائع، وتكمن فائدة ذلك في معرفة الأمور على وجهها الصحيح، إذ كُتُبُ التاريخ أدلَّةٌ لضبط الروايات، لا سيما إذا توفّرت العدالة في المؤرّخ، مع الضبط التام الناشىء عنه مزيد الإتقان والتحرّي، علاوةً على التمييز بين المقبول والمردود، ليخرج الخبر التاريخي موثوقاً به، يحكي الحقيقة أو قريباً منها.

٥ ـ كتب الأدب:

وكانت مصدراً جيداً في توشيح كتابنا بنوادر الأخبار، ورائق الأشعار، ومُلَح العبارات، فقد نجدُ في الكتب الأدبية ـ لاسيما الموسوعية منها ـ ما لا نجده في الكتب التاريخية المتخصّصة.

* * *

وقد تطلبَ البحثُ عن المادة وجَمْعها وقتاً طويلاً، آثرنا أن نعطيه حقّه، ولو كلَّف مزيد وقت، وبذل جهد، وكثرة مراجعة وتدقيق؛ لما في ذلك من استيعاب واستقصاء لجوانب الموضوع عامة.

وتمَّ جمع الأخبار من هنا وهناك، من بطون كتب التاريخ، وأسفار التفسير، ومتون الأحاديث، وموسوعات الأدب، وبعد ذلك كان تحرّي الدّقّة في الانتقاء والاصطفاء والتوخّي، ومقارنة الروايات بعضها مع بعض؛ للوصول إلى كبد الحقيقة، قَدْر المستطاع، مع بذل كامل الجهد ما وسعني إلى ذلك السبيل.

وقد قسَّمتُ الترجمةَ الواحدة إلى فقرات كثيرة، كل فقرة تحمل عنواناً لمّاحاً، يحتوي قَدْراً كبيراً من المضمون، فيكون إضاءة وشعاعاً وتمهيداً صالحاً للدخول في الحديث.

وحاولت ـ جهد المستطاع ـ أن أوشّح الكتاب بوشاح جميل، مطرّز بالكلمات المنتقاة، والعبارات الدالّة، والأشعار المختارة، من خلال أسلوبٍ أدبي سلس، يُعرِّج على علوم البلاغة معظمها، والقصد من ذلك جَذْبَ الانتباه، وإعطاء التعابير حلاوةً وإشراقاً، ورَفْد الكتاب بأفانين البلاغة الموشّاة بحليةٍ أخّاذة تلذّ في السمع، وتسلس في التلاوة.

* * *

أمّا اختيار الشخصيات فكان بعد دراسةٍ عميقة مستفيضة؛ لأنَّ الشيء الملفت للنظر، والّذي يسترعي الانتباه، وقد ألزمتُ به نفسي، أن تكون

الشخصية مذكورةً في القرآن أو في الحديث النبوي الصحيح؛ لتصحّ تسمية الكتاب بـ: «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة»، ولأنأى عن الروايات الإسرائيلية بما فيها من أشياء غير صحيحة، أو أنها رَجْمٌ من الغيب.

ثم عرضتُ حياةَ الترجمة الواحدة عَرْضاً موسَّعاً، وبيّنتُ علاقةَ كلِّ شخصية بالنبي والأحداث التي جرت، والوقائع التي تبلورتْ؛ حسب مُقتضى الحال ومتطلبات المقام، مع ذِكْر الدروس المستفادة، والعِبَر المستخلصة، والوقوف عند بعض الأحكام، وتوضيح طائفة من المفاهيم التي ترسّخت في الأذهان بشكل غير سليم.

هذا؛ وإنّ المتأمِّل لحواشي الكتاب يجدها مُفعمةً بما نقول، ففيها مصادر توثيق الأخبار، وشرح الكلمات، والتعليق اللغوي، وتوضيح المعاني، والإرشادات والعظات المستفادة من هذه الترجمة أو تلك.

* * *

ولعلَّ سائلاً يسأل: أين الحديثُ عن نساء النبي محمد ﷺ؟.

فنقول:

في النيّة أن نُخْرِج نساء النبي ﷺ في كتابٍ مُسْتَقل، لأنّ حديثهنّ واسع، ويحتاج إلى تفصيل وتدقيق، ولعلَّ الله عز وجل أن يوفِّقنا لاستكمال البحوث، وإخراجها إلى دائرة النور، فيسعد القارىء، ويفيد ـ بإذن الله ـ مما تخطّه أقلام الكتّاب الملتزمين بطريق الحق والخير.

* * *

اللهم اجعل أعمالنا خالصةً لوجهك الكريم، وتقبّلها منّا بقبول حَسَن، واجعل ثوابها في صحائف أعمالنا.

اللهم ياحيّ ياقيوم، اغفرْ لنا زلّاتنا، واجعل طاعتنا لوالدينا وبرّنا بهم أقرّ لعيوننا من رقدة الوسنان، وأثلج لصدورنا من شربة الظمآن، حتى نقدِّم

رضاهم على رضائنا، ونستكثر برّهم بنا وإن قلّ، ونستقلّ برّنا بهم وإن كَثُر.

اللهم ارحم والدينا، واغفرْ لهم، وارحمهم، وارضَ عنهم رضاءً تحلّ به عليهم جوامع رضوانك، وتحلّهم به دار كرامتك وأمانك، ومواطن عفوك وغفرانك، وأدِرّ عليهم لطائفَ برّك وإحسانك.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزِدْنا علْماً يا أرحم الرّاحمين.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

دمشق في ٤/ شعبـــان / ١٤١٣هـ
٢٧/ كانون الأول/ ١٩٩٢م

وكتبه
أحمد خليل جمعة

زوج النبي آدم عليه السلام

* زوج أول الأنبياء على الإطلاق بنصّ القرآن والسُّنة.
* أول امرأة تحيا على الأرض من عالم النساء.
* أم البشر كلّهم رجالاً ونساء.
* شاركت زوجها آدم في بناء الكعبة المشرفة.
* كانت تحمل في البطن الواحد ابناً وبنتاً (توءمان)، ليتّم التزاوج بين أفراد البطنين، وتستمر الحياة.
* كانت أم الأمهات، وقدوتهن في الأمومة.

﴿ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ :

* إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حينما تعلّقتْ إرادتُه بإيجاد هذا الكون بما فيه من الموجوداتِ أنواعاً وأجناساً، اقتضتْ حكمتُه الباهرة أنْ يختارَ نوعاً من هذه الموجودات ـ وهو الإنسان ـ فيجعله سيّدَ هذا الكون، ويجعل مظاهره وموجوداته مسخّرة له، قائمة لخدمته، وأنْ يَكِلَ إليه عمارته وأَمْر تنظيمه، فكيف كان خَلق هذا الإنسان؟.

* لنعشِ الآن لحظات مع قصَّةِ البشريّةِ الأولى. وها نَحنُ أولاء ـ بعينِ البصيرةِ ـ في سَاحةِ الملأ الأعلى، وها نحنُ أولاء نسمع ونرى قصَّة البشريّة الأولى.

* انصرفتْ مشيئةُ الله عزَّ وجلَّ إلى خَلْقِ آدم[1] ـ عليه السَّلام ـ أوضحَ القرآن الكريم أنَّ آدمَ خُلِقَ مِنْ تراب، ومادة التّراب آيةٌ من آيات الله تعالى.. فالله سبحانه يخلقُ ما يشاء وما يريد بقوله: «كُنْ» وذلك دونَ وجود مواد أوليّة، إذ إنَّ اللهَ يخلقُ منْ عَدَمٍ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

* وكان في خَلْقِ آدمَ ـ عليه السَّلام ـ أمْرٌ مهمّ تجلّتْ فيه مظاهر القُدرة الإلهيّة؛ إنَّه منتهى الإبداع والإعجاز، وإنَّها القدرةُ الإلهيّةُ التي تخلقُ من العَدَم وجوداً، وتجعل من الجماد حياةً وروحاً؛ تجعل من الضَّعفِ قوّةً، ومن

---

(١) «آدم»: اسم علم ممنوع من الصَّرف، وبعضهم قال: هو علم أعجمي. وأخطأ مَنْ زعم أنّه مشتقٌ من الأدمة، أي: السُّمرة، أو من أديم الأرض، أي: وجهها.
قال أبو البقاء العكبري ـ رحمه الله ـ: اسم آدم ليس بعجمي. وقال أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقيّ ـ رحمه الله ـ في كتابه «المعرب»: أسماء الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسَّلام ـ كلّها أعجمية نحو: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وإلياس، وإدريس، وأيوب... إلا أربعة: آدم، وصالحاً، وشعيباً، ومحمداً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

السُّكون حركةً، فإذا التُّرابُ يتحركُ، وإذا الطِّينُ يتكلَّمُ، وإذا الجماد بَشَرٌ سويٌّ لطيفٌ، ظهر في أَجْمَلِ صورة، وأحسنِ تقويم. . . قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

* حدّثنا القرآنُ الكريمُ عن خَلْقِ آدم ـ عليه السلام ـ، وأخبرنا أنَّه كان أول مخلوق من البشَر، فهو أَصْلُ هذا العالَم. . . .

* وشاءتِ القدرةُ الإلهيّةُ أَنْ يكونَ موضع آدم وذريّته على كوكب الأرض، وكان آدم بدايةَ وجود الإنسان، وكان عالماً بكلِّ شيءٍ من لَدُن عليم خبير، حيث عَلَّمَهُ الأسماء كلَّها. . .

* إنَّ الغايةَ من خَلْقِ آدم ـ عليه السلام ـ وذريّته، وسائِر المخلوقاتِ؛ هي عبادةُ الله سبحانه.

* وتعني كلمة «خَليفَة» في سورة البَقَرة: أنَّ وجودَ الإنسانِ تمثيلٌ وعبوديةٌ لربِّ العَالمين على كوكبِ الأرض لأَجَلٍ مُسمىً، ثم يرثُ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وإليه يرجعون. . .

* ولهذا عندما اقتضتْ مشيئةُ اللهِ وحكمته الأزليّة خَلْق آدم ـ عليه السلام ـ أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ الملائكةَ بذلك، وأنبأهم بأنَّه سيكون من ذريّته أناسٌ يفسدون في الأرضِ ويسفكون الدِّماءَ. . .

* عندئذ تعجَّبَ الملائكةُ الكرامُ، واستفسروا عنِ الحكمةِ الإلهيّةِ في خَلْق هذا الإنسانِ، وإلى ذلك قال الله عزَّ وجلَّ موضِّحاً ذلك في القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠][1].

---

(١) في هذه الآيةِ الكريمة وقْفَةٌ لطيفةٌ، وإشارةٌ تعليمية ذكرَها بعضُ العُلماء فقال: في إِخْبار الله عزَّ وجلَّ للملائكةِ عن خَلْق آدم ـ عليه السَّلام ـ واستخلافه في الأرض تعليمٌ لعباده المشاورة في أمورهم قبل أنْ يقدموا عليها.

اسجُـدُوا لآدم:

* تّمت مشيئةُ اللهِ تعالى، وخَلَق آدم، وبعد أنْ نفخَ فيه الرُّوحَ وهَبَه منَ الأسرارِ ما يرفعه على الملائكة، وَهَبه سِرَّ المعرفة، كما وهَبَهُ سِرَّ الإرادة المستقلّةِ التي تختارُ الطَّريقَ... ثم أَمَرَ الملائكة بالسُّجود[1] له، كان هذا السُّجود سجودَ تكريم وتحيّة[2]... يؤكّدُ الله تعالى أنَّ سجودَ الملائكة لآدمَ ـ عليه السلام ـ ليس سجودَ تَفْضيل، وإنّما هو سجودَ تعظيم لَمنِ خَلَقه[3]، وهو الله تبارك أحسن الخالقين... سجد الملائكة امتثالاً للأَمْرِ العلويّ الجليل.. ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٢].

* إنَّ عدَم سجود إبليس[4] لسيّدنا آدمَ ـ عليه السّلام ـ كان حسداً وتكبّراً منه بسبب اختلاف خَلْقِهِ عن خَلْقِ آدمَ فإبليس خُلِقَ منْ نار، وآدمُ خُلِقَ من طين... وظنَّ إبليس أنَّه بجوهره أفضل من آدم ـ عليه السَّلام ـ[5].

---

(١) «السجود»: في اللغة: التّذلل والخضوع؛ وفي الشّرع: وضْعُ الجبهة على الأرض.

(٢) انظر الكشّاف (١/ ٢٧٣).

(٣) أوضح الإمامُ القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ هذه الفكرة فقال:
اختلفَ النَّاسُ في كيفيّةِ سجود الملائكة لآدمَ بعد اتفاقهم على أنَّه لم يكن سجود عبادة، فقال الجمهور: كان هذا أمراً للملائكة بوضع الجباهِ على الأرض، كالسّجود المعتاد في الصَّلاة، لأنَّه الظّاهر من السُّجودَ في العُرف والشَّرع، وعلى هذا قيل: كان ذلك السّجود تكريماً لآدم وإظهاراً لفضله، وطاعة لله تعالى.... (تفسير القرطبي ١/ ٢٩٣).

(٤) «إبليس»: اسم علم أعجمي... وهو ممنوع من الصّرف للعلمية والعجمة.
ووهمَ مَنْ قال: إنَّ إبليس مشتقٌّ من الإبلاس ـ أي: البأس ـ ولو كان مشتقاً من الإبلاس لانصرف.
إذ يتبادر إلى الذهن سؤال: لم مُنِعَتْ لفظة إبليس من الصَّرف لولا العلمية والعجمة؟!!.

(٥) قال الحكماءُ: أخطأ عدوّ الله في تفضيله النّار على الطّين، لأنَّ الطينَ أفضلُ منها من أوجه: =

* وهنا تتبدّى خليقةُ الشَّر مجسّمة: عصيانُ الله تعالى... الاستكبارُ عن معرفة الفَضْل لأهله... العزّةُ بالإثم... الاستغلاقُ عن الفهم... لم يعرف إبليس أنَّ الغاية من السّجود هي لله ربِّ كلِّ شيء سبحانه، وليس لآدمَ بالذَّات.

* هذه الحادثة لأَمْرٍ أراده الله عزَّ وجلَّ، ليهبط آدم وزوجه من الجنّةِ إلى الأرض، لتكون المعركة الخالدة بين خليفةِ الشَّرِّ في إبليسَ، وخليفة الله في الأرض، وليكون من إبليس وذريته وسائل غواية لبني البَشَر، لامتحان إيمانهم على سطح الأرض...

* حكى الله عزَّ وجلَّ قصَّة رَفْض إبليس السّجود لآدم في أكثر من سورة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ

= أحدها: أنَّ من جوهر الطّين؛ الرّزانة والسّكون والوقار والحلم والأناة والحياء والصّبر، وذلك سبب توبة آدم وتواضعه وتضرعه، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية.
وجوهر النّار: الخفة والطّيش والحدة والارتفاع والاضطراب، وذلك سبب استكبار إبليس فأورثه اللعنة والهلاك.
الثاني: أنَّ الجنة موصوفة بأنَّ ترابها مِسْكٌ ولم يُنْقل أنَّ فيها ناراً.
الثالث: أنَّها سببُ العذاب بخلاف الطّين.
الرابع: أنَّ الطّينَ مستغن عن النَّار، وهي محتاجة إلى مكان وهو التراب.
الخامس: أنّ الطينَ سبب جمع الأشياء، وهي سبب تفريقها ـ والله أعلم ـ.

(١) خصَّ اللهُ سبحانه آدمَ ـ عليه السَّلام ـ بأربعةِ مزايا هي آية الفضل، وعنوان الشّرف الوافي، وهي:
١ ـ خلقه الله عزّ وجلّ بيده.
٢ ـ نفخ فيه من روحه.
٣ ـ أَمَرَ الملائكة الكرام بالسّجود له.
٤ ـ علّمه الأسماء كلها.
ولهذا حَسَدَ ـ عدوّ الله ـ إبليس سيّدنا آدم على ما أعطاه الله عزّ وجلّ من الكرامة =

﴿ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٢ ـ ١٦][1].

وقال في سورةِ ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٥ ـ ٧٦][2].

* وهكذا امتنع إبليس عن السّجود، فطرده الله سبحانه، وأبعده، وأخرجه من الحضرةِ الإلهيةِ ونفاهُ عنها، وأهبطَه إلى الأرضِ طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً[3]...

* أخرجَ الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن أبي صَالح عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

* «إذا قرأَ ابنُ آدمَ السَّجدة فسجدَ، اعتزل الشّيطانُ يبكي يقول: يا وَيْلَهُ! أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسّجود فسجدَ فَلَهُ الجنَّة، وأُمِرْتُ بالسُّجود فأبيتُ فَلِيَ النَّار»[4].

= فقال: لا أسجد له وأنا خير منه، وأكبر سنّاً، وأقوى خلقاً، وأنا ناريّ، وهذا طيني، فكان بدء الذّنوب الكِبْر، استكبر عدو الله أنْ يسجدَ لآدمَ، فآيسه الله سبحانه من الخير كلّه، وكان من الكافرين الأولين.

(١) «الصاغرين»: الأذلاّء المُهانين. «أنظرني»: أخّرني وأَمهلني في الحياة. «أغويتني»: أضللتني. «لأقعدن لهم»: لأترصدنّهم ولأجلسنّ لهم.

(٢) من أسرار الإعجاز القرآني قوله تعالى: ﴿ألا تسجد﴾ في سورة الأعراف: أي من الذي أرغمك على عدم السّجود؛ وقوله تعالى: ﴿أن تسجد﴾ في سورة ص: أي ما منعك أن تسجد بمحض إرادتك؛ أي: إن إبليس يتصف بالعصيان والتكبر، فهذه محاجّة مزدوجة.

(٣) إن الكبر والعناد والإصرار على الفساد أسبابٌ لاستحقاق السخط الإلهي، فإن إبليس الذي أبى السجود، وأصرَّ على موقفه الخاطىء، وعاند الله تعالى، فغضب الله عليه وطرده من الجنة، وأوعده بنار جهنم، وكذلك مصير كل معاند.

(٤) انظر صحيح مسلم (١/ ٦١) في الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصَّلاة، وأخرجه ابن ماجه (١٠٧٢) باللفظ نفسه في إقامة الصّلاة والسُّنّة =

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾:

* بعد أنْ خَلَقَ الله عزَّ وجلَّ سيِّدنا آدَم أسكنه الجنَّة، كان يمشي فيها وحيداً، لم يكن له مَنْ يجالسه أو يؤنسه، أو زوج يسكن إليها، أراد الله عزَّ وجلَّ أن يجعلَ له مايملأ عليه حياته، فخلَقَ له حوّاء(١).

* قال المفسِّرون في هذا: إنَّ آدم ـ عليه السّلام ـ نامَ نومةً، فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة خلقها الله لتسكن إليها نفسه تُسمّى حواء.. سميت بهذا الاسم لأنها خلقت منْ حيّ، أو لأنها أمُّ كلِّ حيٍّ(٢).

* يُروى عن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّها خُلقت من أَحَدِ أضلاع آدم ـ عليه السَّلام ـ وهو نائم دون أنْ يحسَّ بألم(٣)...

= فيها. باب: سجود القرآن. وانظر البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٩١).

(١) انظر: المعارف (ص ١٥) وغُرر التّبيان (ص ١٢٦) ومفحمات الأقران (ص ٣٩) والكامل (١/ ٣٢) وتاريخ الطّبري (١/ ٧١) ومروج الذّهب (١/ ٣٤) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ٣٤٠) ومختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣١١) وحدائق الإنعام (ص ٩١) والبداية والنّهاية (١/ ٧٤) وشفاء الغرام (١/ ١٤١) وتفسير الطّبري (١/ ٢٢٩) وتفسير الرّازيّ (٣/ ٣ و٤) وتفسيريّ الخازن والبغوي (١/ ٤٩) وتفسير الماورديّ (١/ ٩٣) والدر المنثور للسيوطي (١/ ١٢٧) والإتقان (٢/ ١٠٩١) وتفسير الصّاوي على الجلالين (١/ ٢٢) وفتح القدير للشّوكاني (١/ ٧٠) والطّبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٣٩ و٤٠) وغيرها من المصادر التي لا تكاد تُحصر في هذا المقام.

(٢) عن تفسير الطّبريّ (١/ ٢٢٩) وتفسير الفخر الرّازيّ (٣/ ٣، ٤) والدّر المنثور (١/ ١٢٨) بشيء من التّصرف. وانظر مختصر تاريخ دمشق (٤/ ٢٢٢).
قال أهل الأخبار: أربعةٌ فيهن روح ولم يركضوا في رحم: آدم، وحواء، والكبش الذي فُدي به إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ وعصا موسى حيث ألقاها فصارت ثعباناً مبيناً...
انظر مثلاً (عيون الأخبار ١/ ٢٠٠) و(بهجة المجالس ٢/ ١٥٤).

(٣) قد يسأل سائل: كيفَ خُلقت حواء داخل الجنَّة حين أُلقي النوم على آدم علماً بأنَّ الجنة لا نوم فيها ولا يخرج أهلها منها؟ =

* في الصَّحيحِ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «استوصوا بالنِّساء، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيء في الضِّلعِ أعلاه، فإن ذَهبْتَ تقيمه كسرتَه، وإنْ تركتَه لم يزلْ أعوج فاستوصوا بالنّساءِ»(١).

* وقد أخذ أحد الشُّعراء هذا المعنى فصَاغَهُ شعراً فقال:

هـي الضّلـعُ العـوجـاء لسـتَ تقيمهَـا
أَلاَ إنّ تقـويـمَ الضُّلـوعِ انكسـارهـا
أتجمـعُ ضَعْفـاً واقتـداراً علـى الفتـى
أليـسَ عجيبـاً ضَعْفُهـا واقتـدارهـا؟

* إنَّه منَ المؤكَّدِ في القرآنِ الكريمِ أنَّ الله عزَّ وجلَّ خَلَقَ آدم وزوجه حوّاء، وأنّهما أصل النَّوع الإنساني... أمّا كيفيّة ذلك الخَلْق، والتَّفاصيل الدَّقيقة، والزَّمن الذي استغرقه، فهذا غيرُ صريح في القرآن الكريم، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ . . ﴾ [الكهف: ٥١].

* إنَّ هذا الأمرَ ـ خَلْق حوّاء ـ إنّما هو قول ربِّ العالمينَ «كن» «فيكون». أَمَّا في القرآنِ الكريم، فقد أظهرتْ آياته أنَّ الغايةَ مِنْ خَلْقِ حوّاء هي الاستقرار النَّفسي للجنسَيْنِ معاً؛ الذّكر والأنثى، وأنَّ هذا التآلفَ الرُّوحيَّ بينهما هو بإرادة الله عزَّ وجلَّ، فكلٌّ منهما متمّمٌ للآخر يسكن إليه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . ﴾ [النساء: ١].

= والجواب: بأنَّ ذلك في دخولِ الجنّة يوم القيامة بعد الحِسَاب، والله أعْلم، وله الأَمْرُ من قبلُ ومن بعدُ.

(١) فتح الباري (٦/٤١٨) حديث رقم (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨) في الرضاع، باب: الوصية بالنساء... «استوصوا بالنساء»: اقبلوا وصيتي فيهن، واعملوا بها، وارفقوا بهن، وأحسنوا عشرتهن.

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ :

* قضى اللهُ عزَّ وجلَّ أَمْرَهُ لآدمَ وحوّاء بسكنى الجنَّةِ، فامتثل آدم وحوّاء الأَمْر العلويَّ الإلهي، وسَكَنَا الجنَّةَ . . . ولكنْ . . . ما الجنَّة التي عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمان؟ .

* في الحقيقةِ لانعرفُ مكانَ هذه الجنَّة[1]، فهذا غَيْبٌ مِنَ الغيبِ الذي استأثر الله تعالى بعلْمِه، وعَلِمَ بحكمته أن لاجدوى للبشرِ في معرفةِ طبيعتها وكنهها، فلندعِ الغيبَ لله الواحد القهّار، وحسبنا ما يقصُّ لنا عنه بالقَدْرِ الذي يصلحُ لنا في حَياتنا . . .

* دَخَلَ آدم وزوجه الجنَّة . . وأباح لهما أنْ يأكلا منها رغداً حيثُ شاءا، أَطْلَقَ لهما العنان في اجتناء ما يريدان من ثمارها . . . أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى آدم أنِ اذكر نعمتي عليك إذ خلقتك وسوّيتك بَشَراً سويّاً على مشيئتي، ونفختُ فيك من رُوحي، وأفضتُ عليك من علمي، وأسجدت لك ملائكتي، وها هي دار الخلد جعلتُها لك منزلاً ومقاماً، وهذا إبليس قد أيأسته من رحمتي، ولعنْتُه حين خرج عن طاعتي، فلا تنسَ أنَّه عدوٌّ لكَ ولزوجكَ فلا يخرجنّكُما من الجنَّةِ فتشقى . . .

* ثم إنَّ الله سبحانه نهاهما أنْ يقربا شجرةً منْ أشجارِ الجنَّة، وكيما يزيد من التأكيد في ذلكَ أشارَ إليها، وحدّدها لهما، قال عزَّ وجلَّ :

---

(١) لقد سكتَ القرآنُ الكريم عن مكان الجنَّة . . . واختلف المفسّرون فيها . . . قال قاضي القضاة الماورديّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره: اختُلف في الجنّة التي أسكناها على قولين:
الأول؛ إنها جنّة الخلد.
الثاني؛ إنها جنّة أعدّها الله لهما. والله أعلم.(تفسير الماورديّ ١/ ٩٤). وانظر: حادي الأرواح لابن القيم تحقيق: يوسف علي بديوي (ص ٥٢ ـ ٨١) تجد تفصيلاً وافياً.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ[1] ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا[2] حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

* ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ وَعَدَ آدمَ وحواء أن يمدَّ لهما في أسباب النَّعيم إنِ اجتَنَبا الشَّجرة التي نهاهما عنها، فلا يشعران بجوع، ولا يمسّهما عريٌ، ولا ينالهما ظمأٌ ولا نَصَبٌ ما داما في الجنَّةِ... قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[3] [طه: ١١٨ ـ ١١٩].

كَيْفَ كَانَتْ حَيَاتُهُمَا؟

*كانتْ حياةُ آدم وحوّاء في الجنّةِ حياةَ البراءةِ المُطلقة التي ليس لها حدود، عَرَفَ آدم معاني السَّعادة والارتياح حين أصبح مع حوّاء في الجنّة... لم يَعُدْ يشعر بالوحدة، ويحسُّ بالملَلِ... صار يتمتَّع بما في الجنَّةِ من كلِّ ما تشتهيه الأنفسُ، وتَلَذُّ الأَعْيُنُ، ولعلّه كان يتحدّث مع حوَّاءَ كثيراً، ويسمعان لتسبيح كلّ شيء بحمد الله الذي أَحْسَن كلَّ شيءٍ خَلَقَه..

* ولعلَّ آدم وزوجه أيضاً كانا يقتطفان من ثمار الجنَّةِ، ويتنقَّلان بينَ

---

(١) «الزّوج»: الفرد إذا كان معه آخر يقترن به للتّناسل.
الذّكر زوج، والأنثى زوج، وهما زوجان، والجمع أزواج.
والزّوج: الصّنف، والشّيء يكون له ما يقرن معه في الذكر نظيراً كان أو ضداً، والجمع أزواج.
وزوّجه امرأة: أنكحه إياها وجعلها له زوجاً.
زوجك: امرأتك.
قال الشّوكاني ـ رحمه الله ـ قوله تعالى: ﴿وَزَوْجُكَ﴾ أي حوّاء، وهذا هي اللغة الفصيحة، زوج بغير هاء. (فتح القدير ١/ ٦٧).
وقد وردت كلمة «زوجك» في القرآن الكريم في أربعةِ مواضع: في سورة البقرة آية (٣٥) والأعراف آية (١٩) وطه آية (١١٧) والأحزاب آية (٣٧) وكلها بمعنى امرأتك.

(٢) «رغداً»: أكْلاً واسعاً أو هنيئاً لا عَنَاء فيه.

(٣) «لا تضحى»: لا تبرز للشمس فيصيبك حرُّها.

أشجارها، ويرتويان من أَنْهارِها العَذْبَةِ. . . وعاشا كذلك وهما يرشفان من مناهل السَّعادة، ويتنعَّمانِ في ظلال الجنّةِ، ويتمتعان بفَضْلِ الله تعالى. . .

* فَهِمَ آدم وحوّاء أنّهما ممنوعان مِنَ الأكْلِ من هذه الشَّجرة[1]، فَهِما ذلك على جهَةِ الإرشاد والإعْلام والنَّصيحة، لا على نهي التّكليف، فكانا كُلّما اقتربا منها تباعدا عنها مُسْرِعَيْنِ. . .

* كان آدم وحوّاء في جوار الله تعالى، وفي جنّته ليس لهما ربّ غيره، ولا رقيب دونه، يأكلان منها رغداً، ويسكنان حيث شاءا أو أَحَبَّا، وظلّا كذلك ما شاءَ اللهُ لهما. . .

إبليسُ يُغَرّرُ بآدَمَ وحوّاءَ:

* كان إبليسُ ـ لعنه الله ـ يتربّصُ بآدمَ وحوّاء، فبسببِ آدَم طُرِدَ من رحمة الله عزَّ وجلَّ، إذ عصى الله ولم يسجدْ لآدمَ كما أمره. عَلِم إبليس بخبثِهِ أنَّ العِصْيَانَ سببُ طردِه، فأَخَذَ يفكّر كيف يطرد آدم وزوجه من ذلكَ النَّعيمِ المقيم الذي جعلهما الله فيه. . .

* راحَ إبليسُ يوسوسُ إلى آدمَ على جهةِ الإغواء والحسَدِ والمكْرِ، لم يقبلْ منه آدم ذلك، ثم أَنْساه الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك إرشاده إيّاه، ووصيّته له، كرّر إبليسُ وسوسته يوماً بعد يوم، كما ذَكَرَ الله سبحانه في محكم التّنزيل: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾؟ [طه: ١٢٠].

---

(١) لم يذكر القرآن الكريم هذه الشّجرة، أو اسمها، ولم يحدّد ماهيتها. . . بينما اختلف المفسرون في نوعها وأرسلوا القول في ذلك، فقيل: هي الكرم؛ وقيل: الحنطة، وقيل: النّخلة؛ وقيل: التّينة.
قال أبو العالية ـ رحمه الله ـ: كانت شجرة مَنْ أكلَ منها أَحْدث، ولا ينبغي في الجنَّة حَدَث. قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ قولاً لطيفاً في هذا المجال: وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعيّنها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن. (قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٠).

* مرَّت أوقاتٌ، وآدم وحوّاءُ مشغولان بالتّفكير في أَمْرِ هذه الشَّجرة، وإبليس يوسوس لكليهما، ويظهر لهما العطف والودّ، غير أنَّه وَجَدَ أنَّ هذه الأشياء لم تُفِدْهُ قليلاً أو كثيراً.

* فكَّر إبليس في طريقة أخرى، لعلّ آدمَ وزوجَه حوّاء يسمعان إلى نصيحتهِ المزعومة، لجأ إلى طريق الحيلة، أوهمهما أنَّه صادق الودّ لهما، وأنَّه لا يقصد ضررهما، وأشفق من زوال النّعمة التي يعيشان في خلالها كما حكى الله عزَّ وجلَّ في القرآن الكريم: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

* وشامّ عدوّ اللهِ الأبوين، فأحسَّ منهما إيناساً وركوناً إلى الخُلْدِ في تلك الدّار، في النّعيم المقيم، فعلم أنَّه لا يدخل عليهما مِنْ غيرِ هذا الباب...

* في خبثٍ مبطّنٍ قال إبليسُ لآدمَ وحواءَ[1]: إنَّ اللهَ قد علِمَ أنكما لستما تموتان، ولكنْ علمَ أنّكما حين تأكلان من هذه الشَّجرة فتكونا ملكَيْنِ يعلمان الخير والشَّر، وإنّي أقسم لكما يا آدم ويا حواء؛ إنّي لكُمَا لمن النَّاصِحين: إنَّها شجرةُ الخُلْدِ مَنْ أكَلَ منها لم يمتْ...

فلمّا أنْ حَلَفَ إبليس، قال آدمُ لحواءُ: فأنا أَدَعُ أَكْلَ هذه الشَّجرة...

فقالت حواء: أَمَا ترى إلى يمينهِ بالله إنّه لمنَ النَّاصحين؟!!!...

---

(١) قال ابنُ قيّم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه القيّم «إغاثة اللهفان من مصايد الشّيطان» ما ملخصه:

وأول كيد الشَّيطان ومكره: إنّه كَادَ الأبوين بالأيْمان الكاذبة، أنَّه ناصحٌ لهما، وأنّه إنّما يريد خلودها في الجنّة... وعلم عدو الله أنّهما إذا أكلا من الشَّجرة بدت لهما عوراتهما، فإنّها معصية. والمعصية تهتكُ ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انْهَتَك ذلك السّتر، فبدت لهما سوآتهما.

فالمعصيةُ تبدي السّوأة الباطنة والظّاهرة، وإنَّ الله سبحانه أنزل لباسَيْن: لباساً ظاهراً يواري العورة ويسترها، ولباساً باطناً من التّقوى يجمل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها. (إغاثة اللهفان ١/ ١١١ و١١٢) بشيء من الاختصار والتصرف.

وذلك أنّهما لم يَرَيَا أَحَداً يحلف بالله، ولاعَلِمَا أن أَحَداً يحلفُ بالله كاذِباً،

* وبذلك دَاعَبَ إبليسُ رغائب الإنسانِ الكامِنَة... فالإنسانُ يحبُّ أنْ يكونَ خالداً لا يموتُ، أو مُعَمَّراً أَجَلاً طويلاً كالخلودِ، ويحبُّ أنْ يكونَ له مُلْك غير محدّدٍ بالعمرِ القصير المحدّد...

* تابعَ إبليسُ وسوسته... تمادى في إغوائِهِ وإغرائه لآدمَ وحوّاء... وزادَ في هذا أنَّه أقسم لهما بأعظمِ الأيمان أنّه ناصحٌ لهما، وأنّه في نصْحِهِ صادقٌ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

* وبمرورِ الأوقاتِ وانقضاء الزَّمنِ أُلقيَ النِّسْيَانُ على آدمَ ـ عليه السَّلام ـ.

نسيَ آدمُ وزوجه ـ تحتَ إغواءِ إبليس وقسمه العظيم المُخدّر ـ أنّه عدوّهما الذي لا يمكن أنْ يدلَّهما على خَيْر... نسيا هذا كلّه... واندفعا يستجيبان للإغراء...

قال الإمامُ أبو عبدِ الله القُرْطبيُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره:

يقال: إنَّ أولَ مَنْ أكل مِنَ الشَّجرة حوّاء بإغواء إبليس إياها، وإنَّ أولَ كلامه كان معها، فقال:

مامنعتما هذه الشَّجرة إلا أنَّها شجرةُ الخُلْدِ... لأنَّه عَلِمَ منهما أنَّهما كانا يحبَّان الخُلْد، فأتاهما مِن حيثُ أَحَبَّا. وفي الحديث: «حُبُّكَ الشَّيءَ يُعْمي ويُصِمُّ»[1].

فلمّا قالت حوّاء لآدم أنكر عليها وذكر العَهْدَ... فألحَّ على حوّاءَ، وألحتْ حوّاءُ على آدمَ إلى أنْ قالت: أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيءٌ سَلِمْتَ أنتَ... فأكلتْ فلمْ يضرّها، فأتتْ آدم فقالت: كُلْ فإني أكلتُ فلم يضرّني[2]...

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد، وإسناده ضعيف (فيض القدير ٣/ ٣٧٢).

(٢) عن تفسير القرطبي (١/ ٣٠٧) بشيء من الاختصار؛ وانظر تفسير الطبري =

* استجاب آدمُ وحوّاء، وأكلا منَ الشَّجرةِ ظَنّاً منهما أنّهما سيخلدان في الجنَّةِ، فلمّا أكلا منهما بدتْ لهما سوآتهما[1] ـ عوراتهما ـ وتمتْ خدعة إبليس، وآتت ثمرتها المرّة، لقد أنزلهما الشّيطان بهذا الغرور من طاعة الله تعالى إلى معصيتهِ فأنزلهما إلى مرتبةٍ دُنْيا.

* لم يكن آدم ـ عليه السَّلام ـ قد عَلِمَ أنَّه يموتُ بعد، واشتهى الخلود في الجنَّة، وحصلتْ له الشُّبهة من قولِ العدوِّ وإقْسَامِهِ بالله جهد إيمانه، أنّه ناصحٌ لهما، فاجتمعتْ الشُّبهة والشهوة وساعد القَدَرُ، فأخذتهما سنةُ الغَفْلة، واستيقظ لهما العدوُّ كما قيل:

= (١/ ٢٣٦ و٢٣٧).
أخرجَ البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «لولا حواءُ لم تَخُنْ أنثى زوجها».
وفي هذا الحديث إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشَّجرة، وتحريضه على مخالفة الأمْر بتناول الشَّجرة؛ فمعنى خيانتها: أنَّه قد قبلتْ ما زيَّنَ لها إبليسُ حتى زينته لآدمَ؛ وليس المرادُ بالخيانةِ هنا ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا، إذ خيانة الفجور لم تقعْ من امرأة نبيّ قطّ، ولكنْ لمّا مالت إلى شهوة النفسِ من أكل الشّجرة وحسّنت ذلك لآدم عُدّ ذلك خيانة له.
وأمّا مَنْ جاء بعدها من النّساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها؛ وفي الحديث الشَّريف إشارة إلى تسلية الرّجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمّهن الكبرى، وأنَّ ذلك من طبعن، فلا يفرط من لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور، وينبغي لهن ألا يتمكّن بهذا في الاسترسال في هذا النّوع، بل يضبطن أنفسهن، ويجاهدن هواهن، والله المستعان.

(١) قال وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ: كان لباس آدم وحوّاء النّور، لا يرى هذا عورة هذا، ولا هذا عورة هذا، وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٦].
وقال ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: كان لباس آدم وحواء كالظفر، فلما أكلا الشّجرة لم يبق منه شيء إلا مثل الظفر: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢١] و[طه: ١٢١].

واستيقَظُـــــوا وأَرادَ اللهُ غَفْلَتهـــــم
لينفـــذَ القَـــدَرُ المحتـــومُ فـــي الأَزَلِ

عِتَـابٌ وتَـوْبَـةٌ:

* أكلَ آدمُ ـ عليه السَّلام ـ ناسياً، وعُوتِبَ على نسيانه الوصيّة، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

* خرج آدمُ وزوجُه حوّاء عَنْ أَمْرِ ربِّهما بمشيئةِ الله سبحانه، وناداهما[1] ربُّهما مذكّراً لهما وقائلاً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

* سَمِعَا هذا العتاب والتأنيب من ربّهما على المعصيةِ، وعلى إغفال النَّصيحةِ، وأمام النّداء العلويّ، تذكّر آدمُ وحوّاء الوصيّة، فأنابا إلى الله عزَّ وجلَّ، وأدركا زلّتهما، وندما على فعلتهما، وطلبا العونَ منَ اللهِ والمغفرة؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣][2].

* نَهضَ آدمُ من عَثْرته، وأدركته رحمةُ الله تعالى، وتابَ عليه، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧][3].

---

(١) أما كيف كان النداء، وكيف سمعاه، فهو كما خاطبهما سبحانه أول مرة، وكما خاطب الملائكة الكرام، وكما خاطب إبليس، كل ذلك غيب لا ندري عنه إلا أنه وقع كما أخبر عنه القرآن الكريم، وأن الله يفعل ما يشاء، وكما يشاء، وكيف يشاء، سبحانه وتعالى.

(٢) قال الإمامُ فخر الدّين الرازيّ ـ رحمه الله ـ: إنّما اكتفى الله تعالى بذكر توبة آدم دون توبة حوّاء، لأنّها كانت تبعاً له، كما طوى ذكر النّساء في القرآن والسُّنة لذلك، وقد ذكرها في قوله: ﴿ربنا إنا ظلمنا أنفسنا﴾ (تفسير الرازي ٣/ ٢٥).

(٣) إنَّ التوبة والإنابة إلى الله تعالى هي سبيل الفوز برحمة الله تعالى، والظفر بمغفرته عز وجل، فإن آدم عليه السَّلام الذي عصى ربه تاب، فتاب الله عليه وقبل توبته، فعلى العاصي والمقصر أن يبادر إلى الرجوع إلى ربه، ويستغفر خالقه دون يأس من رحمة الله ومغفرته.

* أخرج أبو جعفر الطَّبريُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره عن مجاهد ـ رحمه الله ـ كان يقولُ في قولِ الله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾:

الكلماتُ: اللهم لا إله إلا أَنْتَ سبحانك وبحمدك؛

ربّ إنّي ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي، إنَّك خيرُ الغَافرين...

اللهّم لا إله إلا أَنْتَ سبحانك وبحمدك؛

ربّ إنّي ظلمتُ نفسي فارحمني. إنَّك خيرُ الرَّاحمين...

اللهّم لا إله أَنْتَ سبحانك وبحمدك؛

ربّ إنّي ظلمتُ نفسي فَتُبْ عليَّ، إنّك أَنْتَ التَّوابُ الرَّحيمُ[1].

﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾:

* يبدو أنَّ هبوط آدم وحوّاء من الجنَّة كان في يوم الجُمعة، كما وَرَدَ في دواوين الحديث النّبويّ الشّريفِ...

* أخرجَ الإمامُ أبو داود ـ رحمه الله ـ بسنده عن أبي سَلمةَ بنِ عبدِ الرحمن ـ الأعرج ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «خيرُ يومٍ طلعتْ فيه الشّمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أُهْبِط، وفيه تِيْبَ عليه، وفيه مات، وفيه تقومُ السَّاعةُ...»[2].

* وروى أيضاً الإمام أحمد بن حنبل ـ بسنده عن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ

---

(١) انظر تفسير الطّبري (١/ ٢٤٤ و ٢٤٥). وانظر التَّفاسير التالية: تفسير القرطبيّ (١/ ٣٢٤) وتفسير الماورديّ (١/ ٩٧) وتفسير الفخر الرازيّ (٣/ ١٩) وتفسير ابن كثير (١/ ٧١) والدّر المنثور للسيوطي (١/ ١٤٥) ومختصر تفسير ابن كثير (١/ ٥٥ و ٥٦) وفتح القدير (١/ ٧٢). وانظر كذلك المصادر التالية: الزّهد للإمام أحمد (ص ٦٢) ومختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣١٤ و ٣١٥) وكذلك (٤/ ٢٢٤) والبداية والنّهاية (١/ ٨١) وغيرها كثير من المصادر المتعددة...

(٢) انظر عون المعبود (٣/ ٣١٧) حديث رقم (١٠٣٣)، وانظر الكامل لابن الأثير (١/ ٣٥).

قال: «خيرُ يومٍ طلعتْ فيه الشّمس يوم الجمعة، فيه خُلِقَ آدم وفيه أُدْخِلَ الجنَّة، وفيه أُخرجَ منها، وفيه تقوم السَّاعةُ»[1].

* وصدر الأَمْرُ الإلهيُّ بالهبوطِ من الجنَّة...

﴿قَالَ اهْبِطُوا[2] بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝٢٤ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

* هَبَطوا منها جميعاً... هَبَطوا إلى هذه الأرضِ التي هذه نعيشُ عليها الآن... هَبَطَ آدمُ وحوّاء وإبليسُ...

ولكنْ أينَ كانوا؟.

وأينَ هيَ الجنَّة؟.

وكيفَ هبطوا؟!.

* هذا منَ الغيبِ الذي ليس عندنا منْ عِلْم عنه إلاّ ما أخبرنا منْ عنده

---

(١) المُسند (٢/ ٥٤٠) والحديث رواه مسلم (٣/ ٦) والنّسائي (٣/ ٨٩ و٩٠) والتّرمذيّ انظر تحفة الأحوذيّ (٢/ ٦١٣) حديث رقم (٤٨٦) والحاكم (٢/ ٥٤٤) وصححه...

قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ في تعليقه على هذا الحديث:

الظّاهرُ أنَّ هذه القضايا المعدودة، ليستْ لذكر فضيلته؛ لأنَّ إخراج آدم وقيام السَّاعة لا يُعدُّ فضيلة، وإنّما هو بيان لما وقع فيه منَ الأُمورِ العظام، وما سيقعُ، ليتأهب العبد فيه بالأعمال الصَّالحة لنيل رحمة الله ودفع نقمته.

وقال أبو بكر بنُ العربي ـ رحمه الله ـ في عارضة الأحوذيّ معلِّقاً على هذا الحديث بقوله: الجميعُ منَ الفضائل، وخروج آدمَ منَ الجنَّةِ هو سببُ وجود الذّريّة وهذا النّسل العظيم، ووجود الرّسُل والأنبياء والصَّالحين والأولياء، ولم يخرج منها طرداً، كما كان خروج إبليس، وإنَّما كان خروجه مسافراً لقضاء أوطار ثم يعود إليها، وأما قيام السَّاعة فسبب لتعجيل جزاء الأنبياء والصّدّيقين والأولياء وغيرهم وإظهار كرامتهم وشرفهم...

(٢) «اهبطوا»: هبط يَهْبِطُ ويَهْبُطُ هبوطاً: نزل من علو إلى سُفْل وانحدر، ويقال: هبط البلد والوادي: نزل به وانتقل إليه.

مفاتح الغيب وحده ولا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البرّ والبَحْرِ. . .

* لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض. . . آدمُ وزوجُه. . . وإبليسُ وقبيلُه. . . هبطوا ليصارعَ بعضُهم بعضاً. . . وليعادي بعضهم بعضاً. . . وكُتِبَ على آدم وذريته أنْ يستقروا في الأرض ، ويمكنوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين. . .

* كَتَبَ عليهم ربهم أنْ يحيَوْا فيها ويموتوا. . . ثم يخرجوا منها فيبعثوا، ليعودوا إلى ربِّهم فيدخلهم جنته أو ناره، في نهاية الرّحلة الكبرى، رحلة الحياة الدُّنيا.

* وفي هبوطِ آدمَ وحوّاءَ إلى الأرض تعدَّدت الرِّواياتُ والأَقْوال في تحديد المكان الذي هبطا فيه من الجنَّةِ، فقد ذكرتْ بعضُ المصادر[1] أنَّ آدمَ أُهبط بالهند، وحوّاء بِجُدَّة، وازدلفا بالمزدلفة، وتعارفا بعرفات.

بينما ذكر ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أُهبط آدم بالصَّفا، وحواء بالمروة[2]. وذكر آخرون أقوالاً كثيرة تكفل أبو جعفر الطّبريّ بإيرادها في تاريخه[3].

* ولعلَّ الطَّبريَّ[4] ـ رحمه الله ـ كان من أكثر الذين سلكوا جادّة الصَّواب

---

(١) انظر مثلاً: المعارف (ص ١٥) والكامل (١/ ٣٦) وشفاء الغرام(١/ ١٤١) ووفيات الأعيان (٣/ ٣٨٩) وتاريخ الطّبريّ (١/ ٧٩) وتفسير الصّاوي على الجلالين (١/ ٢٣).

(٢) البدايةُ والنّهايةُ لابن كثير (١/ ٨٠).

(٣) انظر في هذا تاريخ العلاّمة ابن جرير الطّبريّ (١/ ٧٩ و٨٠).

(٤) الطَّبَريُّ: محمّدُ بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطّبريّ. . . الإمامُ المحدِّث، والفقيهُ البارعُ في أنواعِ العلوم، وأحدُ أئمة العُلماء، يُحكَمُ بقوله، ويُرجَع إلى رأيِهِ لمعرفتِهِ وفضله وتقواه وورعه، جَمَعَ من العلوم ما لم يشاركه فيه أَحَدٌ من أهل عصره.
كانَ حافظاً لكتاب الله تعالى، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّننِ وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، =

في هذا الموضوع، فلم يحدّدْ، أوْ يقطعْ برأيه، نزولَ آدم وحوّاء في مكان معين، وإنّما قال: وهذا مما لا يُوصل إلى عِلْمِ صحتهِ إلا بخبرٍ يجيءُ مجيءَ الحجَّةِ، ولا يُعلم خبرٌ في ذلك وَرَدَ كذلك غير ما ورد من خبر هبوط آدم بأرض الهندِ، فإنَّ ذلك مما لايدفعُ صحته علماء الإسلام[1].

* وهذا القول يقطع الانسياق وراء أشياء لا ينفعُ علمها ولا يضرّ، ومع ذلك يبقى المجال في هذا الباب مفتوحاً لدراسة الباحثين إلى ما شاء الله...

حَـوّاءَ زَوْجُ آدَمَ النَّـبيّ:

* إنَّ أوَّلَ نبيٍّ أرسله الله تعالى مُؤَيَّداً بالوحي والأحكامِ هو آدم ـ عليه السَّلام ـ أبو البشر...

* ومنَ المقطوعِ بِه أنَّ آدمَ ـ عليه السَّلام ـ منَ الأنبياء، بل أوّل الأنبياء[2]،

= عارفاً بأقوال الصَّحابة والتَّابعين، فَمَنْ بعدهم في الأحكام، عارفاً بأيام النَّاس وأخبارهم.
كان الطَّبريُّ كما وصفه عبد العزيز الطّبريّ فقال: كان القارىء الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدّث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقْه، وكالنحويّ الذي لا يعرف إلا النّحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب.
وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا جَمَعْتَ بين كتبه وكتب غيره، وجدتَ لكتبه فضلاً على غيرها. قال النّوويّ: هو في طَبَقةِ التّرمذيّ والنّسائيّ.
أشهر كتبه: تاريخه وتفسيره، ويمتاز تفسيره بأنّه أمّ التفاسير كلّه.
وُلد الطبريّ في «آمُل» بطبرستان سنة (٢٢٤هـ) وتوفي في بغداد سنة (٣١٠هـ) وعمره (٧٦سنة). ـ رحمه الله تعالى ـ،ورثاه خلق منهم ابن دريد وغيره، ومن أجمل ما قيل في رثائه ما صاغه أبو سعيد الأعرابي إذ قال:

حَـدَثٌ مفظـع وخطـبٌ جليـلُ ... دقَّ عـن مثلـه اصطبـار الصَّبـورِ
قـام نـاعـي العلـوم أجمـعَ لمـا ... قـام نـاعـي محمّـد بـن جـريـر

(تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٧٨ و٧٩) و(رجال من الإسلام ٢/ ٤٢ ـ ٥٠).

(١) تاريخ الطّبريّ (١٨٠/).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٩٥).

وقد وَرَدَ في الذِّكْرِ الحكيم ما يدلُّ على ذلك، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

* وفي الآية الكريمةِ السَّابقة بيانٌ لمنِ اصطفاهمُ اللهُ سبحانه مِنْ عباده، واختارهم لحَمْلِ الرِّسالة الواحدة بالدِّينِ الواحد، منذ بَدْءِ الخليقَةِ، ليكونوا طلائع الموكب الإيماني، وليكونوا أنبياء الله الذين اصطفاهم لهدايةِ خَلْقِهِ؛ وظاهر من الآية الكريمة أنَّ المراد بالاصطفاء هو: الاصطفاءُ بالنّبوّةِ والرِّسالةِ.

* ومما يفيدنا في هذا المقام أنَّ اللهَ سبحانه ذَكَرَ في كتابه العزيز أسماء خمسة وعشرين نبيّاً مرسلاً[1]، وهؤلاء الأنبياء يَجبُ الاعتقادُ بنبوّتهم تفصيلاً، ومعنى ذلك أنّه لا يجوزُ للإنسانِ المسلم ـ إذا سُئِلَ عن أَحَدِ الأنبياء الذين نَصَّ القرآن الكريم على نبوتهم ـ أنْ يجهله أو يجهل كونه نبيّاً.

* وأمَّا الأنبياء في القرآن الكريم فهم: آدمُ، إدريسُ، نوحٌ، هودٌ، صَالحُ، إبراهيمُ، لُوطٌ، إسماعيلُ، إسحاق، يَعْقُوبُ، يُوسفُ، شُعَيبُ، أيّوبُ، ذو الكِفْلِ، مُوسى، هَارُونُ، دَاودُ، سُلَيمانُ، إلياسُ، اليَسعُ، يُونُسُ، زكريا، يَحيى، عيسى، ومحمّدٌ عليه وعليهم الصّلاة والسَّلام.

* ونَظَمَهم أَحَدُ الفُضَلاء بقوله:

أَسْمـــاءُ رســـلِ الله فـــي القُـــرآنِ
خَمْـــسٌ وعشـــرون فخـــذْ بيـــان
هـــم آدَم إدريـــسُ نـــوحٌ هـــودُ
يـــونُـــس إليـــاسُ اليســـع داودُ
إسحـــاقُ إبـــراهيـــمُ لـــوطٌ مـــوســـى
ذو الكفـــلِ يحيـــى زكـــريـــا عيســـى

---

(١) منَ الموافقات اللطيفة أنَّ اسم آدم ـ عليه السَّلام ـ وَرَدَ في القرآنِ الكريم خمساً وعشرين مرة في خمس وعشرين آية في تسع سور وهي: البقرة، آل عمران، المائدة، الأعراف، الإسراء، الكهف، مريم، طه، يس.

شُعيـــبُ ثـــمَّ صـــالـــحٌ أيـــوبُ
هـــارون ثـــم يـــوســـفُ يعقـــوبُ
ثـــمّ سُليمـــانُ وإسمـــاعيـــلُ
محمّـــدٌ خَتْمُهـــم الجليـــلُ

* إذن، فسيّدنا آدم ـ عليه السَّلام ـ أوّل الأنبياء بنصِّ القرآن الكريم؛ وأمّا في السُّنَّةِ المطهّرة فقد وَرَدَ ما يشيرُ إلى نبوّة آدم ـ عليه السَّلام ـ.

فعن أبي ذرٍ الغفَاريّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قلتُ: يارسول الله، أيّ الأنبياء كان أوّل؟.

قالَ: «آدم».

قلتُ: يارسول الله، ونبيّ كان؟!.

قالَ: «نعم نبيٌّ مُكَلم[1]».

قلتُ: يا رسول الله، كمِ المرسلونَ؟.

قالَ: «ثلاثمئة وبضعة عشر جَمّاً غفيراً».

* وروى ابنُ حبَّان ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ قال:

قلتُ: يا رسول الله، كم الأنبياء؟.

قالَ: «مئة ألف وعشرون ألفاً».

قلتُ: يا رسول الله، كم الرّسل من ذلك؟

قالَ: «ثلاثمئة وثلاثة عشر جَمّاً غفيراً».

---

(١) قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسيره: المُكلّم موسى ـ عليه السَّلام ـ وقد سُئل رسول الله ﷺ عن آدم أنبي مرسل هو؟ فقال: «نعم نبي مكلّم».
قال ابنُ عطية: وقد تأول بعض النّاس أنّ تكليم آدم كان في الجنّة، فعلى هذا تبقى خاصية موسى. (تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٤)، وانظر في هذا (فتح القدير ١/ ٦٩) و(الطبقات لابن سعد ١/ ٣٤).

قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟

قال: «آدم عليه السلام».

قلتُ: يا رسول الله، أنبيّ مُرسَل؟!.

قالَ: «نعم، خلقَه الله بيده، ثم نفخَ فيه من روحه، وكلَّمه قبلاً»[1].

* إذن فحوّاء هي زوجُ أوّل نبيٍّ ذكَره الله عزَّ وجلَّ في كتابه، وذكره المصطفى ﷺ في الحديثِ الشّريفِ... وحوّاء أول امرأة تعيشُ على هذه الأرض مِنْ عَالَم النِّسَاءِ... فكيف كانت حياة حوّاء؟!.

* لا نستطيع رسْمَ الصّورة الحقيقية لحياة أمِّ البشريّة في بداية وجودها على الكرةِ الأرضيّةِ، ولكنّنا نستطيعُ أنْ نعيشَ في ظِلالِ الآثار التي وصلتنا عن حواء، ونرسم من خلال ذلك صورة قريبة من الواقع الذي عاشته بعد هبوطها من الجنَّة، تحلم بالنّعيمِ المفقودِ ـ حيناً مِنَ الدَّهْرِ ـ إلى أَنْ شغلتها متاعبُ الحياةِ عن فِردَوسها المفقود، ليتمَّ عمران الأرض ـ كما شاء الله ـ وكيما تتألق الحياة بالبشرية التي جعلها الله عزَّ وجلَّ من الأبوين الكريمين: آدم وَحَوّاء...

حَـوَّاءُ فـي الأَرْضِ:

* حين خرجت حوّاء منَ الجنَّةِ عرفتَ أنَّها ودّعتِ السَّلام، وفي الأرض كانت مع زوجها آدم ـ عليه السَّلام ـ يواجهان الشَّقاء...

يواجهان الصِّراع مع الحياة... فقد كان عليهما أنْ يشقيا ليأكلا...

كانا يأكلان في الجنَّة رغداً، فأهبطا إلى غير رَغَدٍ منْ طَعامٍ وشراب...

* وفي الأرض عُلِّمَ آدم صنعة الحديد، وأُمِرَ بالحرث، فحرثَ الأرض، وزرع، ثم سقى، حتى إذا آنَ حَصَاده حصده، ثم داسه، ثم ذرّاه، ثم

---

(١) مواردُ الظّمآن (٩٤).

طحنه... وبعد ذلك جاءت مهمّة حواء... عَجَنَتْ، ثم خبزتْ حتى أكلا[1].

* تابع آدم وحواء رحلة المشقَّةِ، فغزلت حواء الصُّوف، ونسج آدم لنفسه جُبّةً، ولحواء درعاً وخماراً فلبِسَا ذلك[2].

* ولعلَّ آدم وحوّاء فهما ـ من مشقّةِ الوصول إلى الغذاء من حراثة وبذر وعلاج وسقي وإزالة العريِّ وغير ذلك من الأسباب الشَّاقة المؤلمة ـ أنَّهما قد جاءا إلى الأرض ليصلحاها، ويزرعاها، ويبنياها، ثم ينجبا نَسْلاً يستعمرون الأرض، ويعمرونها أكثر مما عمراها...

حَـوّاءُ وَرِحْـلَةُ العِبَـادَةِ:

* في رحلةِ العبادةِ، قامتْ حوّاء تساعد آدمَ في بناء الكعبة[3] بإشارة إلهيّةٍ علْويّةٍ... قامت تساعده في بناء أوّل بيتٍ وُضعَ في الأرض للعبادة وخُصصَ لها، وجعله مباركاً، وجعله هدىً للعالمين، ومَنْ دخله كان آمناً، فهو مثابةُ الأمنِ لكلِّ خائف، وليس هذا لمكان آخر في الأرض، وصدق الله إذ يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ..﴾ [العنكبوت: ٦٧].

* فهذا البيتُ المباركُ الذي اختاره الله للمسلمين قبلةً، هو بيتُ اللهِ

---

(١) عن تاريخ الطبري (١/ ٨٣) بشيء من التصرف.

(٢) الكامل (١/ ٣٨) قال أبو جعفر الطّبري: أرسل الله لآدم وحواء ملكاً يعلمهما ما يلبسانه ويستتران به.

(٣) قال الإمامُ الفاسيُّ ـ رحمه الله ـ: لا شكَّ أنَّ الكعبة المعظمةَ بُنيت مراتٍ، وقد اختُلِفَ في عدد بنائها، ويتحصّل من مجموع ما قيل في ذلك أنها بنيت عشر مرات. منها: بناء الملائكة عليهم السَّلام، ومنها بناء آدم عليه السَّلام، ومنها بناء أولاده، ومنها بناء الخليل إبراهيم عليه السَّلام، ومنها بناء العمالقة، ومنها بناء جرهم، ومنها بناء قصي بن كلاب، ومنها بناء قريش، ومنها بناء عبد الله ابن الزبير بن العوام الأسديّ رضي الله عنه، ومنها بناء الحجّاج بن يوسف الثَّقفيّ.. وإطلاق العبارة بأنَّه بنى الكعبة تجوُّز لأنَّه لم يَبْنِ إلا بعضها (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي ١/ ١٤٨).

سبحانه الذي جعل له هذه الكرامة، كانت حوّاء تنقل التُّرابَ، وتبني مع آدم فيه، وتقوم بمساعدتِه في أمور إشادته. . .

* وفي بناءِ حواء وآدم للكعبة دليلٌ من «دلائل النّبوة» للبيهقي ـ رحمه الله ـ إذ أخرجَ بسنده عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو بن العاصِ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النّبيُّ ﷺ:

«بعثَ اللهُ جبريلَ ـ عليه السَّلام ـ إلى آدمَ وحوَّاء، فقال لهما: ابنيا لي بناء. فخطَّ لهما جبريلُ ـ عليه السَّلام ـ فجعل آدم يحفرُ وحوّاءُ تنقل حتى أجابه الماءُ، نُوديَ من تحته: حسبك يا آدم.

فلما بنياه أوحى الله تعالى إليه: أن يطوف به، وقيل له أنتَ أول النَّاس، وهذا أولُ بيت. ثمّ تناسختِ القرونُ حتى حجَّة نوح، ثم تناسختِ القرونُ حتى رَفَعَ إبراهيم القواعد منه»[1].

* وللإمام الرَّازي ـ رحمه الله ـ كلامٌ لطيفٌ يشيرُ إلى بناءِ الكعبةِ في عهدِ آدمَ ـ عليه السَّلام ـ يقول:

واعلمْ أنَّ الكعبةَ موجودة في زمان آدم ـ عليه السَّلام ـ ويدلُّ على ذلك وجوه:

الأول: أنَّ تكليف الصَّلاة كان لازماً في دِين جميع الأنبياء عليهم السَّلام.

الثاني: أنَّ الله تعالى سمّى مكةَ أمّ القرى، وظاهر هذا يقتضي أنّها كانت سابقة على سائِر البقاع في الفضل والشَّرف منذ كانت موجودة.

أُمُّ البَشَـريَّـةِ:

حوّاء هي أمُّ النِّسَاء وأمّ الرِّجال على ظهر الأرضِ. . . وحواءُ أمّ كالأمهاتِ الأخريات، تحملُ وتضعُ حَمْلَها. . . وهي أوّل زوجة في تاريخ البشريّة، وأول امرأة تَلِدُ على ظهر الأرض.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٥).

* ذكر الحافظ أبو القاسم بن عَسَاكر ـ رحمه الله ـ أنَّ حواءَ كانت تسكنُ «بيت لِهْيَا»[1] بغوطةِ دمشقَ[2].

* كانت حوّاء ـ فيما يذكرون ـ لا تحملُ إلا توءماً، أنثى وذكراً، فولدت لآدمَ أربعينَ ولداً لصلْبِهِ من ذكرٍ وأنثى في عشرين بطناً.

* كانت حواء تَلِدُ في البطنِ الواحد ابناً وبنتاً... وفي البطن الثاني ابناً وبنتاً، وكان يحلُّ زواج ابن البطن الأول من بنت البطن الثاني.

* ووضعتْ حوّاء توءمين: قابيل ـ وقيل: قابين ـ وأخته لوذا، وولدت هابيل وأخته إقليميا[3]...

* كبر الأبناء، وشبَّ الإخوةُ في رعاية أمّهم حواء وأبيهم آدم، وبلغَ الأبناء مبلغ الشَّباب، وأخذ قابيل وهابيل يضربان في الأرض طلباً للرّزقِ، وسَعْياً وراءَ متطلبات الحياة.

* كان قابيلُ ـ وهو أكبر ولد آدم[4] ـ صاحب زرع وحرث... وقيل: إنَّه كان يَسْكنُ «قينية»[5] في دمشقَ.

---

(١) قالَ ياقوتُ الحمويُّ ـ رحمه الله ـ بيت لْهَيا: لِهْيا: بكسر اللام، وسكون الهاء، والصَّحيح (بيت الإلاهة) وهي قرية مشهورة بغوطة دمشق. والنّسبة إليها بَتَلْهِيّ.
وللشّعراء في بيت لهيا أشعار كثيرة منها قول أحمد بن منير الأطرابلسي:

سَقـاهـا وروّى مـن النّيـربيـن ... إلـى الغَيْضَتَيْـنِ وحمـوريـة
إلـى بيـتِ لهيّـا إلـى بَـرْزَة ... دلاح مكفكفـة الأوعيـة

(عن معجم البلدان١/ ٥٢٢) بتصرف.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣١١) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ٣٤٠) وحدائق الإنعام لابن عبد الرزاق، تحقيق: يوسف علي بديوي (ص ٩١) وآثار البلاد للقزوينيّ (ص ١٨٩) وغيرها من المصادر المتنوعة.
ويبدو أن قرية بيت لهيا كانت مكان منطقة القصّاع اليوم في دمشقَ ـ والله أعلم ـ.

(٣) انظر غرر التّبيان (ص ٢٤٥) والإتقان (٢/ ١٠٩٣) والطّبقات الكبرى (١/ ٣٦).

(٤) حياة الحيوان للدّميري (٢/ ١٠٧).

(٥) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ٧) وآثار البلاد (ص ١٨٩).
قال ياقوت الحمويُّ ـ رحمه الله ـ قَيْنِية: بالفتح ثم سكون وكسر النون وياء خفيفة؛ =

* وكان هابيلُ صاحب ماشيةٍ وغنم وقيل: كان يسكن «سَطْرا»[1] وبعد مضي فترة منَ الزَّمنِ، أحبَّ كلٌّ من قابيلَ وهابيلَ أنْ تكونَ له زوجة ليسكنَ إليها، وأفضيا بذلك إلى والديهما...

ويبدو أنَّ الأبوين فرحا بهذا، وأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى آدمَ أنْ يزوّجَ قابيلَ من توءمةِ هابيل، ويزوِّج هابيل من توءمة قابيل...

* عن سعيد بن المسيّب ـ رحمه الله ـ قال: إنَّ اللهَ أَمَرَ آدمَ أنْ يفرقَ في النّكاح من كلِّ بطن هذا لتلك، وتلك لهذا...

= قرية كانت مقابل الباب الصّغير من مدينة دَمشق صارت الآن بساتين (معجم البلدان ٤/ ٤٢٥).

أقول: ومكانها الآن بجانب باب السّريجة بدمشق.

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٦/ ٤٠٥) وآثار البلاد (ص ١٨٩). قال ياقوت الحموي ـ رحمه الله ـ.

سَطْرا: من قرى دمشق، قال ابن منير الطرابلسي يذكر منتزهات الغوطة:

فالقصرُ فالمرجُ فالميدانُ فالشّرفُ الـ أعلى فَسَطْرا فَجَرمانا فقُلْبين

وقال عرقلة الدمشقيّ واسمه حسان بن نمير:

سقى الله منْ سطرا ومَقْرا منازلاً بها للندامة نضرةٌ وسرورُ

(معجم البلدان ٣/ ٢٢٠).

أقول: كانت سطرا شمالي دمشق، قرب بيت لهيا، ومكانها الآن منتصف شارع بغداد تقريباً.

والذي يبدو أنَّ (سطرا) كانت من أجملِ منتزهات دمشق في الماضي، وكذلك منطقة اسمها (مقرى) وقد هام بها الشّعراء على اختلاف الأعوام والقرون، وحنوا إليها حنو الحبيب إلى حبيبه، وحنو المرضعات على الفطيم، ويبدو ـ والله أعلم ـ أنّ سطرا كانت أرضها مفروشة بأنواع الأشجار المثمرة.

وفي سطرا ومقرى يقول عبد الرحمن ابن خطيب داريا، وقد أحسن التورية:

خليلي إنْ وافيتما الشَّام بكرةً

وعانيتما الشّقرا والفوطة الخضرا

قفا واقرأا عني كتاباً كتبته

بدمعي لكم (مقرى) ولا تنسيا (سطرا)

* امتثل آدمُ أَمْرَ ربِّه، وأفضى لقابيلَ وهابيلَ بما أمره الله تعالى، إلا أنَّ قابيلَ رفضَ ما قاله آدم، ولم يَرْضَ بهذا الزَّواج؛ لأنه اعتبر أنَّ توءمةَ هابيل أقلّ جمالاً من توءمته، وحَسَدَ أخاه هابيل على الزَّواج من شقيقته (لوذا) ولم يرضَ بالقسمة، وجَمَحَ عن طاعةِ والده، ولَعِبَتْ به نوازعُ الشَّرِّ والفَسَاد، ولعب به الحسَدُ ذاتَ اليمين وذات الشّمال، بينما ظلَّ هابيل يحتفظُ بالهدوء والسَّكينة والوقارِ، وامتثل ما أَمَرهُ به والده آدم.

قِصَّـةُ القُـرْبَـانِ:

يبدو أنَّ آدم وحوّاء قد لاحظا ما انطوتْ عليه نفسُ كلّ واحدٍ من الولدين، ولكنْ لم يخطرْ ببالِ حوّاء أنَّ ابنها قابيلَ قد بَيَّتَ الغَدْرَ لأخيهِ، أمَّا آدم ـ عليه السَّلام ـ فقد أحبَّ أنْ يقترحَ حلاًّ يُرضي قابيلَ وهابيلَ معاً.

دعاهما أبوهما آدم، وأمرهما أنْ يقدِّما قرباناً إلى الله سبحانه، فمن تُقبِّل قربانه كان أحقّ بما أراد...

* والآن دعونا نستمع إلى قصّة القربان...

* عن ابنِ عباس، وكعب، وعبد الله بن سلام، قالوا:

ولدت حواء مع قابيل جاريةً يقال لها «لوذا» أجمل بنات آدم، وولدت مع هابيل جارية يقال لها «إقليما». فخطبا إلى أبيهما، فقال: أنكحك يا هابيل لوذا، وقال لقابيل: زوّجتك إقليميا.

فقال قابيل: ما أرضى بهذا، أختي أجمل.

فقال آدم: إنَّ الله أمرني أنْ أفرِّقَ بينكما في النِّكاح، فإنْ كنتَ لا ترضى، فقرّبا قُرباناً، فقربانكما سيقضي بينكما.

قال: وكيف يقضي بيننا؟!.

قال آدم: مَنْ يُقْبَلُ قربانه فهي له.

* وكان قربانهما أن يتقرَّبا بقربانٍ، ثم يلقيانه على وَجْهِ الأرض، حتى تأتي نارٌ فتأكله، أو يبليه الدَّهْرُ....

* كان هابيلُ يتقرّبُ إلى الله عزَّ وجلَّ بخيار ما عنده من الغنم والنَّعم والمال، وأمَّا قابيلُ فكان يتقرّب بِشَرِّ مَالِهِ ونفاية الحنطة، فجاءتْ نارٌ من السَّماء، فكانت تأكل قربان هابيل، ولا تقرب قربان قابيل، فغاظه ذلك، وحسد[1] أخاه هابيل حَسَداً أعمى، وانبعثتْ شروره إذْ بقيَ قربانه على حاله، وعندئذ قال لأخيهِ هابيل: قُبِلَ قربانك، ولم يُتقبَّل قرباني، لأقتلنّكَ أو تعتزل أختي وتدعها.

قال هابيلُ: لا أفعل... ولا أخالف أَمْر والدي.

فقال قابيلُ مهدّداً ومتوعداً هابيل: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧].

فأجابه هابيل إجابة الواثقِ المطمئن: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

* لاحِظْ كيفَ ينقلُ لَنَا القرآن الكريم كلمات الأخوين، فالأوّل يكشف كلامه عن طبيعةِ الجريمةِ وبواعثها في نفسيته التي غلّفها الحسدُ؛ والثَّاني يكشفُ كلامه عن طبيعة الصِّدْق في قلبه الموصول باللهِ على أساس صحيح...

---

(١) قال بعضهم: الحَسَدُ أوَّلُ ذنب عُصِيَ الله به في السَّماء ـ يعني: حَسَد إبليس آدم ـ وأول ذنب عُصي الله في الأرض ـ يعني حسد ابن آدم أخاه حتى قتله ـ.

قال أبو زيد الأعرابي في هذا المعنى:

لا تقبلُ الرّشدَ ولا ترعوي ... ثاني رأسٍ كابنِ عوّاء
حسدتني حين أفدت الغنى ... ما كنتَ إلّا كابنِ حوّاء
عادى أخاه محرماً مسلماً ... بطعنة في الصُّلب نجلاء

وقال آخر:

إنْ تحسدوني فإنّي لا ألومكمُ ... قَبْلي منَ النَّاس أهل الفضل قد حُسِدوا

وقال ابن حنبل:

ألا قلْ لَمنْ بات لي حاسداً ... أتدري على مَنْ أسأتْ الأدب
أسأتَ على الله في فضله ... كأنَّكَ لم ترضَ لي ما وهب
فكان جزاؤك أنْ خصّني ... وسدَّ عليكَ طريقَ الطَّلب

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ :

* انطلقَ قابيلُ وهابيلُ فجاءا إلى أبيهما، فأخبراه خَبَرَ القربانِ، فقال لهما: إنَّ اللهَ قد فَصَلَ بينكما، وقد زوجتُكما على ما أمرني به الله. . .

* سكتَ قابيلُ على مَضَض، ثم قال: لا أمشي في الأرضِ وتقول إخوتي: إن هابيل: خير منك. وأرادَ قَتْلَ أخاه هابيل.

فقال هابيل: اتقِ اللهَ يا أخي لا تقتلني. . . فأبى إلا قَتْلَه.

ثم يمضي هابيل المؤمنُ التقيُّ الوديعُ المسالم يكسر من حدةِ الشَّرِّ الهائجِ المتوهج في نَفْسِ أخيه قابيل الشّرير، وقال في هدوء: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٨].

* ثم يُضيفُ هابيل إلى أخيه منذراً ومحذراً، كما ذكر الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٩٢].

* وبذلك صوّر له هابيل إشفاقه هو من جريمة القتل، ليَثْنيه عمّا تراوده به نفسه، وليخجله من هذا الذي تحدّثُه به ذاته تجاه أخ مسالم وديع تقي. . .

* وانتهى الحوارُ بين الأخوين على هذه الصّورة. . . وانصرف كلُّ واحد منهما إلى غايته. . .

* ولكنَّ قابيلَ ـ بعد هذا كلّه ـ بعد التّذكير والعِظة والمسالمة والتّحذير، بعد هذا كلّه اندفعتِ النفسُ الشّريرة، فوقعتِ الجريمةُ، وطوّعتْ له نفسه كلَّ عقبة وكلَّ مانع، طوّعتْ له نفسه القَتْل. . . وقَتْل مَنْ؟ قَتْل أخيه: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

* نَعَمْ أصبحَ منَ الخاسرين. . .

خَسِرَ نفسه فأوردها موارد الهلاك والبوار. . . وخسرَ أخاه، وفَقَدَ بذلك النَّاصر والرَّفيق.

وخَسِرَ أباه وأمّه، إذ استنزل بذلك غضبَ الله عليه بسبب غضبهما.

وخَسِرَ دنياه فما تهنأُ للقاتلِ حياةٌ...

وخَسِرَ آخرته فباءَ بإثمهِ الأول، وإثمه الأخير...

* لم يكن هابيل ـ كما وَرَدَ في الأخبار ـ ضعيفاً، بل كان رجلاً زَادَهُ اللهُ بسطةً في العَقْلِ والجسم، وذكر ابنُ جرير ـ رحمه الله ـ في تفسيره عن عبد اللهِ بن عمر قال: وايمُ الله إنْ كان المقتول لأشدّ الرّجلين، ولكنْ منعه التّحرج أنْ يبسطَ إلى أخيه[1] ـ يده ـ.

أمُّ القَـاتِلِ والمقْـتُولِ:

* سقط في أيدي قابيل، وجلسَ أمام أخيه القتيل ساكتاً ساكناً، مصفرّ الوجهِ، ومُثِّلَتْ له سوأة الجريمة في صورتها الحسيّة، صورة الجثّة التي فارقتها الحياة فلا حَرَاكَ بها، إنّها السّوأة التي لا تطيقها النّفوس... ولهذا شدَّد رسولنا الكريم على وزْرِ هذه الفعله النّكراء...

* ففي المسند، أخرج الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

«لاتُقتل نَفْسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنّه كان أول مَنْ سَنَّ القتل»[2].

* شاءت حكمةُ الله عزَّ وجلَّ أَنْ يقفَ قابيل القاتل عاجزاً أمامَ أخيهِ

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٩١)، وانظر الطبقات (١/ ٣٧).

(٢) رواه الإمامُ أحمد (١/ ٣٨٣ و٤٣٠ و٤٣٣) وأخرجه البخاريّ أيضاً في ثلاثة مواضع؛ في كتاب الأنبياء والدّيات والاعتصام، انظر: فتح الباري (٦/ ٤١٩) حديث رقم (٣٣٣٥) ومسلم (٥/ ١٠٧) في القسامة، باب: بيان إثم من سنَّ القتل؛ والترمذي برقم (٢٦٧٥).

«الكفل»: معناه الحظ أو النصيب.

وقوله: «لأنه سن القتل»: أي: جعله سيرة للناس فهو متبوع في هذا الفعل، وللمتبوع نصيب من فعل تابعه، وإن لم يقصد الفاعل إتباعه في الفعل... =

المضرّج في دَمِهِ، وقبل قليل ـ كان الباطش الفاتك القاتل المتوعد ـ وتساءل: ماذا سيقول لأبويه آدم وحواء؟!.

* نظر قابيل ثانية إلى جثّةِ أخيه المقتول أين يذهب بها؟ بل أين يخفيها؟ لقد كان أخوه أوّلَ إنسانٍ يموت على وجه الأرض من أبناء آدم، والظّاهر أنّه لم يكن دفن الموتى شيئاً قد عُرف بعد.

* قال الشّوكاني[1] ـ رحمه الله ـ: لم يَدْرِ كيف يواريه لكونه أوّل ميتٍ مات من بني آدم...

* ووقف قابيلُ لا يدري ماذا يفعل، وبينما هو في حيرته وسكونه إذ مزّق الهواء صوتُ غراب، ووقف بالقرب منه، تُرى ماذا فعل هذا الغراب؟!.

* تقول بعض الرّوايات المنثورة في كُتُبِ التّفسيرِ والتاريخ والحديث:

إنّ الغراب قَتَلَ غراباً آخر، أو وَجَدَ جثّة غرابٍ، أو جاء ومعه جثّة غراب، فجعل يحفرُ في الأرض، ثم واراه وأهال عليه التُّراب...

* تصاغر قابيلُ في نفسه، واكتشفَ فجأةً إخفاقه وضعفه وعجزه مِن أَنْ

---

(١) الشّوكاني: محمّد بن علي بن محمد الشّوكاني اليمني أبو عبد الله. أحد الفقهاء الأصوليين، كان من كبار علماء اليمن، وهو محدّث مفسّر... له أكثر من مئة كتاب: «نيل الأوطار» و«البدر الطالع» و«الفوائد المجموعة» و«إرشاد الفحول» و«السيل الجرار» و«فتح القدير» وهو تفسير في خمسة مجلدات، تقوم دار ابن كثير بإخراجه مُتْقَناً، مُحَقَّقاً، مضبوط الأشعار، مُصَحَّحاً، مُفَهْرَساً.
هذا وقد استفاد الشوكاني من كتب التفسير المتقدمة، وانتقد اقتصار بعضها على الرواية، وبعضها الآخر على الدراية، كما شنَّع على أصحاب الآراء المذمومة؛ وأتباع الأهواء الضّالّة. ولـ «فتح القدير» مميزات أهمها:
١ ـ الشخصية العلمية الفذّة للمؤلف، فقد توافرت للشوكاني أنواع العلوم التي اشترطها العلماء في المفسّر لكتاب الله.
٢ ـ الجمع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير.
٣ ـ حجمه الوسط بين كتب التفسير المطوّلة والمختصرة.
توفي رحمه الله سنة (١٢٥٠هـ).

يكون كهذا الغُراب الضَّعيف في أُمَّةِ الطَّيرِ التي لا تَفْقَهُ؟.

* وقد قصَّ القرآن الكريم تلك الحادثة... قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

* ومن الظَّاهر في هذه الآية الكريمة أنَّ نَدَمَ قابيل لم يكن ندم توبة نصوح ـ وإلا لقبل الله تعالى توبته ـ وإنّما كان النّدم الذي اعتصره من عدم جدوى فَعْلَتِهِ، وما أعقبه ذلك من تعب وشقاء وعناء وقلق[1]...

* وبهذا كسب الشَّيطان واحداً من أبناء آدم في جولتهِ الأولى على ظهر الأرض[2]... وسَرَى خبر الجريمة إلى آدمَ وحوّاءَ...

* ذكر أهلُ الأخبار والتّواريخ والسِّير أنَّ آدم حزنَ على ابنه هابيل حزناً شديداً دام أعواماً كثيرة...

* ويبدو أنَّ حواء كانت أشدّ حُزناً على ولدها، فهي كذلك أمُّ المقتول وأمُّ القاتل معاً...

* روى ابن عساكر ـ رحمه الله ـ في تاريخه أنَّ آدم ـ عليه السَّلام ـ لما مات ابنه قال: يا حوّاء... مات ابنك.

---

(١) أودّ أَنْ إشارةً فيها فائدة ـ إن شاء الله ـ إلى أنَّ السِّياق القرآني لا يحدد زمان ولا مكان ولا أسماء القصة... وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والرّوايات عن قابيل وهابيل ـ كما لاحظنا ـ وإنّهما ابنا آدم في هذه القصة، وورود تفصيلات عن القضية بينهما، والنّزاع على أختين لهما، فإننا نودُّ أن نقولَ: إنَّ الحادث وقع في فترةِ طفولة الإنسان وإنَّه كان أول حادث قتل عدواني متعمد، وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث.

(٢) قال الدّميريُّ ـ رحمه الله ـ في كتابه اللطيف الطّريف «حياة الحيوان»: قابيل أول مَنْ يُساق إلى النَّار من ولد آدم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [فصلت: ٢٩] وهما: قابيل وإبليس.
وقال ابن جماعة ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم «غرر التبيان»: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ [فصلت: ٢٩] هما: إبليس من الجن، وقابيل من الإنس؛ لأنهما سنَّا المعصية.

قالت: وما الموتُ؟!!.

قال: لا يأكل، ولا يشرب، ولايقوم. ولايمشي، ولا يتكلّم أبداً...

فصاحت حوّاء.

فقال آدم: عليك الرّنة وعلى بناتك، وأنا وبني منها براء[1].

* ويبدو أنَّ حزنَ آدم وحواء على ولدهما هابيل دام طويلاً...

ويروي الطّبريُّ ـ رحمه الله ـ في تاريخه أنَّ حواءَ حَمَلتْ بابنها «شَيْثاً» بعد مقتل هابيل بخمس سنين، ومعنى شيث «هبة الله» أي: أنّه خلف من هابيل[2].

* ومضتِ الأيام... وكبر آدم وحواء... وكثر نسلهما في الأرض، فكان آدم ـ عليه السَّلام ـ النَّبيّ الذي يدعو أبناءه وأحفاده إلى الله، ويحدثهم عن عظمة الخالق، وربما حكى لهم عن تغرير إبليس له ولزوجه حوّاء، وحذّرهم منه ومن فتنته.

حَـوّاءُ والرِّحْلَـةُ الأَخِيْـرَةُ:

* في يوم منْ أيّام الجمعة مات آدم[3] ـ عليه السَّلام ـ وحزنت عليه حوّاء حزناً شديداً... وعاشت بعده سنة[4]، ثمَّ ماتتْ ودُفنت مع آدم ـ عليه السَّلام ـ. أمَّا عن مكان وفاة حوّاء... فلا تكاد المصادر تسعفنا بالخبر اليقين، ولكنَّ بعضَ العلماء أشار إلى أنَّ وفاتها كانت في الجزيرة العربية.

* وذكر ابنُ جبير ـ في رحلته ـ أنَّه كان بِجُدَّةَ موضع فيه قبّة مشيّدة عتيقة، يذكر أنّها منزل حوّاء أمّ البشر زوج آدم ـ عليهما السَّلام ـ.

* قال الإمام الفاسيُّ: ولعلَّ هذا الموضع هو الموضع الذي يقال له قبر

---

(١) انظر مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٢٠).
(٢) عن تاريخ الطّبريّ (١/ ٩٦) بتصرف.
(٣) ورد في بعض الآثار أن آدم عاش (١٠٠٠ سنة) ودفن بجبل أبي قبيس بمكة المكرمة.
(٤) انظر: الكامل لابن الأثير (١/ ٥٢).

حواء، وهو مكان مشهور بجدة، أنْ لا مانع مِنْ أَنْ تكون نزلت فيه ودفنت فيه والله أعلم[1].

* وروى الفاكهيُّ بسنده إلى ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ قبر حوّاء بجدَّةَ. وقال ابنُ خلكان ـ رحمه الله ـ: وبجدَّةَ قبر أمّ البشر حواء رضي الله عنها، على ما يُقال، وقبرها هناك ظاهر يُزَار[2].

* تلك هي حوّاء أمّ البَشَر.. وتلك حياتها في الجنَّةِ... ثم تابعت حياتها على الأرض لتكمل ما رسمه القَدَرُ المقدور عليها وعلى آدم ـ عليهما السَّلام ـ.

* وفي الأرض كانت حوَّاء أمّ الأمهات... وقدوتهن في الأمومة وكلّ ما تقوم به النّساء من أعمال... كانت حوّاء قد غزلت، ونسجت، وعجنت، وخبزت، وعملت أعمال النّساء كلّها... ثم علّمت بناتها تلك الأمور لتستمر مسيرة البشرية إلى ما شاء الله، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها...

* رضي الله عن أبينا آدم... ورضي عن أمِّنَا حوّاء... وأسكنهما في جنَّته...

* وقبل أنْ نقولَ وداعاً أمّنا حواء... ما رأيكم أنْ ندعو الله بهذه الكلمات؟... اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إنّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنّك خير الغافرين، وارحمني إنّك خيرُ الرّاحمين، وتُبْ عليَّ إنّك أَنْتَ التواب... وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

(١) شفاء الغرام (١/ ١٤٢).
(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣٨٩).

زوج النبي نوح عليه السلام

* هي مَثَل سوء للنساء العاصيات الكافرات.
* شاركت الملأ المعاند الكافر في مجابهة الحقّ.
* من المستهزئين بدعوة التوحيد، والمؤذين للنبي نوح عليه السلام.
* كان مصيرها أن غرقت مع الكافرين في الطوفان.

يَـارب اغْفِرْ لقَـوْمي:

* لما عُبدتِ الأصنامُ في الأرضِ، وكثُرتِ الآلهةُ بين النَّاس، وشَرعَ البَشَرُ في الضَّلالة العمياء والكفْر والفسادِ، أرسل الله عزَّ وجلَّ رسولَه نوحاً[1] ليهدي النَّاس إلى جادة الصّوابِ، ويجذبهم إلى نور الحقِّ...

* ويبدو أنَّ نبيَّ اللهِ نوحاً قد بُعِثَ في الألف الثَّاني بعد نزول آدمَ إلى الأرض... وكان قد فشتْ في قومِه المعاصي، وجاهروا بالكفر والفسوق والعصيان، وكثرتِ الجبابرةُ، وعتوا عتواً كبيراً، وضلّوا ضلالاً بعيداً...

* لم يلقَ أحدٌ منَ الأنبياء أشدَّ مما لقيَ نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ من قومه، فقد كانوا يدخلون عليه في داره فيخنقونه حتى يُتركَ قعيداً مُجْهداً... وكان يُضرب في المجالس ويُطرد... إلا أنَّ نوحاً كان لا يدع، على ما يُصنع به، أنْ يدعوهم ويقول: يارب اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون... اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون[2]...

* أمّا قومه، فكانت دعوته لاتزيدهم إلا فراراً منه، حتى إنَّه يكلّمُ الرَّجل ويدعوه إلى الله، فيلفُّ رأسه بثوبهِ، ويجعل أصابعه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً مِن كلامه، فذلك قول الله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: ٧]؛ ثم يقومون من المجلس، ويسرعون المشي يقولون: امضوا؛ فإنّه كذابٌ... اتركوه فإنّه مجنونٌ.

* اشتدَّ البلاءُ على سيّدنا نوحٍ ـ عليه السَّلام ـ وصبرَ صَبْراً جميلاً، كان ينتظرُ القَرْنَ بعد القرن، والجيل بعد الجيل، فلا يأتي إلا وهو أخبث مِنَ الأول، وأعتى مِن سابقه، بل أشدّ وأسوأ، وأظلم وأطغى.

---

(١) «نوح»: قيل اسم علم أعجميّ لا اشتقاق له. وقيل: إنَّه مشتقٌّ من النّوح، وهو منصرف على كلِّ حال لأنّه علم أعجمي ثلاثي ساكن الوسط.

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٠١) وانظر الزهد للإمام أحمد (ص ٦٦).

* كان الرَّجلُ منهم يقول: قد كان نوحٌ هذا مع آبائنا، ومع أجدادنا قبل آبائنا، فلم يزلْ هكذا مجنوناً ـ بزعمهم ـ ذكَرَ اللهُ تعالى ذلك فقال: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

* كان الرَّجلُ من قوم نوحٍ إذا دنا أجله وحضرَتْهُ الوفاة، أوصى أولاده وذويه وقال لهم: احذروا هذا المجنون... فإنَّه قد حدثني آبائي أنَّ هلاكَ النَّاس على يدي هذا.

* كانوا كذلك يتوارثون هذه الوصيّة الخاوية بينهم، حتى إنَّ الرَّجلَ منهم يحمل ولده على عاتقه، ثم يقفُ به على نوحٍ فيقول: يا بني، إنْ عشتَ ومتُّ أنا فاحذر هذا الشَّيخ فإنَّه مجنون، ويكون هلاكُ النَّاس على يديهِ.

* وانضمَّ إلى فريقِ المعاندين والمكذبين لنوح امرأتُه، وأخذتْ تسيرُ في ركْبِ الكافرين، وتدلي في دلوهم، وتكيل في ميزانهم.

* ذكر المفسِّرون وأهل الأخبار أنَّ اسمَ امرأة نوحٍ «واعلة»[1]؛ وقيل: والغة.. وكانت كافرة مع الكافرين، توافقهم على كفرهم وعنادهم.

صـورة من عصيانهـا:

* كانت امرأةُ نوحٍ تقولُ للنّاس عن زوجها نوح ـ عليه السَّلام ـ إنَّه مجنونٌ، لا يعقل، يهذي بكلامٍ لا يفهمه أحدٌ... ويتكلَّمُ عن أشياءَ غير ممكنةِ الحدوث وغير متوقّعة، ويزعم أنَّ الأصنامَ لا تضرّ ولا تنفع...

* كان إذا آمَنَ أحدٌ مِنْ قومِ نوحٍ، وانضمّ إلى موكب الإيمان والنُّور، وسار مع ركْبِ المؤمنين، انطلقت امرأة نُوْح وأخبرت به الجبابرة من قومها،

---

(١) تفسير الخازن وبهامشه البغويّ (٧/ ١٢٢) وانظر: تفسير الماورديّ (٤/ ٢٦٨) وتفسير القرطبيّ (١٨/ ٢٠١) والبداية والنّهاية (١/ ١٨١) وغرر التّبيان (ص ٥١٤) ومفحمات الأقران (ص ١٩٩) قال السّيوطي اسمها (والعة) بالعين بدلاً من الغين، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ٢١٥) والإتقان (٢/ ١١٠١) وفتح القدير للشوكانيّ (٢/ ٤٩٨). أقول: إن معرفة اسم امرأة نوح لا ينفع، وجهل اسمها لا يضر كما نقلت المصادر، والله الهادي إلى الصواب.

وأصحاب الشَّرِّ منهم، ليقوموا بتعذيبه وزجْرِه، ثمَّ يفتنونه عن دِيْنه إن استطاعوا. . . أو يقومون بغوايته وإضلاله في سُبُلٍ وطُرقٍ متنوّعة. . .

* كانتِ امرأةُ نوحٍ ترصد جميع حركات زوجها، وكلّ مَنْ يدخل في دِينهِ، وتطلّع على جميع أعماله، فتسعى جاهدةً إلى إحباط كلّ شيء، وإلى سدِّ منافذ النور بكل جهد ممكن حتى كتبت في سجل الأشقياء المبلسين، وفي زمرة الكفرة المحرومين، وكانت هذه المرأة مثل سوء للنّساء العاصيات اللاتي ركبن طريق الكفر، وابتعدن عن منابع النُّور الإلهي الذي يهدي إلى سواء الصّراط، وإلى الصّراط السَّويِّ. . .

غَلَبَتْ عَلَيْهَا شِقْوَتُهَا:

* وَرَدَ ذكْر نوحٍ ـ عليه السَّلام ـ في القرآن الكريم في ثلاثةٍ وأربعينَ موضعاً، وتوزعت في ثمانٍ وعشرين سورة[1]. . . وفي القرآن الكريم سورة كاملة باسمه هي سورة «نوح».

* عاش نوح ـ عليه السَّلام ـ طويلاً، وعمّر كثيراً، كان أطول الأنبياءِ عمراً، وأكثرهم جهاداً. . . تحمّل من الأذى الشيء الكثير. . . . دعا قومه آناء الليل وأطراف النَّهار، كان يدعو في السِّرِّ أحياناً، وفي الجهر أحياناً أخرى، لم يتركْ وسيلةً من وسائل الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ إلا وسلكها ليخرجَهم من ظُلمات الشِّركِ إلى نورِ اليقين.

* ظلَّ نوح ـ عليه السَّلام ـ يدعو قومه (٩٥٠ عاماً) ذكر الله ذلك فقال: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

كان يذكرهم، ويعظُهم، ويدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ بالحكمةِ والموعظةِ

---

(١) السّور التي ورد فيها ذكر نوح ـ عليه السَّلام ـ حسب ترتيبها في القرآن الكريم هي: آل عمران؛ النّساء؛ الأنعام، الأعراف، التوبة، يونس، هود، إبراهيم، الإسراء، مريم، الأنبياء، الحج، المؤمنون، الفرقان، الشعراء، العنكبوت، الأحزاب، الصّافات، ص، غافر، الشورى، ق، الذاريات، النجم، القمر، الحديد، التحريم، ونوح.

الحسنة. . . ومع طول المدة التي أقامها بينهم لم يؤمنْ برسالتهِ سوى قليل من النَّاس كما ذَكَرَ الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

* كان من الطّبيعيِّ أنْ تكونَ امرأته من فصيلةِ المؤمنين به، ومن الذين يشدّون أَزْره، ويساعدونه على المضيِّ في إبلاغ ما أمَرَهُ الله به، لكنَّها كفرتْ وغلبتْ عليها شقوتها، وأغوتْ ابنها «كنعان»[1] وجعلته يسلكُ سبيلَ المجرمين. . . ويخالف والده نوحاً في النِّيَّةِ والعمل والدِّين.

* وذكر الطّبريُّ في تاريخه أنَّه وُلد لنوحٍ ـ عليه السَّلام ـ أولاده: سام وحام ويافث وكنعان ـ الذي غرق ـ وأمّ هؤلاء واحدة.

امْـرأَةُ نُـوْحٍ وَعِبَـادَةُ الأَصْنَـامِ:

* إنَّ أوَّلَ مَنْ عَبَدَ الأصنام على هذهِ الأرض قوم نوح، وكان النّاسُ قبلهم على عقيدة التَّوحيدِ والإيمان بالله الواحدِ القهّار، لا يعرفون وثنيّةً، ولا يعبدون أصناماً.

ويشيرُ إلى صحة هذا قول الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ. .﴾ [البقرة: ٢١٣].

* كان قومُ نوح قد أشركوا بالله سبحانه، وعبدوا الأوثان والأصنام. . اتخذوا من دونِ الله سبحانه آلهة. . . واعتقدوا أنَّها تجلب النَّفع والضَّرر. . زعموا أنها تبْصِرُ وتسمع بل وتعقل؛ وكثيراً ما كانوا يقولون: إنَّ الآلهةَ تدفع عنا السّوء، وتغني من دون اللهِ عزّ وجلّ، سبحانه وتعالى عما يصفون. .

* يبدو أنَّ قومَ نوحٍ قد أُغْرِموا بالآلهةِ والأصنام غراماً شديداً جعلهم يقدسونها ويعبدونها من دونِ اللهِ الواحد القهّار.

---

(١) غرر التبيان (ص ٨١) وقيل: اسمه (يام) والدّر المنثور للسيوطي (٤/ ٣٣٨) والمعارف (ص ٢٤) والبداية والنّهاية (١/ ١١٥) ومفحمات الأقران (ص ١١٨) والإتقان (٢/ ١٠٩٤) وتاريخ الطّبري (١/ ١١٩) والكامل (١/ ٧٣) وتفسير الخازن وبهامشه البغويّ (٣/ ٢٣٣) وتفسير الماورديّ (٢/ ٢١٦).

* أعرضت امرأة نوحٍ عن دعو ة الإيمان، واتَّبعت مَكْرَ الماكرين الذين مكروا مكراً كبّاراً لإبطال دعوة زوجها نوح ـ عليه السَّلام ـ، وإغلاق الطَّريق في وجهه. . . مكروا لتزيين الكفر والضّلال الذي تخبّطتْ فيه مع قومها. . .

* كان منْ طرائقِ كيدهم ومكْرِهم تحريض النَّاس على اختلاف طبقاتهم على الاستمساك بالأصنام التي يسمّونها آلهة. . . ذَكَرَ الله سبحانه هذا المكر الخبيث وصوَّر أساليبهم فقال: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ. .﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤].

* انبعثَ الملأُ الوثنيُّ الكافرُ يغزو العقول المريضة لإثارةِ الحميّةِ الآثمةِ في قلوب النّاس. . . خصّصُوا من هذه الأصنام أكبرها شأناً وأكثرها أثراً، ليبقى ذكرها في قلوبِ العامّةِ. . . قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

* لقد اتّخذ قوم نوح في أوّلِ الأَمْرِ أَنْصَاباً ترمز إلى قوى قدّسوها. . . قوىً غيبيّة في عَالَمٍ مُبْهم. . ربّما عرفوا شيئاً عن ذلك التّقديس، ثم إنّهم نسوا الرّمز وعبدوا الأصنام، وأشهرها تلك الخمسة التي مرّت في الآية الكريمةِ السَّابقة من سورةِ نوحٍ ـ عليه السَّلام ـ.

* قال المفسّرون والمحدثون والأخباريّون والمؤرخون عن أساس أصنامهم الخمسة: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسِخَ العِلْم عُبدتْ.

قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: وصارتْ هذه الأوثان التي كانتَ في قومِ نوحٍ في العرب بعد[1]. . .

---

(١) انظر قصص الأنبياء (ص ٨٠) والدر المنثور (٨/ ٢٩٣) وإغاثة اللهفان (٢/ ٢٠٥) والإتقان (٢/ ١٠٧٨). والحديث رواه البخاريّ برقم (٤٩٢٠) في التّفسير، باب =

* وفي تفسيره تحدّثَ الصّاويُّ ـ رحمه الله ـ عن أَصْلِ هذه الأصنام الخمسة فقال: وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، ولذا خصُّوها بالذِّكْر؛ وأصلها كما قال عروة بنُ الزُّبير ـ رحمه الله ـ: إنَّه كان لآدمَ ـ عليه السَّلام ـ خمس بنين: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونَسْر؛ وكانوا عُبَّاداً، فمات رجلٌ منهم فحزنوا عليه، فقال الشَّيطان: أنا أصوِّر لكم مثْلَه، إذا نظرتم إليه ذكرتموه، قالوا: افعل.

فصوره في المسجد في صُفْرٍ ـ نحاس ـ ورصاص، ثم ماتَ آخر، فصوره حتى ماتوا كلّهم، وصوّرهم، فلما تقادمَ الزَّمانُ تركتِ النّاسُ عبادة اللهِ، فقال لهم الشَّيطان: ما لكم لا تعبدون شيئاً؟!.

قالوا: وما نعبد؟.

قال: آلهتكم وآلهة آبائكم، ألا تَرَوْنَ أنّها في مصلاّكم؟! فعبدوها من دونِ اللهِ تعالى، حتى بعثَ الله نوحاً ـ عليه السَّلام ـ فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ..﴾ [نوح: ٢٣][1].

* إنَّ هذا التَّخصيص بعدم تَرْكِ الآلهة من أكابر المجرمين من قوم نوحٍ، إنّما هو من شدّةِ كفرهم، وفَرْطِ تعنّتهم في المَكْر والاحتيال، وسلوكهم طريق الشّيطان، فقد كانوا يلبسون ثوب المتنصّح المخلص ويسلكون في تثبيت الضّعفاء على عبادة الآباء شتى الأساليب في المكر والخداع... ولذلك وصفهم الله بقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢].

امْـرَأَةُ نُـوحٍ والدَّعْـوَة:

* مع الذين أجرموا.. مع الكفار والمعاندين كانت امرأة نوحٍ تمشي على

= «وداً ولا سوعاً ولا يغوث ويعوق». وانظر هذه الأصنام بالتفصيل مع أماكنها في معجم البلدان في مواضع متفرقه منه.

(١) انظر حاشية الصّاوي على الجلالين (٤/ ٤١٣).

غيرِ هدى في طريق الشِّرك والشَّرِّ، أخذتْ تكيدُ لدعوةِ زوجها... راحتْ تضعُ العثرات في طريقه...

* لكنَّ نوحاً ـ عليه السَّلام ـ لم يكن يَأْبَهُ لها ولا لقومها.. بل أخذ في تنفيذ ما أمره الله سبحانه بإبلاغه.. فكان يدعو امرأته إلى عبادة الله وَحْدَه. ويدعو قومه جميعاً....

* في بداية دعوتهِ إلى الله قام نوحٌ على أكابر قومه والملأ منهم، وناداهم داعياً واعظاً: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

* إنَّ أولَ مَنْ أعرض عن دعوته، وأولَ مَنْ استكبر امرأته التي خافت أنْ يمسَّه شيءٌ من الآلهة ببعض السُّوء، لقد كانت تقدِّمُ لها القرابين، وترجو نَفْعَها، وتخاف ضررها؛ ولعلَّ الشَّيطان وسوسَ لها أنْ تظلَّ مستمسكة بعبادة الآلهة، وأنْ تبقى راسخة في الضَّلال، وأنْ تظلَّ متعلقة بالأصنامِ التي ترفدُ العالم بالحياة ـ بزعمها ـ.

* انطلقَ الملأُ الوثنيُّ الكافرُ في استكبار يقولون لنوحٍ بعدما رأوا أنّهم كسبوا واحداً من أهل بيتهِ إلى صفوفهم الواهية: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

* ظنّوا بجهلهم أنّهم أصابوا من نوحٍ مَقْتلاً عندما رأَوْهُ بَشَراً مثلهم وله زوجة وأولاد، فكيف اختصَّه الله من بينهم وبعثه رسولاً؟! وانبعث الكافرونَ يصرِّحُون بهذا... ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]

* لقد كان جواب نوحٍ ـ عليه السَّلام ـ في غاية البساطة، وفي غايةِ الهدوء والوقار... ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١].

ثم حدَّدَ لهم بأوجزِ لفظٍ وأحلى معنى المهمة التي بعثه الله من أجلها فقال:

﴿ . . أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

* قَطَعَ عليهم نوحٌ الاسترسالَ في طريق الإفْكِ الذي اخترعوه منْ أنَّه بَشَرٌ مثلهم، ومن بينهم، وأخبرهم بأنَّ مهمته هي الإنذار، ثم تقوى اللهِ وسلوك طريق الخير، ولعلَّ الله عزّ وجلّ يرحمهم ويخلّصهم من شرِّ الأصنام، ومنْ شرِّ أعمالِهم فقال مخاطباً لهم: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

* لامستْ دعوةُ نوحٍ ـ عليه السَّلام ـ قلوبَ الضُّعفَاء من قومه فاتّبعوه، وسلّموا أمرهم الله الواحدِ القهار. . . فكان حالهم كما قال الشاعر:

فـأولُ رَجْـوَاهـم سـلامـةُ دِيْنِهـم
وآخِـرُ دعـواهـم أَنِ الحمـدُ لله

* وهنا تعجّبَ الملأ الكافرُ من زمرة الأغنياء، ودهشوا لإيمان هؤلاء الضُّعفاء الفقراء ـ أخذتهم العزةُ بالإثمِ. . لعبتْ برؤوسهم الخاوية أيادي الشَّياطين. . تقاذفت عقولهم الأهواء. . ظنُّوا أنَّ عنوانَ الشّرف والنَّجاح إنَّما يكونُ في الأموالِ والثَّمرات، في المظاهر البرّاقةِ الخاويةِ. . .

* انبعثَ أغنياءُ الكفارِ يهاجمون نوحاً ـ عليه السَّلام ـ، ويعيّرونه في أَتْباعه من المؤمنين الضعفاءِ في أموالهم، الأقوياء في إيمانهم، المخلصينَ في حبِّهم لله عزّ وجل؟. . أخذ الكفّار يقولون في بلاهة عجيبةٍ: يا نوح ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. لا، بل قالوا متعجّبين منكرين لفَضْلِ هؤلاء المؤمنين الأبرار، ثم رموهم بالكذب فقالوا: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

* لقد كان الكبراء والكبّار من الفجّار يسمّون الفقراء من النَّاس «أراذل»، فالفقراء هؤلاء لم تُفْسِد فطرتهم النّقية مظاهر البَطَر والتَّرفِ، ولم يعوّقهم الشّبع عن الاستجابة لله عزّ وجل. . . فلذلك اجتمعَ الكفارُ وزعموا بأنّه لا يليقُ بهم ولا بمكانتهم أنْ يؤمنوا إيمان الأراذِلِ، وينقادوا إلى اتّباع نوح

ـ عليه السَّلام ـ، وأضافوا إلى كفرهم وعنادهم أنْ قَذفوا نوحاً وأَتباعه بالكذب والافتراء.. وربّما قالوا لنوحٍ: لو كنتَ على حقٍّ لاتّبعَتْك امرأتك وأمّ أولادك، فهي من أعَرِف النّاس بما تقول!!

حِـوَارٌ ومُسَاوَمَـةٌ:

* كان نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ يتلقى الاتّهام، ويُقابَل بالإعراض والاستكبار، وكان يقابلُ ذلك في سماحةِ النّبيِّ، وفي ثقتهِ بالحق الذي جاء به مِنْ عند الله سبحانه... فلا يتّهم كما اتهموه.. ولا يدّعي كما ادعوا...

* من هذه النُّقطة اندلعتْ ألسنةُ الصِّراع... واندلعَ الحوار.. لجأَ الذين كفروا من قومهِ إلى المساومة الغبية الرَّخيصة... طلبوا من نوحٍ ـ عليه السَّلام ـ أنْ يطردَ الذين اتّبعوه، وأنْ يبعدَهُم عن مجلسهِ، فإذا طردهم ربّما سوّلت لهم أنفسهم أنْ يتّبعوا ما جاء به...!.

* أجابهم نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ باختصار: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ..﴾ [هود: ٢٩].

* أَخَذَ نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ بعد هذا كلِّهِ يدعو قومه ليلاً نهاراً سِرّاً وعلانيةً بدأَ معهم طريق الدَّعوة بالنَّظرِ في ملكوت الله، وفي إظْهَارِ آيات الله في الكون... دلّهم على طريق النجاة... وهو طريقٌ سَهْلٌ واضحٌ ينجو مَنْ سَلَكه من التّهلكة، ويفوز مع الفائزين... هذا الطّريق عنوانه وبدايته الاستغفار... هذا الطّريقِ ثمارهُ دانية القطوف في الدنيا وفي الآخرة... فبالاستغفار يُرسل الله بركاتٍ من السَّماء إلى الأرض... ويمدُّ المستغفرين بالأموالِ.. بالذّريةِ... وبالاستغفار يجعل الله لهم الجنّات.. ويجعل لهم الأَنْهار التي تروي تلك الجنّات... وتمدُّ الأرض بالحياة...

* وبعد أنْ أرشدهم نوح إلى طريق الاستغفار ذكّرهم في خلقهم، ونبههم إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ خلقهم أطواراً في حالات مختلفةٍ ليكون لخلْقِهم في نفوسهم وقعٌ مؤثّرٌ يقودهم إلى الاستجابةِ.

* قال المفسِّرون عن الأطوارِ إنّها الأطوارُ الجنينيةُ من النُّطْفَةِ إلى العَلَقَةِ

إلى المُضْغَةِ إلى الهيكل إلى الخلق الكامل.

* لقد وجههم نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ إلى النَّظر في أنفسهم، ثم لفتَ أنظارهم إلى قراءة آيات اللهِ في كتاب الكون المفتوح أمامهم... السَّموات... القمر.. الشّمس... الفَضَاء.. الأرض التي يعيشون فوقها... وقد ذلَّلها الله لهم، فهم يستغلّون تربَتها وماءها وهواءها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعاً.

* لقد نبههم نوحٌ إلى هذا كلّهِ ليستيقظ ضميرهم، وتهفو نفوسهم، وتخشع قلوبهم... ويؤمنوا بالله العزيز الحميد؛ ولكنْ هل استجاب هؤلاء؟ وهل وَجَدَ عند أحدِهم أذناً واعية.

* اقرأ معي ما قصّه الله سبحانه عمّا لقيَهُ نوح ـ عليه السَّلام ـ في سورة نوح: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[1] ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ

---

(١) «طِباقاً»: من المعنى المادي: الطَّبَق، غطاء كلّ شيء لازَمَ عليه، ومنه طبق كلّ شيء؛ ما ساواه، وهذا الشيء طباق هذا، وطابقه، وطِبقه، وطبيقه، ومطبق، أي: مساويه، وطبق الشيءُ الشيءَ: غطّاه. وطابَقَ بين شيئين: جعل أحدهما فوقَ الآخر، والمصدر طباقاً.

والأشياء طباق، أي: بعضهما على بعض: ﴿سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: ذات طباق، وكلّ واحد من الطّباق طبقة... والمطابقة: الموافقة.

والطّبق والطّبقة: الحال. والطّبق: جمع طبقة، وهي المفصل. ولذلك قيل للذي يصيب المفصل: طبّق: فهو مطّبق. والطبق: الذي يُؤكل عليه أو فيه، والجمع: أطباق. وقوله جلّ وعزّ: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ يمكن أنْ يُفهم من الآية أنَّ السَّموات تطابق تمامَ التَّطابق للأرض، وفي هذا التطابق مجال وسيع لبيان ناحيته وجهته. هذا وقد وردت كلمة «طباقاً» في موضعين من القرآن الكريم في سورة الملك آية (٣) وسورة نوح آية (١٥).

أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ٨ ـ ٢٠].

أَمَـا يَـنْـصُرُكَ رَبُّـكَ؟!

* كان قومُ نوحٍ قد أجمعوا على مخالفةِ الأوامرِ الصَّادرة عن الله عزَّ وجلَّ التي بلّغها نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ، وزادوا على ذلك أنّهم مارسوا الفواحش ما ظهر منها وما بَطَن، وشربوا الخمور، واشتغلوا بالملاهي عن طاعةِ الباري سبحانه وتعالى.

* لبث نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ في قومهِ أَلْفَ سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله في كلِّ وقت، يمضي قرنٌ بعد قرن، فلا يستجيبونَ له، حتى مضى قرون ثلاثة على ذلك مِنْ حاله وحالهم، وتمادوا في المعصية، وعظُمتْ في الأرض منهم الخطيئة، واشتدّ على نوحٍ منهم البلاءُ، فلا يأتي زمنٌ إلا كان أخبث من الذي قَبْله، وظلَّ نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ صابراً يتحمّل أذاهم في سبيلِ اللهِ عزّ وجلّ عسى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عمّا هم عليه من العناد والضَّلال والفَساد والإفساد.

* ولكنَّ نوحاً ـ عليه السَّلام ـ وَجَدَ منهم غاية التّكذيب والعناد، على الرّغم من تنوّع أساليبه في دعوتهم كما هو موضحٌ في السّورة المسماة باسمه... وقد بيَّنَ القُرآن الكريم أنّه لبثَ داعياً قومه مدة طويلة من الزّمن ولم يستجبْ له إلا قليلٌ كما قصَّ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠].

ولم تكن امرأةُ نوحٍ من هؤلاء «القليل» الذين آمنوا وسلّموا أمرهم لله، وإنّما استسلمت للشَّيطان، واتخذت الكُفْرَ طريقاً، والعناد سلوكاً، والسّخرية أسلوباً.

* بدأت هذه المرأة الشّقية رحلة السُّخرية بزوجها نوح الذي اختاره الله عزَّ

وجلَّ رسولاً ونبياً للناس، بلْ هو أوّلُ رسول[1] أُرسلَ مِنْ عند الله سبحانه، وهو كذلك منْ أولي العَزْمِ من الرسُل[2]، ومع هذا كلّه كانت تناقشُ نوحاً وتحاوره في أمورِ دِيْنِهِ بأسلوب يطفحُ بالاستهزاء والسُّخرية والانتقاص، وذلك أمام قومهِ الذين انبعثوا يقولون له: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا..﴾ [هود: ٣٢].

* نعم فقد خاصمتنا بأنواع الخصام، ودَفَعتَنا بكلِّ حجّة، لم يبقَ لنا في هذا البابِ مجالٌ، لن نستطيعَ أَنْ نردَّ عليكَ بالحجّة كما تقيم علينا الحجة..

---

(١) سيّدنا نوح ـ عليه السَّلام ـ كما هو معلوم، أول رسل الله إلى الأرض، وقد كان سيّدنا آدم ـ عليه السَّلام ـ أول الأنبياء، ولم يكن رسولاً، ودليل ذلك ما رواه الشيخان ـ رحمهما الله ـ في حديث الشفاعةِ الطّويل، وهو أنَّ النّاس يوم القيامة يذهبون إلى آدم ـ عليه السَّلام ـ فيقولون له: أنتَ أبو البشَر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأَمَرَ الملائكة فسجدوا لك، اشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟!.
فيقول آدم: إنَّ ربي قد غضبَ اليوم غضباً لم يغضبْ قبله مثله، ولن يغضبَ بعد مثله، وإنَّه نهاني عن الشّجرة فعصيتُه، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولونُ: يا نوح، إنّك أنتَ أول الرّسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً... إلخ... انظر فتح الباري (٨/ ٢٤٧) حديث رقم (٤٧١٢) واللفظ له، وانظر صحيح مسلم (١٩٤) في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها.
وفي هذا دليل على أن نوحاً ـ عليه السَّلام ـ أول رسول بعثه الله عزّ وجلّ.

(٢) انظر غرر التّبيان (ص ٤٧٧ و٤٧٨)، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾. نقل الإمام الشّوكاني ـ رحمه الله ـ عن مجاهد قال: أولو العزم من الرسل خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وهم أصحاب الشرائع. (فتح القدير ٥/ ٢٧).
هذا وقد جمع أسماء هؤلاء الرسل أحد الشعراء بقوله:

أولو العزمِ خمسٌ والشرائعُ خمسة ... يُدان بها ربّ العباد ويُعبَد
فنوح وإبراهيمُ ذو الحلم والتّقى ... وموسى وعيسى ثم جاء محمدُ

عن كتاب (رحلة الشتاء والصيف ص ١٢٣).

ضاقتْ علينا المسالك كلّها، انسدتْ أمامنا أبواب الحِيل. . . وأخيراً لن نؤمن لك. . .

* في هذا الافتراء والبهتان شاركت امرأةُ نوحٍ الملأَ المعاند الكافر، وعلى الرغم من التّحذير الذي حذّره نوحٌ لها وللقوم الكافرين وإنذارهم بعذابِ الله، إلا أنّها قالت له ذات مرّة وهو في رحلةِ الدّعوة إلى الله عزّ وجلّ: يا نوح، أَمَا ينصرُك ربُّك؟!.

فقال لها: نعم.

قالت باستهزاء: فمتى؟!.

قال: إذا فار التَّنُّور. . .

فخرجتْ تقول لقومها: يا قوم، والله إنّه لمجنون، يزعمُ أنّه لا ينصره ربّه إلا أنْ يفورَ هذا التَّنُّور[1]!!. . .

* وانطلقَ الكافرونَ يزيدون من عذابهم لنوحٍ. . . صاروا يضايقونه أكثر من قبل. . . . أعرضوا إعراضاً كاملاً. . . ضربوه. . . أَدْمَوْهُ وهو يناجي ربّه وهو ساجدٌ في يوم من الأيام. . .

* أورد القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ نوحاً ـ عليه السَّلام ـ بينما هو ساجدٌ يوماً من الأيام؛ إذ مرَّ به رجلٌ منْ كفّار قومه وعلى عنقه حَفِيْدٌ له؛ فقال الجدّ للحفيدِ محذّراً وموصياً:

يا بني هذا هو الشّيخ الكذّاب الذي دعانا إلى عِبادةِ ربٍّ لا نعرفه، وأوعدنا وعيداً بلا أَمَد، فتحفّظْ منه لئلا يضلك!.

فقال الحفيد له: إذا كان على هذه الحالة فلم تركتموه حيّاً إلى الآن؟

فقال له الجدُّ: وما كُنّا نصنعُ به؟

فقال الحفيد: أنزلني حتى ترى ما أصنعُ به. . .

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٩/ ٤٧).

فأنزله جدّه، فأخذَ صخرةً وأهوى بها إلى رأسِ نوح فشجّه[1].

فلمّا سمع نوح ـ عليه السَّلام ـ قول الحفيد، وحواره مع جَدِّهِ، ورأى فَعْلَتَه التي فَعَلَ، علم إذ ذاك أنَّ الحفيد أطغى وأخبثَ من الجدِّ، فدعا في تلك السّجدة، وتوجَّهَ إلى الله عزَّ وجلَّ: فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ و٢٧].

* لقد علم نوحٌ أنَّ قومه أَبْلَسوا جميعاً، ولَمّا قطع بكفرهم دعا عليهم ولا سيما بعدما أوحى الله إليه... ﴿.. أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ..﴾[هود: ٣٦].

* على أنَّ دعاءَ نوح على قومهِ رحمةٌ علّلها هو إذ دعا ربّه فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٧] يعني يضلوا مَنْ آمنَ مِنْ قومهِ بكثرة الأَذَايةِ، ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

* وقد صحَّ في الخبرِ الإلهي بوساطة الوحي أنّهم لا يؤمنونَ، ولِمَا رأى من الصّبيّ الذي طرح على رأسه الصَّخرة ـ إنْ صحَّ الخبر ـ.

* وعلى الرغم من كلِّ ما حَدَثَ لنوح؛ ظلّتِ امرأتُه تعانده مع القومِ الكافرين، ولم تدخر نصيباً من الجهد في التّصدي لدعوة الهدى ودينِ الحقِّ التي كان زوجها يدعوها وقومها إلى عبادة اللهِ الذي يخرج الخَبْءَ، ويعلم ما في السَّموات وما في الأرض.

* ويبدو أنَّ امرأةَ نوحٍ صدّتْ كثيراً من الذين كانوا يريدون الإيمان بدعوةِ نوحٍ، وزعمت قائلة: لو كان في دعوتهِ خيراً، ولو كان ما يقوله حقّاً، لما انصرفتُ عنه، ولتبعته، ولكنَّ عبادةَ الأصنامِ والآلهةِ أَنْفع مما يدعونا إلى

---

(١) عن تفسير القرطبي (٩/ ٤٦) و(١٨/ ٣١٢) بشيء من التصرف والجدير بالذّكرِ أنّ قومَ نوح قد كذّبوه تكذيباً بعد تكذيب، وكان التكذيب الأول منهم بالتوحيد، والثاني بالرسالة.

عبادته، بل لو كانت دعوتُه صَحِيحة لاتّبَعَه أكابر النّاس، ولما تَبِعَه عددٌ قليلٌ من الضُّعفاءِ الأراذل!!!.

* وكان سيّدنا نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ يصبرُ على أذاها، وعلى أذى قومه.. حذّرهم جميعاً أنْ تحلَّ بهم قارعةُ العَذَاب، حذّرهم يوماً عبوساً قمطريراً وهو عليهم غيرُ يَسير، لكنّهم استكبروا... أصرّوا على بقائِهم على مائدةِ الكفر والضّلال، ثم قالوا لنوح بصيغة التّهديد: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

ثم تمادوا فقالوا ـ بعد أنْ ذكَّرهم بعذاب الله مرات ومرات ـ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

* ردَّ عليهم نوحٌ بما أوحى إليه ربُّه فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣].

* انتهى الحوارُ على هذه الصُّورة... وحزنَ نوحٌ على استسلامهم للكفر وانقيادهم للشَّيطان... أوحى الله إليه مسلّياً وقائلاً: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

* لقد كان نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ شديدَ المحبةِ لإيمانِ قومه، فأعلمه اللهُ سبحانه أنَّه لا يؤمنُ منهم أحدٌ ليزولَ عن قلْبِهِ ما كان قد حَصَلَ فيه من تلك المحبّة... عرّفه الله عزّ وجلّ أنه معذبُهم ومهلكهم... عرّفه الباري أنّه معذّبهم بالغَرق....

* ولمّا كان السَّبيلُ الذي به يحصل النّجاة منَ الغرقِ تكوين السَّفينة، لا جرم أَمَر الله نوحاً بأنْ يعدَّ السَّفينة، فأوحى إليه أنْ يصنعَها... أَمَرَهُ ألا يخاطبه في الذين ظلموا ومعهم امرأته.. لقد تقرّرَ مصيرهم... وانتهى الأمْرُ فيهم.. فلا تخاطبني فيهم بدعاءٍ لهم أو عليهم، فمتى انتهى القضاء امتنع الدّعاء...وانتهى الأمْرُ.. وأَصْدَر الباري سبحانه حكمه العادل على الكافرين بالطّوفان...

وَيَصْنَعُ الفُلْكَ:

* بدأ نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ بتنفيذِ أَمْر ربّه في اتخاذ الفلكِ ـ السَّفينة ـ، ولم يكن لنوحٍ ولا لغيره مَعرفة بصنع السّفينةِ، لذا فقد أوحى الله إليه صنعها، وعلّمه كيف ينبغي أنْ تكونَ، قَال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧].

* وشرع نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ يصنعُ الفلك تحت أَمْرِ الله ووحيه، وأعدَّ العدة لذلك، وأخذ في تَنْفيذ المهمّة الربّانيةِ، ويبدو أنَّ امرأته كانت تراهُ وهو ينقل الأخشاب، ومن ثمّ يبدأ العمل في صناعتها على شكْلِ سفينة... ولكنْ ليس قرب البحر، أو قرب نهر كبير، مما أثار دهشة امرأته واستغرابها، وراحت تسأله في تهكّم: ماذا تصنع بهذه الأخشاب يا نوح؟!.

فقال نوح ـ عليه السَّلام ـ: سفينة أنجو بها ومَنْ معي من المؤمنين إذ جاء أَمْرُ الله.

فقالت في سخريةٍ شديدةٍ: وأينَ الماء الذي تجري عليه سفينتك؟ أظنُّ أنك جُننتَ أو أصابك مسٌّ من غضبِ الآلهة، فهل يعقل أنْ تسيرَ السّفينة على اليَبَس؟!.

ثم تتابع سخريتها فتقول: ليس هاهنا ماء، ولا يمكنك نقلها إلى البحار أو إلى الأنهار العظيمة.

* ويشاركُ ملأ الكفار في السُّخرية بنوحٍ كلّما رأوه ينجزُ قسماً من السَّفينة، كانوا يقولونَ له ساخرين متسافهين ضاحكين: يا نوح، صرتَ بعد النُّبوَّةِ نَجّاراً، إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب!.

ثم أسرفوا في استحضار السُّخرية، وفي التّمادي والازدراء والهزء فقالوا: يا نوح، لو كنتَ صادقاً في دعواك لكان إلهك الذي تصفه لنا وتدعونا إليه يساعدك في هذا العمل، أو يغنيك عن هذا العمل الشّاق، ألا ترى يا نوح أنّ هذا قمّة الجهل؟!.

* قال قاضي القضاة الإمام علي بن محمّد الماورديّ[1] ـ رحمه الله ـ: إنّهم لما رأوه يبني السَّفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بُنيت قالوا: يا نوح، ما تصنع؟.

قال: أبني بيتاً على الماء... فعجبوا من قوله وسخروا منه[2].

* كان قوم نوحٍ يعدُّون عَمَلَه في السّفينة من باب السّفه والجنون، حكى الله تعالى سخرية قومه به فقال: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

ظل نوح ـ عليه السلام ـ يتابع عمله، ولا يعبأ بسخرية الساخرين، فلما أغرقوا في سخريتهم ورميهم إياه بالجهل قال لهم مذكراً: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

---

(١) «الماورديُّ»: محمّد بن حبيب القاضي أبو الحسن الماورديّ البصريّ ـ والماوردي: نسبة إلى بيع الماورد ـ أحد أئمة أصحاب الوجوه. قال الخطيبُ البغداديُّ ـ رحمه الله ـ في تاريخه: كان ثقة من وجود الفقهاء الشّافعيين، وله تصانيف عدة في أصول الفقه وفروعه، وفي غير ذلك، وكان ثقة، وُلِّيَ القضاء في بلدان شتى، ثم سكن بغداد... له مصنفات كثيرة في الفقه، والتفسير، وأصول الفقه، والأدب، وكان حافظاً للمذهب. وصفه ابن خيرون فقال: كان رجلاً عظيم القدر، مقدماً عند السلطان، أحد الأئمة، له التّصانيف الحسان في كلّ فنٍّ من العلم.
من تصانيفه «الحاوي» في الفقه، و«أدب الدّنيا والدّين» و«الأحكام السّلطانية» وتفسير القرآن سمّاه: «النّكتُ والعيون» ويمتازُ هذا التّفسير بأنّه جمع فيه أحكام القرآن الكريم، وأقوال الصّحابة والسّلف، ورفده بالأدب والشّعر والشواهد، فهو ـ في رأيي ـ يُعتبر قدوة لتفسير القرطبي، بل إن القرطبيّ توسع أكثر في تفسيره وحذا حذو الماورديّ بذلك، والخلاصة فتفسير الماوردي من أمتع وأجمع التفاسير التي عنيت بكل فنّ من فنون التفسير.
توفي الماوردي في ربيع الأول سنة (٤٥٠هـ) وعمره (٧٦ سنة) رحمه الله تعالى.
(طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧) رقم الترجمة (١٩٢) و(طبقات المفسّرين ١/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩).

(٢) انظر تفسير الماوردي (٢/ ٢١٣).

* وفي تلك اللحظات... ترتفعُ ضحكات الكفار... وتكثر الهمسات فيما بينهم... يكثر الهمزُ واللمزُ.... يقولون: مسكينٌ نوح.. لقد جُنّ نوح... لقد جُنّ نوح...

* انتهى نوح ـ عليه السَّلام ـ من صُنْع الفُلْكِ، وكانت تصاحبه في ذلك العناية الإلهيّة.. ذكر المفسّرون وغيرهم من أهل العلم والأخبار أقوالاً وأخباراً كثيرة عن نوع الخَشَبِ الذي صُنِعت منه السّفينة... أوردوا بذلك الأقوال الكثيرة في مقدار طُولها وعرضها وارتفاعها... تسابقوا إلى ذكْرِ المكان الذي صنُعت فيه... تحدّثوا وحكوا عن حجمها وهيئتها... ذكروا عدد طبقاتها وكم استغرق عملها... ذكروا تفصيلاتِ ووقائعَ لا فائدة من معرفتها ولا ضرر من جهلها.

* رحم الله شهاب الدِّين الآلوسي[1]، لقد أصاب الحقَّ في كلمةٍ له في

---

(١) «الآلوسيُّ»: شهاب الدين أبو الثّناء محمود بن عبد الله الحسينيّ الآلوسيّ البغداديّ، شيخ العلماء في العراق، جمع كثيراً من العلوم؛ فهو مفسّرٌ، محدّثٌ، فقيهٌ، أديبٌ، لغويٌّ، وُلِدَ ببغداد سنة (١٢١٧ سنة) وزار عدداً من البلدان، وكان عالماً باختلاف المذاهب، مطّلعاً على الملل والنّحل، سَلَفِيَّ الاعتقاد، شافعيَّ المذهب، إلا أنّه في كثيرٍ من المسائل كان يقلّد الإمام أبا حنيفة النّعمان ـ رحمه الله ـ.
عكف الآلوسيّ على التّصنيف والتّأليف إلى أنْ توفي سنة (١٢٧٠هـ) وعمره (٦٣ سنة).
من أشهر مؤلفاته التّفسير الجامع الواسع المسمى: «روح المعاني في تفسير القرآن والسّبع المثاني» وهو تفسيرٌ جامع لخلاصة ما سبقه من التّفاسير، ويقع في (٩ مجلدات). وصف هذا التّفسير الشيخ قاسم القيسي مفتي بغداد المتوفى سنة (١٩٥٥) في كتابه تاريخ التفسير ما نصّه: وأما تفسير العلامة الآلوسي المسمى بروح المعاني، فليس له في الجمع والتحقيق ثانٍ، اشتمل على تسع مجلدات ضخام، حوت من الدقائق والحقائق ما لا يسع شرحه كلام، وهو خال من الأباطيل والإسرائيليات والروايات الواهية والخرافات، وجامع للمعقول والمنقول. رحم الله الآلوسي وأجزل له العطاء. (التفسير والمفسرون ١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٤) و(معجم المؤلفين ١٢/ ١٧٥).

هذا المجال. . . يقول في تفسيره البديع «روح المعاني»: فالحريُّ بحالِ مَنْ يميل إلى الفضول أنْ يؤمنَ بأنَّه عليه السَّلام ـ أي نوح ـ صَنَعَ الفلك حسبما قصَّ الله تعالى في كتابه، ولا نخوض في مقدارِ طولها وعرضها وارتفاعها، ومن أي خَشَبٍ صَنَعَها، وبكم مدة أتمَّ عملها؟! إلى غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب، ولم تبيّنه السُّنّة الصَّحيحة[1].

* أمَّا الإمام فخر الدين الرّازيُّ ـ رحمه الله ـ فقد قال قديماً ـ في هذا كلّه ـ بعد أنْ ذَكَرَ مسائل عديدة في شأْنِ السَّفينة:

واعلم أنَّ أمثال هذه المباحث لا تعجبني لأنَّها أمورٌ لا حاجة إلى معرفتها البتة، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً، وكان الخوضُ فيها من باب الفضول لا سيّما مع القطع بأنّه ليس هاهنا ما يدلّ على الجانب الصَّحيحِ.

والذي نعلمه أنّه كان في السَّعِة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه، ولِما يحتاجون إليه ولحصولِ زوجين منْ كلِّ حيوان، لأنَّ هذا القَدْرَ مذكورٌ في القرآن، فأمّا غيرَ ذلك القَدْرِ فغير مذكور[2].

﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾:

واقتربَ الوعدُ الحقُّ، وجاء أَمْرُ اللهِ، وفار التَّنُّور، وفتح الله أبوابَ السَّماء بماء منهمرٍ، وفجَّر الأرض عيوناً، وصَعِدَ نوحٌ والمؤمنون إلى السَّفينة، ومعه من كلِّ زوجين اثنين ودخلوا فيها. . . قال لهم نوحٌ: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

* نَجا المؤمنون[3] جميعهم عندما صَعِدُوا السَّفينة، ووقاهم الله شرَّ ذلك الطُّوفان، وجعل لهم ودّاً، وغَرِقَ الكافرون السَّاخرون وأهلكهم الله عزّ وجلّ في وادي الرّدى. . . فإذا الصّمتُ يخيّم. . والموتُ يجثمُ، لا حسّ

---

(١) روح المعاني (١٢/ ٤٥) وانظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٣٣) وتفسير الآية [٣٨] من سورة هود في معظم التفاسير.

(٢) التفسير الكبير للرازيّ (١٧/ ١٧٩).

(٣) قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: آمَنَ مِنْ قومِ نوحٍ ثمانون إنساناً.

ولا حركة، ولا صوت للكافرين[1]...

لم يبقَ إلا صوت هدير الماء، وتوحيد المؤمنين مِنْ على السَّفينة، يسبّحون بحمدِ ربّهم... فقد انتصر طوفانُ الإيمان على طغيان الكفر وعلى طوفان الفِسْقِ والسُّخرية.

* ارتفعتِ السَّفينة فَوقَ الماء، وعلا الموجُ، وغطّى الأرضَ، فغدت كرةً من الماء، لم تعدْ كرةً أرضية طيلة فَتْرةِ الطُّوفان، لقد تجاوزَ الماءُ وطغى على كلِّ شيءٍ حتى رؤوس الجبال الشَّاهقاتِ.

* غرقت امرأةُ نوحٍ، لم تركب مع المؤمنين في السَّفينة ظنّت أنَّ بيتَها يمنعها من الماء ويحميها من هديره، لكنْ لا عاصم اليوم منْ أَمْرِ الله[2].

* أمّا نوح ـ عليه السَّلام ـ فحين ركب السَّفينة، وأدخل فيها المؤمنين وأهله كما أُمِرَ، رأى ابنه ـ كنعان ـ في جهة خارج السَّفينة، وبمقربة منها حيثُ يسمع النّداء... لم يرَ امرأته... يئسَ من سلامتها.. ظن نوح أنَّها هي المستثناة وحدها... وإنّها هي التي سَبَقَ عليها القولُ من الله تعالى بِخَتْم الكفْر والعَذَاب فقط.. طمعَ في إيمانِ ابنه الذي كان عهد منه قبل ذلك ـ وكان ابنه كنعان يظهر له الإيمان ويبطن الكفر ـ والأنبياء عليهم السَّلام إنّما عنوا بالظَّواهر والله يتولى السَّرائر؛ فلذلك عندما لم يرَ نوحٌ امرأته يئس من سلامتها.

* ولما رأى ابنه بمقربةٍ منَ السّفينة حيثُ يسمعُ النّداء، طَمِعَ في سلامتِهِ،

---

(١) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ أجمع أهل الأديان، النّاقلون عن رسل الرحمن، مع تواتر عند الناس في سائر الأزمان، على وقع الطوفان، وأنه عمّ جميع البلاد، ولم يُبق الله أحداً من كفرة العباد، واستجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم. (البداية والنهاية (١/ ١١٨).

(٢) في نوح والسفينة وإهلاك الكفرة والفجرة دلالات ظاهرة على قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأنه ينصر أنبياءه، ويهلك أعداءه، وأن عذاب الاستئصال يقع على المعاندين المصرين على كفرهم وشركهم.

وحسَّنَ الظَّنَّ أنه مؤمنٌ، فقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، أي: لا تَبْقَ يا بني في الأرض فتهلك مع مَنْ هَلَكَ منَ الكفرة. وقوله لابنه: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دليل على أنَّ نوحاً كان يعتقد إيمان ابنه. فلمّا قال له ابنه: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي[1] مِنَ ٱلۡمَآءِ..﴾ [هود: ٤٣].

قال له نوحٌ: ﴿.. لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۖ..﴾ [هود: ٤٣] يعني: منْ رحمة الله تعالى فسَلِمَ بإيمانه...

* انتهى الحوارُ بينَ نوحٍ وابنه... تعذَّر خلاصه من الغَرَقِ.. وحقَّ عليه القول... فلم يعصمْه جبلٌ ولا غيره من أمْرِ الله.

* قال الشَّوكانيُّ ـ رحم الله ـ: وأستبعدُ كَوْنَ نوحٍ ينادي مَنْ كان كافراً مع قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]؟؟! وأجيب؛ بأنّه كان منافقاً فظنَّ أنّه مؤمنٌ[2]. ولذلك نادى نوحٌ ربَّه...

* أكَّد اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّ كنعان غير داخل في عموم الأهل الذين آمنوا بنوحٍ وتابعوه واتّبعوه، وإنْ كان مِنْ أهله باعتبار القرابة، والمراد بالقرابة: قرابة الدِّين لا قرابة النَّسَب وحده.

* أجاب الله سبحانه نوحاً جواب الحقِّ والعَدْل: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ

---

(١) «يعصمني»: يمنعني. من المعنى الحسّيّ: المِعْصم: موضع السِّوار من السَّاعد؛ لإمساكه السّوار. والعِصْمة ـ بالكسر والضم ـ القلادة؛ للزومها العنق.
والعصام: رباط القِربة وسيرها الذي تحمل به، وعروة الوعاء التي يعلّق بها. وكلّ حبل يعصم الشيء فهو عصام، ومن هذا تكون العصمة: المنع والحفظ مادياً أو معنوياً.
عصمه: منعه ووقاه، عصماً، وأعصمه: هيأ له شيئاً يعتصم به، وأعصم هو: لجأ إلى ما يمنعه، واعتصم واستعصم: استمسك، واستعصم: امتنع.
وعصمةُ الله الرسول: حفْظُه إياه ومنعه.
وعصمةُ النّكاح: عقدته، وجمعها عِصَمٌ.
وردت كلمة «يعصمني» مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة هود آية (٤٣).

(٢) انظر فتح القدير (٢/ ٤٩٩).

أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ . . ﴾ [هود: ٤٦] إنَّ هذا الولد ليس منْ أهلك الذين وعدتك أنْ أنجيهم معك[١]، لأنَّه كان مُخالفاً لدِيْنك، كثير الإساءة، مداوماً على الفساد[٢].

* أما المؤمنون الذين هم على ظهر سفينة بسيطة بين أمواج عظيمة كالجبال في ارتفاعها وامتدادها، وهم بينها كأنّهم في وادٍ سحيق، كانوا على ثقةٍ باللهِ تعالى، وكانوا على ثباتٍ واطمئنان، إذ إنَّ ثقةَ أولياء الله بحماية الله ورعايته لهم هي شعارهم وهم في وسطِ الموج. . . وما دام الله قد وَعَدَ بالنّجاة، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. . . فقد أحسنوا الاتكالَ على اللهِ فتفجّرتْ ينابيعُ الاطمئنان في قلوبهم، وتفجّرتْ ينابيع الثّقة في نفوسهم فأضحى شعارهم: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ . . . ﴾ [الطلاق: ٣]. وأضحى لسانُهم يلهجُ بالثّناء على اللهِ والشّكر له، وخصوصاً سيّدنا نوح إمام الشّاكرين، وقد أثنى عليه ربّه سبحانه فقال: ﴿ . . إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣][٣].

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾:

في جَامِعِه أخرجَ التّرمذيُّ ـ رحمه الله ـ بسنده عن مصعب بن سعد عن أبيه قال:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٦/ ٢٠٧).

(٢) ذكر بعض المفسّرين أنَّ الناس في عَهْد نوح ـ عليه السَّلام ـ على ثلاثةِ أصناف: صنفٌ مؤمن، وصنفٌ كافر مظهر لكفره، وصنفٌ منافق. ويُضاف إلى نفاق ابن نوح وجود امرأة نوح الكافرة أمّ ابنه كنعان، وبالتّالي قد يكون لها أثر في كفر ابنها، وعامل مهم في نشأته على غير دين أبيه الصحيح مما صرفه عن اختيار طريق الهدى ودين الحقّ، فكانت نهايته بأن حق عليه القول بأنه من الخاسرين في الدارين.

(٣) في كتابه اللطيف «الشّكر لله عز وجل» أخرج ابنُ أبي الدّنيا ـ رحمه الله ـ بسنده عن محمّد بن كعب القرظيّ المدني أنّه قال: كان نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ إذا أكلَ قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله، فسمّاه الله عبداً شكوراً. (كتاب الشكر لله عز وجل ص١٧٠).

قلتُ: يا رسول الله، أيّ النّاس أشدّ بلاءً؟

قال: «الأنبياءُ ثُمّ الأمثل فالأمثل؛ يُبتلى الرّجل على حسب دِينه، فإنْ كان في دِينه صُلْباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كانَ في دِينه رِقَّةٌ ابتلَي على قَدْر دينه، فما يبرحُ البلاء بالعبدِ حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[1].

* فمن الملاحظ أنَّ العبدَ المؤمنَ يُبتلى على قَدْرِ إيمانه، وها هو ذا نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ النّبيُّ الرّسول، يُبتلى ابتلاءً شديداً بتكذيب قومه، وأذاهم له، وسخريتهم منه، وبالإضافة إلى ذلك يُبتلى بابنه فيجده في زمرة الكَافرين.

* وقد ابتلي بامرأته منْ قبل... فكانت منَ الكافرين، وكم سعى لإنقاذها من صفوفِ الكَافرين، ولكنَّ اللهَ غالبٌ على أَمْرِهِ، ولم يغنِها قربها من نوح، فالعبرةُ بقرابةِ الدِّينِ لا بقرابة النَّسب... وأصبحت قصّة امرأة نوح مَثَلاً... اقرأ معي قول الباري جلَّ وعلا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[2] [التحريم: ١٠].

* لقد تحدثتِ الآيةُ الكريمةُ عن امرأتين كافرتين... كلّ واحدة منهما في بيت نبيّ، والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح: أنّها كانت خيانة في الدَّعوة، وليست خيانة الفاحشة[3].

---

(١) انظر: تحفة الأحوذيّ (٧/ ٧٨ و٧٩) حديث رقم (٥٠٩) باب: ما جاء في الصَّبر على البلاء، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجه، (٤٠٢٣) في الفتن. باب: الصَّبر على البلاء. والدارمي (٢/ ٣٢٠) وأحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) وأخرجه كذلك النّسائي وابن حبّان والحاكم.

(٢) وصفها الله عز وجل بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما بإضافتهما إليه تعالى إضافة التّشريف والتّخصيص.

(٣) من عيون الأقوال في هذا المجال، ما ذكره الزمخشريّ ـ رحمه الله ـ إذ تحدث عن الفاحشة فقال: لا يجوز أنْ يراد بالخيانة؛ الفجور، لأنه سمج في الطّباع، نقيصة عند كل أحد، بخلاف الكفر، فإن الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه، ويسمونه حقاً. (الكشاف ٤/ ١٣١). =

* قال الشّوكاني ـ رحمه الله ـ: وقد وقع الإجماع على أنّه ما زنت امرأة نبي قطّ.

* وذكر الماورديُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره «النّكت والعيونُ» أنّ في خيانة امرأة نوح، وامرأة لوط أربعة أوجه:

أحدها: أنّهما كانتا كافرتَيْنِ، فصارتا خائنَتَيْنِ بالكُفرِ ـ قاله السُّديّ.

الثاني: منافقتَيْن تظهران الإيمان، وتستران الكفْرَ، وهذه خيانتهما.

قال ابنُ عبّاس: ما بغتِ امرأةُ نبيٍّ قطّ، إنّما كانت خيانتهما في الدِّيْنِ.

الثّالث: أنَّ خيانتهما النّميمة، إذ أوحى الله تعالى إليهما ـ أي: إلى نوح ولوط ـ شيئاً أفشتاه إلى المشركين ـ قاله الضّحاك ـ.

الرّابع: أنّ خيانةَ امرأة نوح أنّها كانت تخبرُ النّاس أنّه مجنونٌ، وإذا آمَنَ أحدٌ بهِ أخبرتِ الجبابرة به.

وخيانةُ امرأة لوط أنّه كان إذا نزل به ضيفٌ دخّنتْ لتُعلم قومها أنَّه قد نزل به ضيفٌ، لما كانوا عليه من إتيان الرِّجال[1].

* ولعلَّ الإمام الرّازيّ ـ رحمه الله ـ لم يخرجْ عن المعنى الذي قصده الماوردي إذ تحدّثا من مشكاةٍ واحدة، وتساءل الرّازي: ما كانت خيانتهما؟!

فقال: نفاقهما وإخفاؤهما الكفر، وتظاهرهما على الرّسولَيْنِ... فامرأة نوحٍ قالت لقومه إنّه لمجنون... وامرأة لوط كانت تدلُّ على نزول ضيف

= وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نَسَبَ لهما فاحشة الزّنى، وهذا لا يجوز مطلقاً، لأنَّ الله سبحانه أكرم أنبياءه ورسله أنْ تتعاطى واحدة منهن الفجور، بل هنَّ شريفات مصونات لحرمة الأنبياء.

فقد أخرج ابن عدي والبيهقيّ في شعب الإيمان وابن عساكر عن الضّحاك في قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: كانتا كافرتين مخالفتين، ولا ينبغي لامرأة تحت نبي أن تفجر.

(١) تفسير الماوردي (٤/ ٢٦٧) وانظر تفسير القرطبيّ (١٨/ ٢٠٢) وتفسير الطبري (٢٨/ ١٦٩ و١٧٠) وفتح القدير (٥/ ٢٥٥) والصاويّ على الجلالين (٤/ ١٩٠).

إبراهيم. . ولا يجوز أن تكون خيانتهما بالفجور[1].

* وفي هلاك هاتين المرأتين عظة وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد. . لقد بيَّنَ القرآنُ الكريم في صراحةٍ تامة، وفي أسلوب حكيم رصين: أنَّه مهما اشتدّتْ أواصرُ القربى بين النَّاس ـ وخاصّة الأنبياء ـ لا يمكن أنْ تغني المرء شيئاً ما دام بعيداً عن الحقّ، بل لا يغني أحدٌ في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرّقَ بينهما الدِّين، فالعذابُ يُدفع بالطّاعة لا بالوسيلة.

* وفي هذا بلاغٌ لمن يغترُّ بآصرةِ القُربى، ويَكِلُ على صلاح غيره كيما يَجِدَّ ويسلكَ الصَّراط السّويّ فيكون مع المهتدين.

وقد نبّه القرآن الكريم بأنّه لا تنفعُ شفاعة نوح لامرأته، ولا شفاعة لوط لامرأته مع قربهما منهما لكفرهما، بل بشّرهما بالنَّار وبئسَ المصير في الآخرة، وقيل لهما ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

* وهكذا طُويت صحيفةُ القوم الظّالمين: وفيهم امرأة نوح. . وبقيت ذرّية نوح. . . قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ الصافات: ٧٧].

* أمّا سيدنا نوح فقد كان يدعو ربَّه عزَّ وجلَّ بهذه الكلماتِ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]. . اللهم اغفر لنا وارحمنا. . وأكرمنا بفضلك. . وألهمنا الصَّواب. . إنّك أنتَ العليم الحكيم.

* * *

(١) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٤٤).

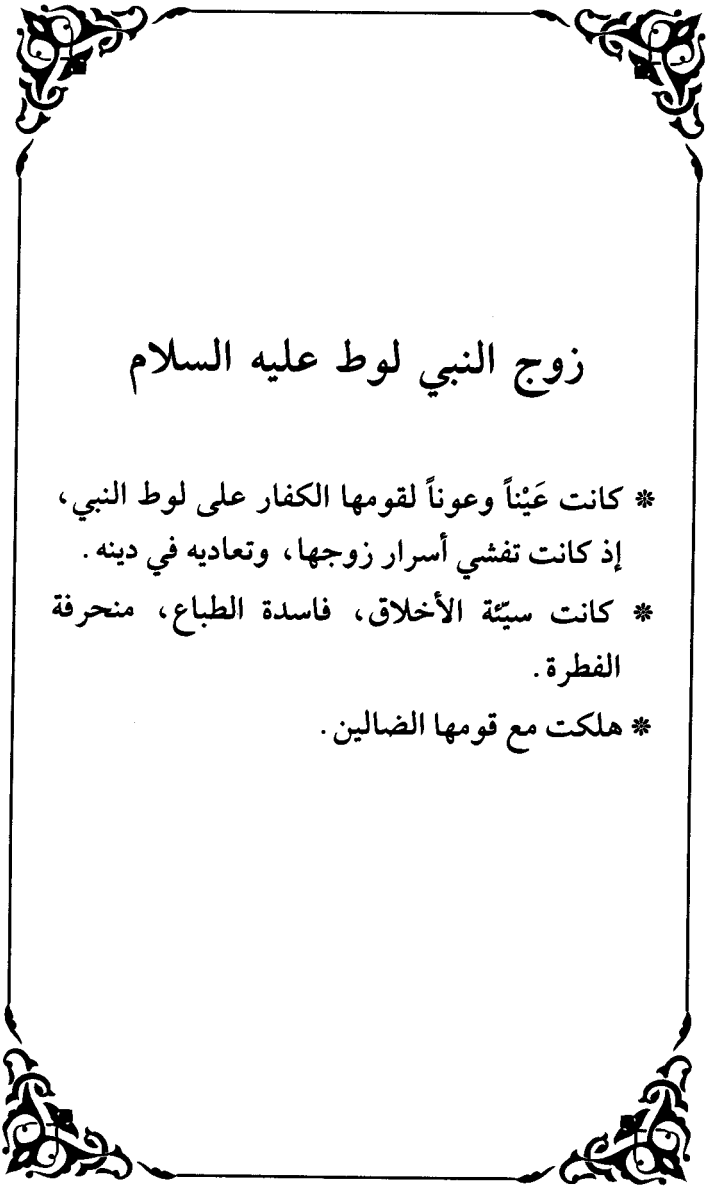

زوج النبي لوط عليه السلام

* كانت عَيْناً وعوناً لقومها الكفار على لوط النبي، إذ كانت تفشي أسرار زوجها، وتعاديه في دينه.
* كانت سيّئة الأخلاق، فاسدة الطباع، منحرفة الفطرة.
* هلكت مع قومها الضالين.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ :

* لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ منْ أنبياء اللهِ الذين أرسلهم إلى أقوالِهم ليخرجوهم منْ ظلماتِ الفاحشة إلى جادّةِ الصّراط السّويِّ ذي الأخلاق الفَاضِلةِ.

* كان لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ معاصراً لسيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وهو ابنُ أخيه ـ كما تشيرُ المصادر إلى ذلك ـ وكان سيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يحب لوطاً حباً شديداً، والآيات في أحوال لوط ـ عليه السَّلام ـ مشهورة، وهو أحد أنبياء الله عزّ وجلّ الذين انتصر لهم بإهلاك مُكَذّبيهم، وقصّته في القرآنِ الكريم في مواضعَ بعددٍ من السُّور[1].

* آمَنَ لوطٌ بعمِّهِ إبراهيم ـ عليهم السَّلام ـ واهتدى بهديهِ، وسار على دَرْبِهِ، كما ذَكَر اللهُ تعالى في القرآنِ: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

* وتشيرُ الرّواياتُ إلى أنَّ لوطاً قد هاجر مع عمِّهِ إبراهيم من العراق، وتبعه في جميع أسفاره.

* نقل الإمامُ النّوويُّ ـ رحمه الله ـ عن وهب بن مُنبّه قال:

خرج لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ منْ أرضِ بابلَ في العراقِ مع عمِّهِ إبراهيم تابعاً له على دِيْنِهِ مهاجراً معه إلى الشَّام... ثم مضوا إلى مصرَ... ثم عادوا إلى الشّامِ، فنزل إبراهيم فلسطينَ، ونزل لوط الأردن[2].

---

(١) ذكر الله سبحانه لوطاً في سبعةٍ وعشرين موضعاً من القرآن الكريم وتوزعت قصّته والإشارة إليه في (١٤ سورة) وهي: الأنعام، الأعراف، هود، الحجر، الأنبياء، الحج، الشعراء، النّمل، العنكبوت، الصّافات، ص، ق، القمر، التّحريم.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٧٣) مختصراً.

* بعد ذلك أرسلَ اللهُ سبحانه لوطاً إلى أهْلِ سَدُوم وما يليها، ولم يكن له في القوم الذين أُرْسِلَ إليهم نَسَبٌ أو قرابةٌ، لأنَّه ليسَ منْ أهلِ تلك النّواحي.

* بدأ لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ ممتثلاً أَمْرَ ربِّهِ، فبلّغ ما أُمِرَ به، ودعا أهل سَدُوم إلى الله عزّ وجل. بَذَرَ لوطٌ بذرةَ التَّوحيد في سَدوم، وعمل على إنباتِها بما أعطاه الله من فَضْل وحكمة.

* مرّتِ الأيامُ والأيامُ، ثم تَلَتْها الأعوام ولم يستجبْ أحدٌ لدعوةِ لوط.. لم يكنْ في بيوتِ قريتهِ بيتٌ مؤمنٌ إلا بيته وأهله...

* لكنَّ فرداً من الأفراد الذين يعيشونَ في بيتِ لوطٍ، لم يستجبْ لِما كان يدعو إليه لوط.. وإنّما استجابَ لرغبة الشّيطان وكان مِنْ حزبه، ومن جنوده المخلصين في الشَّرِّ والإفسادِ.

* ذكَرَ القرآنُ الكريمُ هذا الفَرْدَ وحدَّد هويّته... قال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١]... هذه العجوز هي والهة[1] امرأة لوط ـ عليه السَّلام ـ التي اشترتِ الضّلالة بالهدى فما ربحتْ تجارتها، وما كانت من المهتدين، وحقَّ عليها العذاب من الذين نَزَلَ عليهم وفي ساحتهم العذاب الأليم.

* قال الشّيخ القاسمي[2] ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا

---

(١) انظر: مفحمات الأقران (ص١٩٩) وغرر التّبيان (ص٥١٤) والبداية والنهاية (١/ ١٨١) وتفسير الخازن وبهامشه البغوي (٧/ ١٢٢) والتفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٤٥) وغيرها من المصادر الأخرى.

(٢) «القاسميُّ»: جمال الدين بن محمّد سعيد بن قاسم القاسميّ الحلاّق، إمام الشَّامِ في علوم الدّين، وفنون الأدب.
ولد القاسميُّ بدمشقَ سنة (١٢٨٣هـ) ولما اشتدَّ عوده اشتغل بإلقاء الدّروس في المدن والقرى السّورية. ثم رحل إلى مصرَ، وزار المدينة المنورة، ثم عاد إلى دمشقَ.
عكف القاسميُّ بعد جولته على التّصنيف وإلقاء الدّروس في التّفسير والتّوحيدِ، والحديث والأخلاق، والتّاريخ والأدب وغير ذلك من علوم الشريعة الإسلامية. =

﴿عَجُوزًا﴾: وهي امرأته ـ أي: امرأة لوط ـ و﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: مقدّراً كونها من الباقين في العذاب؛ لأنّها كانت راضية بعمل قومها[1].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾:

* كان قومُ لوطٍ أهل كُفْرٍ وارتكاب فاحشة[2]... ابتدعوا من الفواحش القبيحة مالم يسبقهم بها أحدٌ من العالمين مِمَنْ كفروا وفَسَقُوا وخرجوا عن جادةِ الصّواب.

* لقد كان قومُ لوط في الدَّرْكِ الأسفَلِ من الرَّذائلِ، ولم تعهد البَشَريةُ لهم مثيلاً.. استولى الشّيطانُ على نفوسهم... وزيّن لهم سوء أعمالهم... وأعمى على بصيرتهم، فأضحوا لا يبالون بما يرتكبون من فواحش ومخالفاتِ تأنفُ منها النُّفوس.

* أرسل اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه لوطاً ليدعو أهل سَدْوم[3] إلى اللهِ، وإلى عبادته

= له مؤلفات قيمة في مجالات شتى من أشهرها تفسيره المسمّى «محاسن التّأويل» وقد طُبع هذا التّفسير القيّم عدة مرات، ويمتاز تفسير القاسمي بالجودة، وجَمْعِ الآراء القيمة لأكابر المفسرين والعُلماء وعرضها عرضاً حسناً.
توفي القاسمي سنة (١٣٣٢هـ) بدمشق وعمره (٤٩ سنة) وآثاره العلمية تشهد له وتشيد بفضله ـ رحمه الله ـ (معجم المفسرين ١/ ١٢٧) و(تراجم أعيان دمشق ص١١٨).

(١) انظر: تفسير القاسمي (١٣/ ٣٩).

(٢) «فاحشة»: المعنى المادي؛ الفحش: الزّيادة والكثرة، وتجيءُ من هذا مجاوزة القَدْرِ والحدِّ. فَحَش فُحشاً، وأفحش إفحاشاً، والفحشاء والفاحشة: ما يشتدّ قبحه من الذّنوب، قولاً أو فعلاً، وكثيراً ما يُراد بالفاحشة الزّنى، وجمع فاحشة: فواحش.
وردت كلمة «فاحشة» في ثمانية مواضعَ من القرآن الكريم، في ستِّ سور وهي آل عمران آية (١٣٥) والنساء الآيات (١٩ و٢٢ و٢٥) والأعراف آية (٢٨) والإسراء آية (٣٢) والأحزاب آية (٣٠) والطلاق آية(١).

(٣) «سدوم»: فعول من السّدم، وهو النّدم مع غمٍّ. وسدوم مدينة من مدائن قوم لوط (معجم البلدان ٣/ ٢٠٠) وقد اشتهرت سدوم من بين المدن بالظلم وسوء المعاملة، =

وحده. . تحدّث القرآنُ الكريم عن أساسِ دعوة لوطٍ. . . قال تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٦٢ ـ١٦٣].

* كانتِ الدَّعوةُ إلى التقوى هي المحورُ الأساسيُّ الذي كان لوطٌ ـ عليه السلام ـ يدعوهم إليه.

* تفشّى الكُفْر في قومِ لوطٍ. . . وَوَلَغَ جميعُهم في مستنقعات الرّذيلةِ التي تخالفُ الفطرة.

* في بداية طريق الدعوة إلى الله عزّ وجلّ أعرضَ قومُ لوطٍ عن نبيّهم، وكذّبوه، وكان من زمرتهم امرأته التي سارتْ في ركابهم، ونفختْ في بوقهم، ووافقتهم على أعمالهم الشّنيعة.

* كان لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ يعرفُ هذا. . . لكنّه ظلَّ يدعو قومه إلى الله عسى أنْ يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عن غيّهم وضلالهم.

* لقد كان لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ يعرفُ قومه، ويعرفُ ما أصابَ فطرتهم من انحرافٍ وشذوذٍ عجيبين؛ إذ كانوا يتركون النِّساء ويركنون إلى الرِّجال، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمةِ خَلْقِ الأحياء جميعاً أزواجاً. . . لقد سجّلوا في سجلِّ الجرائم الإنسانية جريمة نكراءَ لم يقترفْها قَبْلَهم أحدٌ من العَالمينَ.

* تحدّث صاحبُ البدايةِ والنّهاية عن قومِ لوطٍ فقال:

ابتدعوا فاحشةً لم يسبقْهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيان الذّكران من العَالمين، وترك مما خلق الله من النّسوان لعباده الصّالحين؛ فدعاهم لوط إلى عبادة اللهِ تعالى وحده لا شريكَ له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرَّمات والفواحش والمنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورِهم وكفرانهم، فأحلَّ اللهُ بهم مِنَ البأسِ الذي

= وسلب الغرباء، وتدليس القضاء؛ وفي قضائها يقول أبو العلاء المعري:

وأي امرىء في النّاس ألفى قاضياً ... ولم يمضِ أحكاماً كحكم سَدُوم

لا يُردّ، ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، جعلهم مثلةً في العالمين، وعبرة يتّعظُ بها الألباءُ من العَالَمين[1].

مِنْ صِفـاتِ قَـوْمِ لُـوطٍ:

* أجمع المفسِّرون وأهلُ الأخبار أنَّ قومَ لوطٍ كانوا لا يستقبحونَ قبيحاً، ولا يستترون من منكر، قد فَسَدت أخلاقُهم، وقَسَتْ قلوبُهم، وانحرفتْ طبائعهم، وتلوَّثَتْ أخلاقُهم[2].

* كانوا ـ بالإضافة إلى كفرهم وفسقهم ـ يقطعون الطَّريق، ويخونون الرَّفيق، ويأتون في ناديهم[3] المنكر من الأقوال والأفعالِ على اختلاف الأصناف، حتى قيل: إنَّهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحون من مجالسيهم، وربَّما وقع منهم الفعْلَة العظيمة في المحافلِ ولا يستنكفونَ، ولا يرعوون لوعْظِ واعظٍ، ولا كلمة من عاقل.

* وصفهم الحافظُ ابنُ كثير[4] ـ رحمه الله ـ بقوله: كانوا في ذلك وغيرِهِ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٧٦).

(٢) قال الشّاعر في هذا المجال:

وإذا أُصيبَ القومُ في أخلاقهم ... فأقمْ عليهم مَأتماً وعويلا

(٣) «ناديهم»: مجتمعهم ومحلّ حديثهم وسمرهم.

(٤) ابنُ كثير: إسماعيل بنُ كثير بن ضوء القرشيّ البصرويّ الدمشقيّ الشّافعيّ، فقيهٌ متفننٌ، ومحدّثٌ متقنٌ، ومفسّر نقّال، ومؤرخٌ ثقة؛ مولده سنة (٧٠١هـ) أقبل على علمِ الحديث، وحفْظِ المتون، و معرفة الأسانيد والعلل والرّجال والتأريخ حتى بَرَعَ في ذلك وهو شابّ، وشدّ الرجال إليه الرّحالَ مِنْ كلِّ مكان.
قال تلميذُه شهاب الدّين بن حجي عن ابن كثير: كان أحْفَظ مَنْ أدركناه لمتونِ الأحاديث، وأعرفهم بجرحها، ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك. تتلمذ ابن كثير على أكابر علماء عصره ومن أشهرهم: ابن تيمية، والمِزّيّ، وابن عساكر وغيرهم.
قال عنه العينيُّ: كان قدوة العُلماء والحفّاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وكان له اطلاعٌ عظيم في الحديث والتّفسير والتّاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير، وله مصنفاتٌ عديدة مفيدة، صنف كتاب =

كالأنْعَام بل أضلُّ سبيلاً، ولم يقلعوا عمّا كانوا عليه في الحاضرِ، ولا ندموا على ما سَلفَ منَ الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً.

* وذكر الله عزَّ وجلَّ إتيانهم الفاحشة علانية فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩][1].

* دعاهم لوط ـ عليه السَّلام ـ إلى عبادةِ الله، ونهاهم عن تعاطي الفَواحش، وإتيان الذّكور وقطْع السَّبيل[2]... ولكنَّ المفاجأةَ كانت كبيرة... لم يستجيبوا لدعوة الحقِّ، ولم يؤمنوا بدعوةِ لوطٍ، بل لم يؤمن منهم رَجُلٌ واحد[3].. ولم يتركوا ما نُهوا عنه.. بلِ استمروا على حالهم،

= «البداية والنهاية» في التاريخ وله التّفسير المشهور باسمه، وهو أجود كُتُب التّفسير المأثور بعد تفسير إمام المفسرين الطبري، وقد حرص ابن كثير أن يفسر القرآن بالقرآن أولاً، ثم بالسنة الصحيحة، ثم أقوال السّلف، وتفسيره ذو نفع جليل لمعارفه الواسعة.
توفي ابن كثير في شعبان سنة (٧٧٤هـ) وعمره(٧٣ سنة) ودفن بمقبرة الصّوفية خارج باب النّصر من دمشق عند شيخه ابن تيمية، رحمه الله رحمة واسعة.
(طبقات المفسرين للدّاووي) و(الدّارس في أخبار المدارس للنّعيمي).

(١) أخرج الإمام الطّبريّ ـ رحمه الله ـ في التّفسير عن أمّ هانىء رضي الله عنها قالت: سألتُ النّبيَّ ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يجلسون بالطّريق فيحذفون أبناء السَّبيل، ويسخرون منهم» (تفسير الطبري ٢٠/ ١٤٥ و١٤٦).
وقال بعضُهم: بل كان ذلك إتيانهم الفاحشة في مجالسهم. وقيل: كان يجامع بعضهم بعضاً في المجالس، وكانوا يعترضون للراكب والمسافر ويحذفونه ويسخرون منه، وقيل: كانوا يلعبون بالنرد والشطرنج.

(٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] قال ابن زيد: السّبيل: طريق المسافر إذا مرَّ بهم، وهو ابن السّبيل، قطعوا به، وعلموا به ذلك العمل الخبيث. (تاريخ الطبري ١/ ١٧٥).

(٣) عانى لوط ـ عليه السَّلام ـ كثيراً من البلاء من القوم الفاسقين الكافرين الذين خرجوا على أمر الله تعالى وسنته في الحياة، وبذل جهداً عظيماً وهو يدعوهم إلى الهدى، =

وغرقوا في غيّهم وضلالهم. . . وأصرّوا وامتنعوا عن قَبُول أيِّ كلام. . . وتابعوا المسير في طريق المعاصي. . وأعرضوا عن لوطٍ وعن دعوته، وغابوا في غياهب الظُّلمات والجهل.

* ومرَّتِ السُّنون ولوط يدعو قومه إلى الهداية، وتأبى قلوبهم ذلك، إنَّهم كانوا قوم سوء فاسقين، أخذت أصابع الاتهام تتجه نحو لوط. . بدأت كوامن الشَّرِّ تقدح الشّررِ من نفوس الكافرين. . . قالوا له وهم يستهزئون: أبشَرٌ منّا واحداً نتّبعه إنّا إذاً لفي ضَلالٍ وسُعُرٍ. . قالوا له: أنت كذّاب أَشِر. . رَمَوْهُ بكلِ قبيح، أعرضوا عنه وهم يسخرون وقالوا: يا لوط. . . قلوبُنا في أكنَّةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْرٌ.

* كان لوطٌ يقول لهم بأنّهم يتمتّعُون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ، والنَّارُ مثوى لهم. . . فما كان يزيدهم ذلك إلا كفوراً وفجوراً وفحشاً.

* بدأَ القومُ الفاسقون بذمِّ لوط، وذمِّ دعوته، وذمِّ أهله الذين آمنوا معه خَلاَ امرأته التي واتتهم على ضلالهم وإضلالهم. . . بدأ ملأُ الفجّار يفكّرون في طَرْدِ لوطٍ وآله. . ولكنْ ما الحجةُ التي يستطيعون من خلالها طَرْدَ لوط وآله؟!.

﴿ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾:

بعد أنْ دعا لوط قومه إلى بثْرِ الفواحش، وإلى تَرْكِ الكفْرِ، بدأ همُّهم الوحيد إخراج لوط من ديارهم وبلدهم، لأنَّه أنكر عليهم الفاحشة الشّاذة التي كانوا يقترفونها عن إجماعٍ لم يُسبق له مثيلٌ، ويأتونها على اتفاقٍ وتعارف. . يأتونها علانية. . يأتونها في أي مكان. . . فاحشة الشُّذوذ الجنسيّ بإتيان

= وينهاهم عن اقتراف الكبائر والحرام، وكان عالماً حكيماً، يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل قومه بالتي هي أحسن.
قال المسعوديُّ ـ رحمه الله ـ: أقام فيهم لوط بضعاً وعشرين سنة يدعوهم إلى الله فلم يؤمنوا. (مروج الذهب ١/ ٤٦).

الرِّجالِ[1]، وتَرْكِ النِّساء، على غير الفطْرِة التي فَطَرَ اللهُ النّاسَ عليها.. بل عامّة الأحياء.

* وَاجَه لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ قومه بالحقيقة المخزيةِ التي كانوا يفتخرون بها، ويسرفون في تجاوز المعاصي، ويستهزئون بالأخلاق وكلّ ما لَهُ علاقة بالقِيَم والآداب الاجتماعية...

قال لهم لوطٌ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥].

* عجبَ لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ من انحرافاتهم النّفسية[2]، ومن إتيانهم هذه الفاحشة المنكرة، وهم يَرَوْنَ الحياة في جميع أُطُرها تجري على نَسَقِ الفطرةِ

---

(١) إن تحريم اللواط لأسباب كثيرة منها:
ـ الضرر الواقع بالمفعول به، فإنه يُحْدِث مرضاً ثبت علمياً أنه مميت، وهو المسمّى بـ «الإيدز» أي نقص المناعة.
ـ إفساد خُلُق اللائط وإسرافه في الشهوة.
ـ إلحاق العار بكل من الفاعل والمفعول به، واستحكام العداوة بينهما.
ـ إفساد النساء بالإعراض عنهن إلى الرجال.
ـ إقلال النسل لما في الفاحشة من رغبة عن الزواج لها كان عذاب القوم هو الاستئصال في الدنيا، ثم إنّ عذاب الله أشدّ وأبقى.

(٢) الانحرافاتُ النفسيةُ: هي حالاتٌ تنحرفُ فيها النّفس عن الطّريق السَّويّ السَّليم، وبيئة مهيأة لانتشار الأمراض النّفسية والاجتماعيّة بين أفراد المجتمع.
تنجمُ هذه الانحرافات عن ضَعْفِ الإيمان بالله ربِّ العالَمين، وضلال العقل، وموت النّفس والضّمير، والانحرافات هذه أشدّ فتكاً بالمجتمع من الوباء والطّاعون.
ليس لهذه الانحرافات أدويةٌ ماديّةٌ لعلاجها ـ كما يزعمُ بعض المتطببين ـ وإنّما الدّواء والعلاج: الإيمان بالله تعالى، والعودة إلى الإيمان به، وإحياء الضّمير، وإزالة مسببات هذه الانحرافات.
ولما كان قوم لوط يتعاطون هذه الانحرافات، ولا يخضعون لقانون الإيمان، وميزان الشّريعة، كانت نهايتهم أن محاهم الله من هذه الأرض ومحا آثارهم وطهر الأرض من رجسهم.

الإلهيّةِ التي لا تبديل لها، ولكنّهم وحدهم ـ نعم وحدهم ـ الشّواذ في وسْطِ الحياة والأحياء، والشُّذّاذ في الأرض... وقد وصفهم لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ بالجهلِ الذي يحمل معاني السَّفَهِ والحمْقِ وفقدان العِلْم وتجاوزِ الفطرة....

* كان لوطٌ يحرِصُ على هدى قومه ليخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور، أراد أنْ يرفعَهم من مهاوي الجَسَدِ إلى رفرفات الرُّوح.. أرسله الله إليهم ليرشدهم إلى الخير ويدلهم على الخلاصِ... بيد أنَّ الكافرينَ أعرضوا عن هذا كُلّهِ، وعمُوا وصمّوا عَنِ الحقيقةِ، وزادوا في إسرافهم في اقترافِ المعاصي، ثم أجمعوا على جَوَابٍ واحدٍ يختصرون فيه أمورهم، فماذا كان جوابهم على استنكار لوط لانحرافهم؟.

* كان جوابهم أنْ همّوا بإخراج لوطٍ وآله ـ إلا امرأته ـ التي كانت تزوِّدُهم بزادِ الشَّرّ والفَسَادِ؛ وإنَّ الحجةَ التي زعموها، أنَّ لوطاً وآله أناسٌ يتطهّرون، قال تعالى: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ[1] يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

* إنَّ قولهم هذا ﴿أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قد يكون تهكماً بالتّطهر من هذا الرّجس القَذِر النّتِن، وقد يكون ضيقاً بالطُّهر والتَّطَهُّرِ إذ كان يكلّفهم الإقلاع عن الشّذوذِ.

* انظرْ إلى هذهِ الشَّهادة ـ شهادة الطّهر والطّهارة ـ من القومِ الكافرين!!.. هل رأيتم أو سمعتم أنَّ الطَّهارة يُعيَّرُ بها؟ إنَّ هذا لشيءٌ عجيب؟! لا، بل هل سمعتم أنَّ الافتخار في الفواحشِ يُعدُّ مِنَ المحاسنِ؟!!.

* واعجباً، إذا لعبَتِ الأهواءُ الهوجاءُ بالنّفوسِ، وتقاذفتها أيادي

---

(١) أناس؛ الأناس: الجماعة من النّاس.
وقد وردت لفظة «أناس» خمس مرات في القرآن الكريم في أربع سور: في البقرة آية (٦٠ و٨٢) والأعراف آية (١٦٠) والإسراء آية (٧١) والنّمل آية (٥٦).

الشَّياطين في كلِّ مكان، ومِنْ جميع الجهات. . .

* إنَّ النّفوسَ التي تنبتُ على الأوبئةِ لا تستطيع أنْ تحيا في البيئةِ الطَّاهرة النّقية السَّليمة. . .

* إنَّ مخالفةِ الفطرةِ تجعل النّفوسَ تسيرُ في أوديةِ الانحرافات التي تؤدي إلى الدَّمارِ، وتقود إلى الهلاك والبوار.

* نحسبُ أنَّ امرأةَ لوطٍ كانت تشيرُ على قومها بأنْ يُعيّروا زوجها بالطَّهارة، فهيَ ترى مِنْ أحواله ما لا يَرَوْن، وتعرفُ عنه أكثر مما يعرفون، وكانت عيناً لهم على لوط توافقهم على الانحراف والشُّذوذ، وتسعى إلى تنميةِ هذه الانحرافات التي جعلتهم مثلاً في الأولين والآخرِين. . . . فماذا فعلتِ امرأة لوط بعد؟!!!.

امـرَأَةُ لُـوطٍ وضُـيُوفُـه:

الضّيافةُ مِنْ مَكارمِ الأخْلاق، ومنْ معالي المكارم، ومن آدابِ الإسلام، ومن خُلُقِ النّبيين والصَّالحين.

هذا وقد كان لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ كريماً يحسنُ إلى الضّيوف، ولا عجب في هذا، فقد اقتدى بهذه المكرمة بعمِّهِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ الذي اشتهر بالكرم والإحسان إلى الأضياف متى حلُّوا، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ أوّل مَنْ أضاف.

* من خلال الأحداثِ يبدو أنَّ الضّيوفَ الغُرباء الذي يَفِدُونَ على سَدُوم، كانوا ينزلونَ عند لوط ـ عليه السَّلام ـ وعندما تشعرُ امرأة لوط بأنَّ أحداً قد طَرقَ بابَهم، تهرعُ إلى قومها وتخبرهم بمَنْ عند لوط، فيسارعُ هؤلاء ليفسدوا أبْشَع أنواع الفَسادِ الذي تأنفُ مِنْ فعله أحطّ الحيوانات، وليعتدوا على الأضياف بالفَتْكِ في شرفهم وأعراضهم، وبهذا كانت امرأةُ لوطٍ تهيّىء لقومها سُبُلَ الفاحشةِ، وتساعدهم على ارتكاب الجريمة البشعة جريمة اللواط.

* كانت امرأة لوط تعرفُ أنَّ قومَها قد غمرهم الفساد، وغرقوا في لججِ الكفر والطُّغيان، وكانت تدرك تماماً أنَّ قومها ليس لهم منْ أربٍ في

النِّساء[1]، لذلك كانت عَيْناً وَعَوْناً لهم على زوجها، فكانت تدلُّ قومه على أضيافه بطريقةٍ لئيمةٍ؛ وذلك كان إذا نزلَ ضيفٌ عنده بالليل، أوقدت النار إذا لم تستطع إخبارهم، وإما إذا نزل ضيفٌ بالنَّهار، ولم تستطع الخروج لتخبرهم بالضّيف لجأت إلى حيلةٍ خبيثةٍ، ودخّنتْ ليعلم قومه أنَّه نزل به ضيفٌ إذا رأوا الدُّخَان، فيأتي منهم فَوْجٌ ممن يعملون السّوء، لينزلوا سخريتهم وخبثهم على كلِّ غريب يقدمُ قريتهم.

* ولم تكتفِ امرأةُ لوطٍ بكفرِها، وخيانَةِ دِيْنِ الله الذي يدعو إليه زوجها، وإنَّما كانتْ تدلُّ على لوطٍ، وتغري به أكابر المجرمين ليكذّبُوه ويصدّوه عن سبيلِ اللهِ، وزادت منْ حَجْمِ جريمتها أنَّها كانت تفشي سرَّهُ وتعاديه في دِيْنِهِ، وتبطنُ النّفاق، ثم تظاهر على لوط ـ عليه السَّلام ـ لذلك لم يُغْنِ لوطٌ عنها على الرَّغم مما بينها وبينه من وَصْلَةِ الزَّواج، وحُكِمَ عليها في محكمة العَدْلِ الإلهية بالنَّار، ومنْ قبلها امرأة نوحٍ، وقد ذكرهما اللهُ بقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

* قال الإمامُ أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء ـ رحمه الله ـ:

لم ينفع امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ إيمانُ زوجيهما، ولم يضرّ زوجيهما نفاقُهما[2].

* إذن... فالعذابُ يُدفَعُ بالطَّاعات لا بالوسيلة والاعتماد على صَلاحِ الآخرين، فكلّ نفس بما كسبتْ رهينة....

* وبهذا كانت امرأة لوط مَثَل المرأةِ السّوءِ في تصرفاتها وخيانتها لدِيْنِ الله

---

(١) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: إنّما حقَّ القول على قوم لوط حين استغنى النّساء بالنّساء والرّجال بالرّجال... (مختصر تاريخ دمشق ٢١/ ٢٤٠).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (٣/ ١٦٩).

مما أودى بها إلى نَارِ جهنم وبئس المصير[1].

﴿ رَبِّ ٱنصُرۡنِي ﴾:

* لقد طهر اللهُ سبحانه لوطاً وأهله، إلاّ امرأته التي ظلّتْ مع قومها على كفرهم... وظلّوا جميعاً يقفون موقفَ العناد، بل تحدّوه وكذّبوه وطلبوا منه وقوع ما حذّرهم به من العذاب الأليم، وحلول البأْسِ العظيم، و قالوا فيما قالوا له: ﴿ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

* امتلأتْ نفسُ لوط ـ عليه السَّلام ـ بالشَّجنِ، وأحسَّ أنَّ الأسى يمزّقه.. إنّه لم يشهد في البلاد مثل هذا الفساد الذي يَغْرَقُ فيه هؤلاء الكفرة الفجرة.

* إنَّه لم يرَ الرِّجال يأتونَ الرِّجال على أَعْيُنِ النّاس إلا في سَدُوم... كان لوط يتألم... كان يعلم أنّهم قومٌ مفسدون... لكنّه ما كان يحسبُ أنَّ الفساد قد استشرى فيهم إلى هذا الحدِّ.. إلى حدِّ أنّهم لا يخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً.

* رأى ألواناً منَ الظُّلْمِ، وأشكالاً منَ الفَسَاد... رأى السّادات يسومون العبيد سُوءَ العَذاب... رأى الشَّهوات الدّنيئة تُرْتَكَبُ في كلِّ مكان... شاهد أهل سَدوم يقطعون السَّبيلَ، ويسلبونَ الأموال... لم تعرفِ الرّحمةُ إلى قلوبهم سبيلاً... أولئك هم شرُّ البريّة.. كانوا لا يفرّقُون بين الخبيث والطّيّب.

* وعندما رأى لوط ـ عليه السَّلام ـ أنّ دعوة الحقِّ لم تجدْ إلى نفوسهم

---

(١) قال الإمام الرّازيّ ـ رحمه الله ـ: وأمّا ضرب المثل بامرأةِ نوحٍ المسمّاة بواعلة، وامرأة لوطٍ المسماة بواهلة، فمشتملٌ على فوائد متعدّدة لا يعرفها بتمامها إلا الله تعالى؛ منها: التّنبيه للرّجال والنّساء على الثّواب العظيم، والعذاب الأليم، ومنها: العلم بأنَّ صلاحَ الغير لا ينفع المفسد وفساد الغير لا يضرّ المصلح، ومنها أنّ الرّجل وإنْ كانَ في غاية الصّلاح فلا يأمنِ المرأة، ولا يأمن نفسه، كالصّادر من امرأتي نوحٍ ولوط. (التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ٤٥).

سبيلاً، وأنّ نداءَ الإيمان لم يلامسْ أفئدتهم المتحجرة التي رَان عليها ما كانوا يكسبون من الضّلالِ.

عند ذلك توجّه وسألَ الله ربَّ العالمين، وإله المرسلين، أنْ ينصرَهُ على القوم المفسدين، ونادى مستغيثاً ربّ كلِّ شيء: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

* واستجاب اللهُ سبحانه دعوته، وأجابه إلى طلْبَتِهِ، واقترب الوعدُ الإلهيُّ الحقّ، وبعثَ رسُلَهُ الذينَ لا يعصونَ ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

* بعثَ ثلّة منَ الملائكةِ الكرام لإهلاك القوم المفسدين جميعهم، ومعهم امرأة لوطٍ.

* وسنشهدُ بداية نهاية القوم الظَّالمين، وكيف حقَّ عليهم القول، وسنعرفُ تفاصيل الحكم الإلهيِّ العادلِ الذي نفّذته ثلّة من الملائكة بأَمْرِ الله سبحانه وتعالى... فكان يوماً عصيباً عسيراً على الكافرين غير يسير... فإلى المشهد الإلهيِّ نراقب أحداثه.

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾:

* قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧][1].

* كانَ الملائكةُ الكرامُ ـ وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل[2] ـ قد جاؤوا

---

(١) امرأتي نوح ولوط.... (التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ٤٥). «سيىء بهم»: نالته المساءة لمجيئهم خوفاً عليهم. «ضاق بهم ذرعاً»: ضعفتْ طاقته عن تدبير خلاصهم. «يوم عصيب»: شديد شرّه وبلاؤه.

(٢) للإمام أبي بكر الرّازيّ ـ رحمه الله ـ معنىً دقيقٌ لهذه الآية في تفسيره حيثُ عالجها بفنه وفهمه وتساءل فقال:
فإنْ قيل: كيف قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعنونَ مدينة قوم لوط ـ عليه السَّلام ـ ولم يقولوا: تلك القرية، مع أنَّ مدينة قوم لوطٍ كانت بعيدة عن موضع إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ غائبة عنه وقت هذا الخطاب؟. =

إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وبشّروه وزوجه بغلامٍ عليمٍ، ثمَّ أخبروه أنّهم في مهمّةٍ ربانيّة من عند مليكٍ مقتدر كيما يهلكوا أهل قرية سدوم الذين ظلموا أنفسهم، واستشرى خطرهم في الأرضِ وقالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١].

* ولكنّ سيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أَخَذَ يجادلُ في قومِ لوط، فقد كان يرجو أنْ ينيبوا إلى ربِّهم ويسلموا له، ويقلعوا عن معاصيهم ومخازيهم، ويرجعوا إلى رشدهم، إن إبراهيمَ لحليمٌ أوّاهٌ مُنيبٌ.

قالتِ الملائكةُ لإبراهيم: إنّا مهلكو أهل هذه القرية، إنَّ أهلَها كانوا ظالمين.

قال إبراهيمُ: أرأيتم إنْ كان فيهم خمسون مِنَ المُسلمين؟

قالوا: وإن كان فيهم خمسون لن نعذبَهم.

وفي رأفةِ الحليم قال إبراهيمُ: وأربعون؟

قالوا: وأربعون.

قال إبراهيمُ: وإذا كان فيهم ثلاثون؟!.

قالوا: وإنْ كان فيهم ثلاثون فلن نعذّبهم.

فقال إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ: وإذا وُجِدَ فيهم عشرون مسلماً؟!.

قالتِ الملائكةُ: وعشرون يا إبراهيم.. لن نعذبَهم.

قال: وعشرةٌ من المسلمين؟!!.

= قُلنا: إنّما قالوا: هذه القرية لأنّها كانت قريبة حاضرة بالنّسبة إليهم، وإنْ كانت بعيدة بالنسبة إلى إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.
فإنْ قيل: كيف قالوا: ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ولم يقولوا: أهل هذه القرى، مع أنَّ مدائن قوم لوط كانت خمساً فأهلكوا منها أربعاً؟. قلنا: إنّما اقتصروا في الذّكْرِ على قريةٍ واحدة لأنّها كانت أكبر وأقرب، وهي سدوم مدينة لوط، فجعلوا ما وراءها تبعاً لها في الذّكْر.

قالوا: وإن كانوا عشرة لن يُهلكوا.

* لحظ إذ قال إبراهيمُ: ما مِنْ قوم لا يكون فيهم عشرة من المسلمين ليس فيهم خير!.

* وراح رسل اللهِ يؤكّدونَ لخليلِ الرَّحمن أنَّ قومَ لوطِ ليس فيهم عشرة من المؤمنين.

* أكّدَ رسل الله أنَّ قوم لوط قد نَخَرَ فيهم سُوسُ الفَسَاد، وهم يعيشون في سِرَطانِ الخبائث، ويَسْبَحُونَ في أمواج الشّهوات المنحرفةِ التي تخالفُ قوانين الحياة.

* بَيْدَ أنَّ الأَمْرَ الإلهيَّ جاءَ حكيماً، وجاء في صيغة الأَمْرِ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦].

* لاحظْ أنَّ الأَمْرَ الإلهيَّ لسيّدنا إبراهيم يقول: يا إبراهيم أعرضْ عن هذا وتكلَّمْ في غيره، فإنّه قد خُتِمَ أمرهم، ووجبَ عذابهم وتدميرهم وهلاكهم، من عند ربِّ العالمين، ربّ كلّ شيء، مَنْ لا يُرَدُّ أمْرهُ، ولا يُردُّ بأسه، ولا معقِّبَ لحكمه.

* أَسْلَمَ إبراهيمُ أَمْرَهُ لربِّ العالمين، فَلَهُ الحكْمُ، وله غيبُ السَّموات والأرض، وإليه يرجعُ الأَمْر كلّه.

عرفَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أنَّ اللهَ سينجي لوطاً وأهله إلا امرأته... إنّه مصيبها ما أصابهم منَ العذاب؛ لأنّها تلقت دعوة الحقِّ، فعمتْ وصمّت، وعتتْ عن أَمْرِ ربّها، شأنها في ذلك كسابقتها امرأة نوح.

* خرج الملائكةُ من عند إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وهم قاصدون أرضَ سدُوم، وأقبلوا في صور شبّانٍ حِسَان، ولما بلغوا قرية لوط كان يعمل في أرضٍ له، فاستضافوا لوطاً، كان الوقتُ بُعَيد العصر، وخشي لوط ـ عليه السَّلام ـ إنْ لم يضيفهم أنْ يضيفهم غيره، وحسبهم بَشَراً من النَّاسِ، ولفَتَ نظره جمالهم الباهر... ودار في خلده أنَّ يومه هذا شديدٌ بلاؤه لما يعْلَم مَنْ

مدافعته عنهم هذه الليلة، وخاف منْ عاقبة الأمْرِ فهو يعرف نذالة قومه وفسقهم، واستحيا لوطٌ مِنْ ضيوفه، وانطلق أمامهم، وجعل يعرّض في الكلامِ، لعلّهم ينصرفون عن هذه القرية ـ الظَّالم أهلها ـ وينزلون في غيرها.

* كان التّأثّرُ بادياً على وجهِهِ: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧][1].

ثم جَعَل يقول لهم: يا هؤلاء ما أعلمُ على وجْهِ الأرضِ أهلَ بَلَد: أخبث مِنْ هؤلاء . . . ثم مشى قليلاً، وأعاد عليهم ذلك أربع مرات.

* قال قَتَادةُ ـ رحمه الله ـ: وكانوا قد أُمِرُوا ألاّ يهلكوهم حتى يشهدَ عليهم نبيُّهم بذلكَ.

* كانَ لوطٌ يمشي معهم، وهو خائفٌ يترقّبُ. . كان يمشي بضيوفه وهو يتلفَّتُ. . . سأله الضُّيوف عمّا يريبه. . .

أجاب: أشهدُ بالله أنّ أهل هذه القرية شرّ قريةٍ في الأرض عَمَلاً. . . أشهدُ أنّهم أهل سوءٍ وفسادٍ وخُبْثٍ.

* تابع لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ وضيوفه سيرهم نحو القرية التي تعمل الخبائث، وظلّ الحديث يتردَّدُ في نَفْسِ لوط. . . ماذا لو رآهم أهل قرية سدوم؟ وماذا سيكون؟! وكيف يدافع عنهم ويحميهم وهو وحيدٌ؟!!.

* بلغَ لوطٌ وضيوفه بيته، وفي منزلهِ هبط الضّيوف، نزل هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بحُسْنِ الوجوه، وجمال الأشكال، لم يكن هناك في القرية مَنْ يعلمُ بقدوم هؤلاء غير لوط وامرأته بالإضافة إلى ابنتيه[2]. . . . لم يشعر بالضّيوفِ أحدٌ منْ أهل القرية. . شكر لوطٌ ربّه وحمده على ذلك.

* رأت امراةُ لوطٍ هؤلاء الضّيوف. جُنَّ جُنونها. ماذا تفعل لتخبر قومها؟!

---

(١) عن قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٢١٢) والكامل لابن الأثير (١/ ١٢٠) بشيء من الاختصار والتصرف.

(٢) أورد ابن كثير والسيوطي ـ رحمهما الله ـ أن اسميهما: ريثا ورغوثا.

إنّه صيدٌ ثمينٌ، وستكون منزلتها عندهم كبيرة. . . يا لها منْ سَعَادة!

* بسرعةِ الرِّياح انتشرَ الخبرُ في القرية كانتشار النَّار في الهشيم، أشعلت امرأة لوطٍ ناراً ليعلم أهل القرية بخبر الأضياف، ثم تسلّلت وانسلّت إلى قومها في ناديهم لتخبرَ مَنْ لم يَرَوْا نارها التي أشعلتها، قالت لفوجٍ منهم: إنّي رأيتُ رجالاً لمْ أرَ أَحْسنَ منهم وجوهاً وهم عند لوط الآن. . . وإنَّ بناته هناك يعدون الطّعام لهم، فهلمّوا قبل فوات الأوان. . ثم انتقلتْ إلى آخرينَ وقالت لهم: إنَّ لوطاً قد أضافَ الليلة فتيةً ما رؤيَ مثلهم جمالاً، ولاأطيب رائحة، فأسرِعُوا قبل أنْ يرتحلوا. . .

* وكالجرادِ المنتشرِ جاء قومه يُهرعون إليه، وسعار الفاحشة يقودهم ويستحثّهم. . . جاؤوا يركبهم شيطانُ الفجور، ويركبون شيطانَ الفسوق والعصيان.

* وقفَ القومُ وهم يلهثونَ على باب لوط. . . عرف لوطٌ ما يريد هؤلاء الفجّار الذين يركبون قطار الرّذيلة. . . وبوقاحةٍ شديدة قال القومُ الفاسقون: يا لوط أَوَلَمْ نَنْهكَ عنِ استقبالِ الضّيوف؟! ألا تعلمُ ما نريد؟!.

* وبهدوءِ النّبيِّ وسماحته قال لهم لوطٌ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. . . أراد لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ أنْ يوقظَ إحساسهم الذي تلاشى من عشرات السِّنين، أرادَ أنْ يذكّرَهُم بالنّظرةِ السَّليمةِ السَّويةِ، أرشدهم إلى غشيان نسائهم، فالنّساء أطهر، وهن حرثٌ للرجالِ.

* قال لهم لوط: تزوجوا ولا تقربوا الفواحشَ. . . وبهذا دعاهم إلى الخير من جميع وجوهه وأطرافه. . ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ بَيَّنَ لهم مَكْمَنَ الطُّهْرِ والعفّةِ. . . ثمَّ قال يعظُهُم بكلامٍ فيه الرَّأفة، وفيه الخيرُ، وفيه تحريكٌ لمشاعرهم التي رقدت في سباتٍ لن تستيقظَ بعده. . . . أراد أنْ يثيرَ فيهم جانب التّقوى، ذكّرهم باللهِ وناشدهم فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [هود: ٧٨].

* بعد إذ لجأ لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ إلى الأعرافِ الاجتماعية، حاول أنْ يستنهض حميّة هؤلاء الفَسَقةِ المتحلقين حول بيته. . . أرادَ أَنْ تمضيَ الليلةُ بسلام. . . ألاّ يحرجوه أمام ضيوفهِ وألا يخزوه. فمن واجبِ الضّيف أنْ

يُحْسَنَ إليه، وأنْ تُكرمَ وفادتُه... قال لهم لوطٌ: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ [هود: ٧٨].

* سَادتْ لحظاتٌ من الصَّمتِ، لم يجبْه أحدٌ خلالها بحرفٍ... برزت الغوغاءُ ثانيةً، عقّبَ قائلاً بعد أنْ شاهدَ إفلاسهم من كلِّ نقطةِ خيرٍ، أو مسحة ضمير، فقال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟ [هود: ٧٨].

* نعم نهاهم عن تعاطي ما لا يليق منَ الفاحشة، شهد عليهم بأنّه ليس فيهم رجلٌ له كرامة ولا فيه خير، بل جميعهم سُفَهاء، فجرة أقوياء، كفرة أغبياء، اتخذوا الحماقة مركباً، والفاحشة لجّةً فغرقوا في بحار الرَّذيلةِ...

* وبعد هذا، ماذا كان جواب قومه؟! ماذا أجابوا نبيَّهم بعدما أمرهم به منَ الأمْرِ السَّديد الرّشيد؟! هل رَعَوْا حالته حقَّ رعايتها؟! هل لامست كلماته الرَّبانية قلوبهم وحرّكت مشاعرهم؟ يبدو أنّهم استغْلَقُوا عن هذا كلِّهِ... وأصرُّوا على ارتكاب الفاحشة... خَتَمَ اللهُ على سمعهم وعلى قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة... نطقوا جميعاً بأنّهم مصرّون على ما يقولون... مصرّون على رذيلتهم التي وصمتهم بالعار، فأوصلتهم إلى الدَّرك الأسفل من النَّار.

* أصرَّ قومُ لوط واستكبروا استكباراً... فقدوا كلَّ ذرّةٍ من الرّشد... صرّحوا له بما يريدون في وقاحة عجيبة... لم يخجلوا من وقاحتهم.. لم تتسربْ إلى نفوسهم ذرّةٌ واحدةٌ من الحياء فتصدّهم عمّا يريدونَ منَ الموبقات ومنَ الرَّذيلة... ولكنْ لا حياة لمن تنادي.. أجابوه بما قصَّ الله عزَّ وجلَّ من خبرهم: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] الله أكبر... واجهوا رسولهم بهذا الكلام القبيح السَّقيم، ولم يخافوا سطوةَ الجبَّارِ العظيمِ، ذي العذاب الأليم، والبطش الشَّديد[1].

---

(١) جعل الإسلامُ أليمَ العقاب على مَنْ سَلَكَ سلوكَ قومِ لوط، فقد أخرج التّرمذيُّ ـ رحمه الله ـ بسنده عن عكرمة عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وجدتموه يعملُ عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به». (تحفةُ الأحوذيّ ٥/ ٢١) حديث رقم (١٤٨١) والحديث أخرجه أبو داود في =

* وفي لحظةٍ من لحظات العناية الإلهيّة لجأَ لوطٌ إلى ركْنٍ شديد. . . لجأ إلى الله عزَّ وجلَّ. . . لم يكن له منعة وعشيرةٌ ينصرونه عليهم. . . على القوم المسرفين. . . لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سيمنعه.

* بلغَ السَّيل الزّبى، وبلغَ الأَمْرُ من الشِّدة شيئاً عظيماً، جَعَل لوط ـ عليه السَّلام ـ يمانِعُ قومه الدُّخول إلى بيتهِ، يدافعهم عنه والباب مُغْلقٌ، وهم يرومون فَتْحَه أو كسْره، وكان لوطٌ ـ مع هذا كلّه ـ يعظُهم وينهاهم من وراء الباب، فلمّا اشتدَّ كربه، نهض ضيوفه الغُرباء. . . وأشاروا إليه أنّه يأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ، وبصوتٍ نديٍّ فيه الرّحمة والسَّكينةُ قالوا له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ. .﴾ [هود: ٨٠].

* في تلكَ اللحظةِ الحرجةِ أفهموه أنّهم رسولُ اللهِ، وأنّهم من جنْسِ الملائكة، وأنّهم في مهمّةٍ ربانيّة سريعة. . . نادوه: لا تخفْ، لنْ يَصِلَ إليك واحدٌ من هؤلاء الفجرة الكفرة.

* مدَّ الملائكةُ أيديهم إلى القومِ، وطمسوا أعينهم بأَمْرِ الله، ذَكَرَ الله عزَّ وجلَّ هذا المَشهد في القرآن العزيز فقال: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

= الحدود برقم (٤٤٦٢) وكذلك ابن ماجه في الحدود برقم (٢٥٦١) وانظر البداية والنهاية (١/ ١٨٢) وغيرها من المصادر.

أقول: وقد تبيّن نتيجة الإحصائيات الحديثة ـ في مجال الطّب ـ أنَّ اللواط هو السَّبب الرئيسيُّ لمعظم الأمراض الجنسيّة الوبائية التي تهدّد حياة الأفراد والمجتمعات، وتنحدرُ بمصير الأمم نحو الظَّلام والدّمار والموت؛ ومن أخطر هذه الأمراض ما يُدعى مرض نقص المناعة المكتسب «الإيدز» وقد تأكد أنَّ معظم المصابين مِنَ الرّجال (٧٠ ـ ٨٠٪) وأنَّ من هؤلاء المصابين (٩٠٪) يمارسون اللواط. . . فأتى الله تعالى الذين يمارسون هذا العمل بجنود من عنده لم يستطع العلماء والباحثون والمتخصصون تحديد هويّة هذا المرض إلى الوقت الحالي. . .

﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾:

* هدأت نفسُ لوطٍ ـ عليه السَّلام ـ واطمأن على ضيوفهِ.. جاءتِ الأوامرُ الإلهيّةُ الصّادرةُ من لَدنْ حكيم عليم بأنْ يسري لوطٌ بأهله في آخر الليل... كانت وصيةُ الملائكة له ولأهله ﴿... وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١] عند سماع صوتِ العذاب إذا نزل بقومه، وذكّروه بامرأتِهِ الكافرة الظالمة بأنّه سيصيبها ما أصاب قومها، فلا تَسْرِ بها... لقد أسرفتْ وتجاوزتْ.. فحقَّ عليها القول... لن تكونَ من أَهْلِكَ الذين كُتِبتْ لهم أسبابُ السَّعادة، وأسباب النّجاة... جاء قولهم صارماً حازماً: ﴿فَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[1] [الحجر: ٦٠].

* قالت الملائكةُ للوطٍ مبشّرين بهلاك هؤلاء البُغاة العتاة الطُّغاة، قساة الأكباد: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟ [هود: ٨١].

* بلى وربّي.... إنَّ صبحَ هؤلاء الفجرة لقريبٌ وعسيرٌ؛ وفي ساعةٍ من ساعات الليل ـ تلك الليلة ـ الأخيرة، استعدّ لوط ـ عليه السَّلام ـ لكي يخرجَ من القريةِ الظّالمِ أهلُها... عليه أنْ يسرعَ قبل أَنْ تهجمَ جيوشُ الصَّباح، لتطردَ سواد الليل البهيم.... وبعد إذْ يقضي الله أَمْرَاً كان مفعولاً.

* سار لوطٌ وابنتاه في السَّحَرِ... وما إن ابتعدَ عن القريةِ قليلاً، حتى أرسلتِ الشّمسُ أشعتها على الأرض، وأرسل اللهُ عزَّ وجلَّ جنوده لينفّذُوا المهمّة التي أُوكلتْ إليهم. كانتِ المهمّةُ مؤلفة من بضعةِ مراحلَ.

ـ قلب القُرى بالفَسَقَةِ، فجعل عاليها سافلها.

---

(١) للإمام أبي بكر الرازي ـ رحمه الله ـ توضيح لطيف لهذه الآية في تفسيره، وسؤال وجواب فيه شفاء للنفس، قال: فإن قيل: كيف قالت الملائكة: «قدرنا إنّها لمن الغابرين» أي قضينا، والقضاء لله تعالى لا لهم!.
قلنا: هو مجازٌ كما تقول خواص الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، ونهينا عن كذا، ويكون الفاعل لجميع ذلك الملك لا هم، وإنّما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك.

ـ أرسل عليهم صيحةً من السَّماء في الصَّباح المشرق الباكر.

ـ أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود[1].

* هلك قومُ لوطٍ أجمعون، وهلكت معهم امرأته[2]، واقتعدت مكانةً ـ لا تُحسد عليها ـ في النَّار مع امرأةِ نوح.

ـ تلاشت قرية لوط...

ـ تلاشى أهلُها تماماً...

ـ تلاشت امرأة لوط أيضاً...

ـ لم يُبْقِ في الأرض منهم ديّاراً[3]....

ـ لم يأسفْ عليهم أحدٌ، وما بكتْ عليهم السَّماء والأرضُ، حى أرضهم أضحت بحيرةً مالحةً لا حياة فيها...

* بقيت قصّتهم آية إلهيّة للذين يخافون العذابَ الأليم.. ظلّت آثارهم لمن أراد أنْ يعتبر.. حدثنا القرآن الكريم عن ذلك في سُوَرٍ عدّة.. قال تعالى في سورة هود:

---

(١) انظر هذا بالتفصيل في تفسير القرطبيّ (٩/ ٨١ ـ ٨٤).

(٢) قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ:
يقال: إنّ امرأةَ لوط مكثتْ مع قومها.
ويقال: إنّها خرجتْ مع زوجها وبنتيها، ولكنّها لما سمعت الصَّيحة وسقوط البلدة، التفتتْ إلى قومها، وخالفت أمرْ ربّها قديماً وحديثاً، وقال: واقوماه، فسقط عليها حجرٌ فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دِينهم، وكانت عيناً لهم على مَنْ يكون عند لوطٍ من الضّيفان. (البداية والنهاية ١/ ١٨٢).

(٣) قال الحافظُ ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ عن قوم لوط:
أهلكهم الله عزّ وجلَّ على يَدِ جبريل فقلب مدائنهم بعد أنْ خرج عنهم لوط بأهلِ بيته، إلا امرأته فإنّها تأخرت مع قومها، أو خرجت مع لوطٍ فأدركها العذاب، فقلب جبريل المدائن بطرف جناحه فصار عاليها سافلها، وصار مكانتها بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بشيء مما حولها. (فتح الباري ٦/ ٤٧٨).

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢/ ٨٣][1].

* تلك هي نهايةُ قوم لوط، وتلك خاتمتهم، وتلك قصّتُهم وقصّة امرأة لوطٍ، فهل من مدّكر؟[2].

* وقد صاغَ قصّة امرأة لوط وقومها شعراً جميلاً؛ أميّة بن أبي الصّلت الشّاعر الجاهليّ المعروف من قصيدة:

ثـــمّ لُـــوطـــاً أخـــا سَـــدومَ أتـــاهـــا
إذْ أتـــاهـــا بِـــرُشْـــدِهـــا وهُـــداهَـــا
راوَدُوهُ عـــنْ ضَيْفِـــهِ ثـــم قـــالُـــوا
قـــد نهَيْنَـــاكَ أنْ تُقِيـــمَ قِـــراهَـــا
عَـــرَضَ الشَّيـــخُ عنـــدَ ذاكَ بَنَـــاتٍ
كَظِبـــاء بـــأَجْـــرعِ مَـــرْعَـــاهَـــا
غَضِـــبَ القـــومُ عِنْـــدَ ذاك وقـــالُـــوا
أيُّهـــا الشَّيْـــخُ خِطبَـــةً نَـــأْبَـــاهَـــا
أَجْمَـــعَ القـــومُ أَمْـــرَهُـــمْ وعَجُـــوزٌ
خَيَّـــبَ اللهُ سَعْيَهـــا ولَحَـــاهَـــا

---

(١) أمطرنا؛ المطر: الماء النازل من السَّحاب، ويقال: لما ينزل من علٍ كالماء من السَّحاب.
ومن هذا قيل: لِما أنزل من الحجارة على قوم لوط وقُراهم مطراً.
ووضع كفّار قريش الحجارة موضع المطر في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].
ويُقال: أمطر الله الحجارة على العصاة: أنزلها عليهم كما ينزل المطر.
ويقال في هذا أيضاً: أمطرهم الله وأمطر عليهم المطر.
ويقال: أمطر السَّحاب القوم: سكب عليهم ماءه، والوصف من هذا ممطر.

(٢) ترك الله تعالى بعضَ آثار منازلهم الخربة للعبرة لمن يعتبر، وللعظة لمن أراد الموعظة، ولمن ابتغى التأمل بمصير الظالمين ومآل الكافرين في الدنيا، ولعذاب الله تعالى أشدّ وأدوم.

أَرْسَـــلَ اللهُ عنـــد ذاكَ عَـــذَابـــاً
جَعَـــلَ الأرضَ سُفْلَهـــا أَعْـــلاهَـــا
ورَمَـــاهَـــا بِحَـــاصِـــبٍ ثـــمّ طِيْـــنٍ
ذي حُـــروف مُسَـــوَّمٍ إذْ رَمَـــاهـــا[1]

* لقد نَجّى اللهُ لوطاً إلا امرأته . . . . طُويتْ صفحتُها مع الذينَ غضبَ الله عليهم . . . وجعل موعدهم الجحيم .

* في مدينةِ الخليل مكثَ سيّدنا لوط عند خليل الرّحمن سيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وتدلُّ الآثار على أنّه سَكَنَ تلك البقاع؛ نقل الشَّيخُ عبد الغني النّابلسيُّ ـ رحمه الله ـ عن الهرويِّ في زياراته قال :

«يَاقينُ»[2]: قريةٌ بها مقام لوط ـ عليه السَّلام ـ وبها كان يسكن بعد رحيله من «زُغَر»، وسمّيت ياقين؛ لأنّه لما سار ورأى العذاب قد نزل بقومه سجد في هذا الموضع وقال : أيقنتُ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ[3] .

* وتشيرُ الآثار والأخبار إلى أنّ لوطاً ـ عليه السَّلام ـ قد توفيَ في الخليلِ . . . نَقَلَ النّابلسيُّ عن الحنبليّ في تاريخه قال :

وأمّا قَبْرُ لوط ـ عليه السَّلام ـ فهو في قرية تُسمّى «كفر البريك»، تبعد عن مسجد الخليل ـ عليه السَّلام ـ نحواً منْ فرسخ .

* وقال الأسيوطيُّ ـ رحمه الله ـ بعد ذكره هذه العبارة : وقد كان قبر لوط ـ عليه السَّلام ـ يُزار ويقصد من قديم الزَّمان، بنَقْلِ الخَلَفِ عن السَّلف . وفي ذلك يقول الشَّيخ إبراهيم بن رفاعة الخليلي في ديوانه :

وبكَفْـــرِ البـــريـــك بـــورك فيهـــا
قبـــر لـــوط النّبـــي بغيـــر ارتيـــابِ

---

(١) انظر : معجم البلدان (٣/ ٢٠١) وديوان أمية بن أبي الصلت (ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤) . «الحاصب» : ريح شديدة تقلع الحصباء لشدتها . «مسوَّم» : مُعَلّم .

(٢) انظر مادة ياقين في معجم البلدان (٥/ ٤٢٦) .

(٣) انظر كتاب الحضرة الأنسية ي الرحلة القدسية(ص ٢٨٤) .

فـــي مقـــامٍ وجـــامـــعٍ ورواقٍ
نـــورُهُ ســـاطـــعٌ بتلـــك الـــرِّحـــابِ

وقال الخليليُّ أيضاً من قصيدة:

ومشهـــدٌ فيـــه لـــوطٌ زرتُـــه فبـــدتْ
أنـــوارهُ بيقيـــنٍ عنـــدَ يـــاقيـــن

* وأما الشَّيخُ عبد الغنيّ النابلسيّ فقد صاغَ قصيدة ذكَرَ فيها قبر سيّدنا لوطٍ وبناته في «حَبْرونَ» بالخليل من بلاد المقدس نقتطفُ منها هذه الأبيات:

مقـــامُ لُـــوطٍ نبـــيّ الله معمـــورُ
فـي أرضِ حبـرونَ بـالخيـراتِ مغمـورُ
فـي قـريـةٍ سميـت كَفْـر البـريـك سَمَتْ
بمَـــنْ بهـــا مـــع مَـــنْ دانـــاهُ مقبـــورُ
بنـــات سيّـــدنـــا لـــوط هنـــاك وقـــد
زرنـــا لهـــم مشهـــداً مـــن دونـــه ســـورُ
هـــم آل يـــاقيـــن لا زالـــت فضـــائلهُـــم
تسمـــو ومنهـــم علينـــا يشـــرقُ النُّـــورُ
وبـــاليقيـــن تُسمـــي النّـــاس مسجـــدهـــم
مـــنْ زارهـــم فهـــو بـــالأنـــوار مســـرور

* وبعد، ما أجمل ـ ونحن نودع هذه السّطور ـ أنْ تتحلى الأفواهُ والأسماعُ بقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٢ ـ ١٩٣]. صدق الله العظيم.

* * *

زوج النبي إسماعيل عليه السلام

* كانت مثلاً شروداً في الندى والكرم لكل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر.
* كانت مطيعة لزوجها، قانعة، حامدة، شاكرة.
* دعا لها سيدنا إبراهيم بالبركة، فبارك الله في ذريتها وولدت اثني عشر رجلاً.

إن اللهَ لا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ:

* عندما أَسْكَنَ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ من ذرّيتهِ عند البيت المحرّم، طلبَ مِنَ اللهِ أموراً، ودعاه أن يستجيبَ له، فهو الذي يجيبُ المضطر إذا دعاه.

* طلبَ إبراهيمُ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ نعمةَ الأمانِ؛ فالأمانُ منْ أعظمِ أنواع النّعم والخيرات، ولا يتمُّ شيءٌ مِنْ مصالحِ الدِّين والدُّنيا إلا بالأمان.. ثم سأل اللهَ أنْ يرزقَه التّوحيد، ويصونه عن الشّرك.

* وبهاتينِ الخاصتين الأمان والتّوحيد يستطيعُ الإنسان أنْ يسلكَ طريق العبادة التي توصله إلى جنّاتِ النّعيم... وبعد ذلك دعا إبراهيم ربّه أنْ يجعلَ أفئدةً منَ النَّاسِ تحبُّ البيت العتيق[1].. فقد ترك بقربه أحبّ شيء إليه؛ ابنه البِكْر إسماعيل، وترك كذلك زوجه هاجر أمّ إسماعيل، وذلك بوحي من الله عزّ وجلّ وأمره، وكان أمْرُ الله مفعولاً.

* فقد أوحى الله سبحانه إلى إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أنْ خُذْ زوجك هاجر وابنك إسماعيل، واخرج إلى حيث أُريك.

* امتثل إبراهيم أَمْرَ الله... وسارع إلى مغفرة من ربِّهِ، وحمل هاجر وإسماعيل ـ وهو رضيع ـ وانطلق بهما إلى الأرض التي شاءها الله أنْ تكونَ أطهر بقعةٍ على وجْه الأرض، وأنْ تكونَ مثابةً للنّاسِ وأَمْناً.

* وفي وادٍ غير ذي زرع كان الأمرُ الإلهيُّ العلويُّ يأمرُ إبراهيم بالنزول فيه... ونزل إبراهيم وزوجه وابنه، ثم ترك لهما جراباً فيه تَمْرٌ، وسقاء فيه ماء، وعاد راجعاً ممتثلاً أَمْرَ المليك المقتدر، وهو يدعو ربَّه قائلاً:

---

(١) «العتيق»: من الحسّي؛ العاتق: ما بين المنكبين لارتفاعه. والعتيق: المتقدم في الزّمان أو المكان أو الرتبة، ولذلك قيل للقديم: عتيق. وقد ورد وصفاً للبيت العتيق. وقد ورد لفظ العتيق مرتين في القرآن الكريم في سورة الحج.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

* ألاَ ما أجملَ هذا الدُّعاء الجامع النّافع الذي فيه خير الدّنيا والآخرة... ففيه إقامة الصَّلاة التي تَصِلُ العبد بخالقِهِ... وفي محبّة البيت العتيق الذي اختاره الله لعباده يؤدُّون فيه شعائرهم ومناسكهم، وفيه طلب الرِّزق، مع العلم أنَّ المكان قَفْرٌ ليس فيه أي مصدر من مصادر الرِّزق، فمن أين الثّمرات؟.

قال الزمخشري[1] ـ رحمه الله ـ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ

---

(١) «الزمخشريُّ»: محمود بنُ عمر بن محمّد الزّمخشريّ الخوارزميّ، النّحويّ، اللغويّ، المتكلّم، المعتزليّ، المُفَسّر، الملقّب جار الله؛ لأنَّه جاورَ بمكةَ زماناً، وُلد في (٢٧ رجب) سنة (٤٦٧هـ) بزمخشَرَ من قرى خوارزم، تتلمذ في نشأتِهِ على محمود بن جرير الضَّبيّ الأصفهاني النّحويّ، وكبار علماء عصره.
قال ابنُ السّمعاني عن الزمخشريّ: كان ممن برعَ في الأدب والنّحو واللغة، لقيَ الكبار، وصنّفَ التّصانيف، ودخل خراسان عدةَ نُوَبٍ، وما دخل بلداً إلا واجتمعوا عليه وتتلمذوا له، وكان علامة الأدب، ونسّابة العرب، تُضْرب إليه أكباد الإبل.
قال ابنُ خلكان في وفياته: كان إمام عصره، وكان متظاهراً بالاعتزال داعية إليه. له التّصانيف البديعة منها: «أساسُ البلاغة» و«ربيعُ الأبرار ونصوص الأخبار» و«الفائق في غريب الحديث» و«الكشّاف» في التّفسير، ـ بصرف النظر عمّا فيه من الاعتزال ـ تفسيرٌ نادر أَبَانَ فيه الزَّمخشريُّ وجوهَ الإعجاز، وأظهر فيه جمال النّظم القرآنّي وبلاغته وسحره؛ وذلك لأنَّ الزَّمخشريَّ قد برعَ في كثيرٍ منَ المعارف والعلوم لا سيما لغة العرب وأشعارهم وإحاطته بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب.
وقد امتدح الزمخشريُّ تفسيرَهُ في أبياتٍ ذكرها ياقوت وابنُ خلكان فقال:

إنَّ التَّفاسيرَ في الدُّنيا بلا عددٍ ... وليس فيها لعمري مثل كشّافي
إنْ كنتَ تبغي الهدى فالزمْ قراءته ... فالجهل كالدَّاء والكشَّاف كالشّافي

عاش الزَّمخشريّ قرابة (٧١ عاماً) قضاها في العلم والمعرفة، وتوفي ليلة عرفة سنة (٥٣٨هـ) رحمه الله تعالى. =

﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: مع سُكْناهم وادياً ما فيه شيءٌ منها بأنْ تُجلبَ إليهم من البلاد.. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾: النّعمة في أنْ يرزقوا أنواع الثّمرات حاضرة في وادٍ بباب ليس فيه نَجْمٌ ولا شَجَرٌ ولا ماءٌ؛ ولا جرم أنَّ الله عزَّ وجلَّ أجابَ دعوته، فجعله حرماً آمناً تُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لَدنه، ثم فضّله في وجود أصناف الثّمار فيه على كلِّ ريف وعلى أَخْصبِ البلاد، وأكثرها ثماراً، وفي أي بَلَدٍ منْ بلادِ الشَّرقِ والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله ـ ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ ـ وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الرَّبيعيّة والصّيفيّة والخريفيّة في يومٍ واحد؛ وليس ذلك من آياته بعجيب.

* وأمَّا هاجر، فقد نظرتْ إلى ما حولها... لم يكن هنالك إلا بِحَارٌ من الرِّمال... لم يكن في تلكَ البقعةِ إنسٌ ولا جان... تردّدتْ في الوادي كلماتُ هاجر بعدما فارقها إبراهيم: لا يضيعنا الله... لا يضيعنا الله.

* خيّمَ سكونٌ على مكةَ وما حولها، وسكنتِ الأشياءُ منْ حولِ هاجر إلا حركاتِ رضيعها إسماعيل الذي يحرك ما بداخلها من عواطفَ شتى... وحرَّك ما في ذهنها من صورٍ وذكريات عن ماضيها، وعن حياتها في بيت نبيِّ الله إبراهيم في بيت المقدس.

* انتبهتْ من ذكرياتها على صوتِ إسماعيل.. أرضعته... ثم شرعت تأكلُ من التّمر... وتشربُ من الماءِ في سقائها، نفدَ الماء والتّمر... عطشت هاجر وعطش إسماعيل، راح يتلبّطُ ويصيحُ ويبكي... هبت هاجر من مكانها... هُرعت نحو الصَّفا، صعدت عليه لعلّها تَجِدُ مَنْ ينقذها من ألم العطش، لكنّها لم تَرَ أحداً... ثم نزلت وهرعت نحو المروة، وصعِدَتْ فلَمْ تَرَ أحداً.... ثم راحتْ تسعى[1] بينَ الصَّفا والمروة سبع مرات، وهي

= (طبقات المفسرين للسّيوطيّ ص ١٠٤ و١٠٥) و(طبقات المفسّرين للداوديّ ٢/ ٣١٤ ـ ٣١٦) بشيء من التصرف.

(١) «تسعى»: سعى يسعى سَعْياً: مشى سريعاً دون العَدْو. أو سار مُطْلَقَ سير.

تتلهّف على رؤيةِ أَحَدٍ ينتشلها وابنها مما نزل بهما منْ جهدِ العطش، ولكنْ... لم تَرَ أَحَداً...

* ولما اشتدَّ الكربُ، وبلغتِ القلوبُ الحناجَر.... جاء الفرجُ الإلهي... سمعتْ بالقربِ من ابنها صوتاً فإذا بالماء قد ظهر عند قدميه، واندفعت نحو الماء بلهفةٍ وجعلت تَعْزفُ وتملأُ سقاءها، ثم أخذت تجعلُ حول الماء مثل الحوضِ لكيلا يتلاشى بين الرِّمال الملتهبة...

* شعرتْ هاجرُ بفرحٍ يغمر فؤادها، وأخذ لسانُها يفيض بحمْدِ اللهِ وتسبيحه، ونظرتْ إلى ولدها إسماعيل وقد تهلّلَ وجهُهُ الصَّغير، فقد ارتوى من ماء زمزمَ الذي أكرمه الله به.

* وقُرْبَ الماء الطَّاهر كان مَلَكٌ من مَلائكةِ الله الكرام... نَطَقَ المَلكُ بلسانٍ واضحٍ وقال لهاجر مبشراً: لا تخافي الضَّيعة فإنَّ هاهنا بيت اللهِ العتيق البيت الحرام؛ يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يضيعُ أهله..

* ردَّدتْ هاجر في سرّها: إي وربّي.. إن اللهَ لا يضيعُ أهله، ثم قالت للمَلَكِ: بشّركَ الله بخير.

أَتَأْذَنِيْنَ لَنَا أَنْ نَنزِلَ عِنْدَكِ؟

مكثتْ هاجرُ وإسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ مُدّةً يرتويان من ماء زمزم، بدأتِ الحياةُ تتمشى في تلكَ البقعةِ كتمشّي البُرء في السّقم، كانت الطّيورُ تحومُ حول الماء، وترده للشرب وريّ الظمأ، ثم تنطلقُ تجوب أفقَ السَّماء فرحةً.

* وذات يوم مَرّت بالقربِ من هاجرَ جماعةٌ من قبيلة جرهم، ـ وكانت جرهم يومئذ بوادٍ قريب من مكةَ ـ وهناك رأوا طيوراً تحومُ على الماء ولا تبتعد عنه، فقالوا متعجبين ـ وقد أنكروا ما رأوا ـ: إنَّ هذا الطَّائر ليدور على الماء، وإنّ ما نعرفه أنَّه ليس بهذا الوادي ماء.

* عندئذ أرسلوا منهم مَنْ يرى الأَمْرَ ويأتي بالخبرِ اليقين.. فإذا هُم بالماء.... ونظر الرَّجلُ فرأى عند الماء امرأة ومعها وليدٌ، فأقبل نحوها

وقال لها: أتأذنين لنا أنْ نكونَ معك ونسكن عندك؟

قالت هاجر ـ وقد رحّبت بالفكرة ـ: نعم، ولكنْ لي شرط.

قال: وما هو؟

قالت: ليس لكن حقّ في هذا الماء، فإنه سقيا الله لي ولابني هذا.

* وانطلقَ هذا الرَّجل، فأخبر قومه بما رأى، وبما قالت له المرأة، ما اشترطته عليهم من حقّها في ماءِ زمزمَ.

* وهبطت جرهم الوادي بجموعها رجالاً ونساء وأطفالاً، وجاؤوا بأنعامهم، ثم جاء معهم العماليق برجالهم ونسائهم وأطفالهم أيضاً.. وحول زمزم أخذ كلّ منهم مكانه...

* ولم تشرق شمسُ اليوم التّالي حتى انبعثتِ الحياةُ من جديد في المكان المقفر، وتفجّرت تلك البقعة بالحركة كما تفجّرتْ زمزم، وأصبحت الأرضُ تفيض بالحركة، وتنبضُ بالحياة... لقد استجابَ اللهُ تبارك وتعالى دعاء إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فهوتْ أفئدة من النَّاس إلى ذلك المكان المبارك عند البيت المبارك.

غُـلاَمٌ حَلِيْـمٌ:

* نشأ سيّدنا إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ بين جرهم... وكانت علائمُ الصَّلاح والحلم من أهمِّ صفاته، وتحققت دعوة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ من قبل، حيث دعا إبراهيم ربّه فقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصّافات: ١٠٠].

قال أبو السُّعود[1] ـ رحمه الله ـ في تفسيره عن إبراهيم وإسماعيل:

---

(١) «أبو السّعود»: محمّد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفيّ ولد سنة (٨٩٨هـ) بقرية قُرْبَ القسطنطينية، وهو من بيتٍ عُرِفَ أهله بالعلم والفضل، وكان عارفاً باللغات العربيّة والتركيّة والفارسيّة، وهو مفسّر، أصوليّ، شاعر؛ تقلّد منصب القضاء والإفتاء سنوات عديدة تقترب من الثّلاثين. وصفه ابنُ العماد الحنبلي =

جمع الله له فيه بشارات ثلاث: بشارة أنَّه غلام، وأنّه يبلغ أوان الحُلم، وأنَّه يكون حليماً؛ لأنَّ الصَّغيرَ لا يُوصف بذلك، وأي حلم يعادل حلمه ـ عليه السَّلام ـ حين عرض عليه أبوه الذَّبح فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

* استجابَ اللهُ دعاء إبراهيم، ووهبه غلاماً حليماً، قال تعالى ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصَّافات: ١٠١]... ورثَ إسماعيلُ الحلم والصَّلاح الإبراهيميّ، ورضع أدب النّبوّة، وصُنع على عينِ الله عند بيته المحرّم.

= بقوله: كان ذا مهابة عظيمة، فيه ميل زائد لأرباب الرئاسة.
وقد أثنى على أبي السّعود بعض أهل الفضل فقال: تربّى في حجر العلم حتى ربا، وارتضع ثدي الفضل إلى أنْ ترعرعَ، ولا زال يخدم العلوم الشّريفة حتى رَحُبَ باعه، وامتدَّ ساعده واشتدَّ اتساعه.
تتلمذ أبو السّعود ـ رحمه الله ـ على والده، ولكثير من جلّةِ العلماء والأفاضل، فاستفاد من علومهم، ومن ثمَّ طارت سمعته، وفاضت شهرته، وعظُم صيته، وسارت بذكره الرّكبان في مشارق الأرض ومغاربها.
من كُتُبِه: «تحفة الطُّلاب» و«قصّة هاروت وماروت» وله التَّفسير المعروف باسمه وقد سمّاه: «إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم» ويمتاز هذا التَّفسير بحسن الصّوغ، وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية وسرّ إعجاز القرآن.
وكثيراً ما كان أبو السّعود يهتمُّ بالمناسبات وببعض القراءات.
ويمتاز هذا التّفسير أيضاً بإقلاله من رواية الإسرائيليات. وكذلك كان يتعرض إلى ذكر المسائل الفقهية.
وبالجملة فهذا التفسير دقيق غاية الدّقة، لطيف المذهب، حسن الترتيب.
أثنى عليه صاحب العقد المنظوم في ذكر أفاضل الرّوم فقال: وقد أتى بما لم تسمح به الأزمان، ولم تقرع به الآذان، فصدق المثل السّائر: كم تُرِك للآخر! توفي أبو السّعود في مدينة القسطنطينية، ودفن بجوار سيدنا أبي أيوب الأنصاريّ؛ وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة (٩٨٢هـ) وعمره (٨٤ سنة) رحمه الله.
(الأعلام ٧/ ٥٩) و(التفسير والمفسرون ١/ ٣٤٤ ـ ٣٥١).

(١) انظر: تفسير أبي السّعود (٤/ ٢٧٣).

* ومنذ طفولته الأولى، كانت البركات تحيطُ به بعد أنْ يجتاز أصْدقَ الامتحانات التي تكشف عن صفائِهِ.

* ففي نقطة البدايةِ فَجَّر الله عزَّ وجلَّ زمزم تحت قدميه تفجيراً، وشربَ وشربتْ أمّهُ هاجر... وعندما بلغ السَّعْيَ، وأضحى في بدايةِ الشَّباب، ظهرتِ البركةُ الأخرى بعد أنْ اجتازَ امتحاناً ربّانياً دقيقاً اجتازه مع أبيه بنجاحٍ موفّق مبارك تكتنفه العناية الإلهية، وترعاه التّربية الفريدةُ التي فطره الله عليها، كان ذلك الامتحان يوم أنْ قال له والده إبراهيم: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصَّافات: ١٠٢] في يقينِ المتقين قال دون تردد: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢].

* كانت غاية كلّ منْ إبراهيمَ وإسماعيل الله سبحانه، فكان تسابقهما محموداً في ميدان الصَّبر، وميدان الصَّبْر من أوسع ميادين الفضائل وأعظمها. نالَ إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ وسام الصِّدق من لدن حكيم خبير، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ:

* كان إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ قد نشأَ في رعاية والدته هاجر التي ربَّتْه على معالي المكارم ومكارم المعالي، لذا فقد نشأ نشأةً فريدةً بين قبيلة جرهم جعلت أنظارهم تتوجّه إليه لعلوِّ همته وشجاعته.

* بلغَ إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ مبلغ الشَّباب، وتعلّم العربية من جرهم، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ألهمه العربية الفصيحة المبينة فنطق بها، فهو أول مَنْ فَتَقَ الله لسانه بالعربية المُبينة.

* رغب قومُ جرهم في مصاهرة إسماعيل لنفاسته عندهم، ونظر إسماعيل إلى امرأة منهم اسمها «صدى بنت سعد» فخطبها إلى أبيها فزوجها منه.

* ويبدو أنَّ ابنةَ سعد هذه لم تكن بالمستوى المطلوب، ولم تكن تدرك مكانة إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ فكانت تتأفّفُ من عيشتها، ولا تطيق ما هي

فيه من حياة فيها بعض الصّعوبة ـ كما زعمت ـ.

* وجاء إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ بعدما تزوَّج إسماعيل، وماتت هاجر، وكان إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ يزورهم في كلّ شهر مرة. ويبدو أنَّ هذه الزِّيارة كانت أوّل مرة بعد زواج إسماعيل، فقد كان في صيده، أمَّا زوجه صدى بنت سعد[1] فقد كانت في البيت. . . .

* وقفَ إبراهيمُ أمام بيت إسماعيل وقال: السّلام عليكم يا أهل البيت. . . .

ويبدو أنَّ صدى ردّتْ ردّاً جافّاً، وأقبلت على إبراهيمَ وراحتْ تنظر إليه في غِلْظَة.

سألها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ: أينَ إسماعيل؟!.

فقالت: خرج يطلب لنا الرِّزق ـ وكان إسماعيلُ ـ عليه السَّلام ـ يرعى ماشيته ويخرج متنكباً قوسه فيرمي الصّيد[2] ـ وفي رواية: وكان عيشُ إسماعيل الصّيد يخرج فيتصيّد. . .

* سكت إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ لحظات ثم سألها قائلاً: هل مِنْ منزل؟

قال بجفاء: لا، والله.

ثم سألها عن عيشهم وقال: هل عندك ضيافة؟

فأجابت في جفاء وكفر للنعمة: أمّا الطّعام فلا طعام، وأما الشَّاء فلا تحلب إلا القليل، وأمَّا الماء فعلى ما ترى من الغلَظِ والصّعوبة. وشكَت إليه سوء الحال.

---

(١) انظر في اسمها فتح الباري (٦/ ٤٦٥).

(٢) كان سيدُنا إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ رامياً ماهراً؛ يؤيد هذا ما ورد في الصّحيح عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مرّ النبي ﷺ على نفر من أسلم يَنْتَضِلون، فقال رسول الله ﷺ: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً».
(فتح الباري ٦/ ٤٧٦) حديث رقم (٣٣٧٣).

* ورأى إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أنّ امرأةَ إسماعيل ـ هذه ـ فظّةً غليظةَ القلب، لا تصلح أنْ تكونَ أمّاً للذرّية الصّالحة التي سوف تحملُ رسالة الله إلى المشارقِ والمغارب، عندئذ رأى إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أنْ يحمّلها رسالة شفويّة إلى إسماعيلَ وقال لها: إذا جاء زوجُكِ فاقرئي عليه السّلام وقولي له: يُغيّر عتبةَ بابهِ.

* وانطلقَ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ إلى حيث يتمُّ رسالته، ولما جاء إسماعيلُ، كأنّه آنَسَ شيئاً، ويبدو أنّه وجدَ ريحَ أبيهِ فقال لزوجهِ: هل جاءكم مِنْ أَحَد؟.

قالت كالمستخفّة: جاءنا شيخٌ كبير قد طَعن في السِّنِّ، وقد سألنا هذا الشّيخ عنك فأخبرته.

فقال إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ: هل سألك عن شيءٍ؟.

قالت: سألني الشّيخ عن حياتنا وكيف عيشنا؟.

فقال: وماذا قلتِ له؟.

قالت: لقد أخبرته أنّا في جَهْد وشدّة ومشقّة.

* وتأثّر إسماعيل من تصرّفِ زوجه، ومنْ بخلها، فقد تعوّد أنْ يكرمَ ضيوفه كأبيه إبراهيم... لكنّه قال لها بإلهام ربّاني: فهل أوصاك هذا الشَّيخ بشيء؟!.

قالت: نعم، أمرني أنْ أقرأَ عليك السَّلام ويقول لك: غَيِّر عتبةَ بابك[1].

قال إسماعيل: ذاك أبي، وقد أمرني أنْ أفارقَك... ثم إنَّه قال لها: الحقي بأهلك، وطلّقها، وامتثل أَمْرَ أبيه ـ عليه السَّلام ـ.

---

(١) «عتبة بابك»: كناية عن المرأة، وسمّاها بذلك لما فيها من الصّفات الموافقة لها، وهو حفظ الباب، وصون ما هو داخله، وكونها محل الوطء، ويستفاد منه أن تغيير عتبة الباب يصح أن يكون من كنايات الطلاق.

رِعلــةُ الزَّوْجَـةُ المُؤْمِنَــةُ:

* مكثَ إسماعيلُ ـ عليه السَّلام ـ زمناً بعد أنْ فارقَ زوجه الأولى ابنة سعد، ثم بدأ يبحثُ عن أخرى تقيّة ورعةً تؤمنُ بالله ورسله، وتتحمّل ما قد يصيبها من شدّة وهي راضية النّفس. . . . بحث عن امرأة تهجر الدُّنيا وزينتها ابتغاء وجه اللهِ ومرضاته، وتطمعُ في ثواب الآخرة ونعيمها الباقي.

* ونظر إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ فوجد ما يبغيه في امرأة تُدعى رِعْلة بنتْ مضاض بن عمرو الجرهميّة[1]، فخطبها إلى أبيها، فوافق على ذلكَ، ثمَّ زوّج ابنته رعلة من إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ.

* وانتقلتِ السَّيّدةُ[2] ابنة مضاض إلى بيت إسماعيل، وحمدت الله على ما أنْعَم عليها بهذا الزَّواج الميمون الذي شعرت ببركته منْ أوّلِ يوم.

* لقد آمنت رعلة ابنة مضاض بالله، وصدّقت بما أنزل اللهُ على إبراهيم من صُحُفٍ مطهّرة فيها بيان للنّاس، واقتبست من أخلاق زوجها إسماعيل ما جعلها مثلاً شروداً في النّدى والكرم للنّساء اللاتي يُرِدْنَ اللهَ والدَّار الآخرة.

* كانت تجد السّعادة في التّسبيح والتّحميد. . . لقد شرحَ الله صدرها، وفتح على بصيرتها، فشكرتْ أنعم الله عليها، وبارك لها في حياتها. . . .

* ولبثَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ بعيداً عن مكة ، وعن إسماعيل، وعن زوجه ابنة مضاض زمناً. . . . ثم إنّه أقبل ذات يوم لزيارة إسماعيل فلم يَجِدْهُ. . . . وألفى زوجه فقال لها: السّلام عليكم ورحمة الله أهل البيت.

فقالت زوج إسماعيل رعلة: وعليكم السّلام. . ثم رحّبت به، وطلبت منه أن يتفضّل بالنُّزول. . . .

وسألها سيّدنا إبراهيم عن إسماعيل: أينَ هو؟ فأجابت في أدب

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٦٦) وشفاء الغرام للفاسي (٢/ ٣١).

(٢) قال الإمامُ الفاسيّ ـ رحمه الله ـ: لا منافاة بين قول من سمّاها السيّدة وبين قول من سمّاها رعلة، لإمكان أن يكون أحد الأمرين اسماً لها، والآخر لقباً، واقتصر كل من القائلين على أحدهما، والله أعلم (شفاء الغرام ٢/ ٣١ و٣٢).

واستحياء: خرج يبتغي لنا من أرضِ اللهِ. . .

فقال لها: كيف أنتم؟

قالت: نحنُ في خيرِ عيش بحمد الله، انزل فاطعمْ واشربْ، فإنَّ خيرَ اللهِ وافِرٌ كثيرٌ.

عندئذ سألها إبراهيم عن الطّعام وقال: ما طعامكم؟.

قالت: اللّحم والحمد لله.

قال: فما شرابكم؟.

قالت: اللبنُ والماء والحمد لله. . .

وسألها أيضاً: هل مِنْ حبٍّ ـ قمح ـ؟.

فأجابت إجابة المؤمنة المطمئنة: يكون إنْ شاء الله ونحنُ في نِعَمٍ.

* وسُرَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ سروراً شديداً بزوج ابنه، ورأى أمامه امرأة حامدة شاكرة عارفة لِقَدْرِ زوجها. . . عندئذ توجّهَ إلى اللهِ ودعا قائلاً: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم.

* ثم التفتَ إبراهيمُ إلى زوجِ ابنهِ وقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السَّلام ومُريه يُثْبت عتبةَ بابه، فإنّها صلاح المنزل. ورجع إبراهيم إلى بيت المقدس بعد أن اطمأن على ابنه وزوجهِ ابنه مضاض. . . .

* فلّما رجع إسماعيل مِنْ صَيده، وَجَد ريْحَ أبيه فقال لزوجه: إنّي لأجدُ ريحاً طيباً، فهل جاءك أحَدٌ؟.

قالت: نعم، لقد زارنا شيخٌ أحسن النّاس وجهاً، وأطيبهم ريحاً، وأشدهم هيبة، وأجملهم هيئة، كان لطيف الحديث، كريم الأخلاق، تعلوه السَّكينة، ويجلّله الوقار وقد سألني هذا الشّيخ الوقور عنك فأخبرته خبرك، وسألني عن عيشنا كيف هو؟ فأخبرته أنّا نعيش بخير وفضل من الله. . . فدعا لنا بالبركة.

قال إسماعيل: فهل أوصاك الشَّيخ بشيء؟.

قالت: نعم هو يقرأ عليك السَّلام. . . ويأمرك أنْ تثبت عتبةَ بابك.

قال إسماعيل مستبشراً: ذاك أبي، وأنتِ العتبةُ، إنَّ أبي أمرني أنْ أُمسكك[1].

زَوْجُ إسْمَاعِيْلَ في القَصَصِ النَّبويِّ:

* لم تَرِدْ قصّة زواج إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ في القرآن الكريم، وإنّما وردتْ في السُّنَّة المطهّرة، في مواضعَ من كُتُب الحديث، وفي صحيح البخاريّ نصيبٌ وافر للقصّة، إذ رواها البخاريّ ـ رحمه الله ـ في قصّة طويلة فيها إشارات إلى هاجر وسكنها بمكةَ، ومن ثمّ الإشارة إلى زوجَتي إسماعيل. وقد ذكر الحديث أنَّ جرهم قد نزلوا قريباً من زمزمَ، ثم عرضوا على هاجر النُّزول عندها فوافقت.

* والآن لنتابع الحديث مفصلاً في البخاريّ ومسنداً إلى ابنِ عباس رضي الله عنهما. . . يقول:

. . . . فنزلوا ـ أي: جرهم ـ وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبَّ الغلام، وتعلَّم العربية منهم، وأَنْفَسهم وأعجبهم حين شَبَّ، فلَّما أَدْرَكَ زوّجوه امرأة منهم، وماتت أمُّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوّج إسماعيل يطالع تركته، فلم يَجِدْ إسماعيل. فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحنُ بشرٌ، نحن في ضيق وشدّةٍ، فشكَتْ إليه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السَّلام وقولي له يغيّر عتبة بابه؛ فلما جاء إسماعيل كأنّه آنسَ شيئاً فقال: هل جاءكم منْ أحد؟.

---

(١) عن دلائل النبوة للبيهقيّ (٢/ ٥٠ و٥١) بشيء من التصرف، وانظر في هذا: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١١٩ و١٢٠) وشفاء الغرام (٢/ ٦ ـ ٨) وأخبار مكة (١/ ٥٧ و٥٨) والبداية والنهاية (١/ ١٥٥ و١٥٦) وتفسير الطبري (١٣/ ٢٢٩ و٢٣٠ و٢٣١).

قالت: نعم، جاء شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنّا في جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشيء؟.

قالت: نعم، أمرني أنْ أقرأ عليك السَّلام، ويقول: غيّر عتبة بابك.

قال: ذاكَ أبي وقد أمرني أنْ أفارقك. الحقي بأهلك. فطلقها.

وتزوّجَ منهم أخرى، فلبثَ عنهم إبراهيمُ ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يَجِدْهُ، فدخل على امرأتِهِ فسألها عنه.

فقالت: خرج يبتغي لنا.

قال: كيف أنتم؟.

وسألها عن عيشهم وهيئتهم.

فقالت: نحنُ بخيرٍ وسَعَةٍ، وأثنتْ على الله.

فقال: ما طعامكم؟

قالت: اللّحم.

قال: فما شرابكم؟.

قالت: الماء.

قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبيُّ ﷺ: ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه.

قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكةَ إلا لمْ يوافقاه.

قال ـ إبراهيم ـ: فإذا جاء زوجك فاقرئي علي السَّلام، ومُريه يُثْبِت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم مِن أحد؟.

قالت: نعم، أتانا شيخ حَسَن الهيئة ـ وأثنت عليه ـ فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا بخير.

قال: فأوصاك بشيء؟.

قالت: نعم، هو يقرأ عليك السَّلام، ويأمرك أنْ تثبت عتبة بابك.

قال: ذاك أبي وأنتِ العتبة.. أمرني أنْ أمسكَك.. الحديث[1].

ولنا في هذه الرّواية الصّحيحة غنى عن غيرها من الرّوايات في المصادر الأخرى[2].

الوَلُودُ الوَدُودُ:

* كانتْ رعلةُ بنت مضاض الجرهمية زوج سيّدنا إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ من أفضل نساء جرهم ديناً وصيانةً، دعا لها سيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ بالبركة، فبارك اللهُ في ذريّتها، وكانت ودوداً ولوداً، وكانت أمّاً للذّرية الصّالحة التي اختارها الله عزَّ وجلَّ.

* يقولُ الإخباريون: ولدتْ زوجُ إسماعيل اثني عشر رجلاً، وهم: نَابِت ـ وكان أكبرهم ـ وقَيْدار، وأَربل، ومَنْشَا، ومسْمَع، وماشي، ودُوما، وأدر، وطيما، ويطورا، ونبشا، وقيدما، وأمّهم بنت مضاض بن عمرو الجرهميّة[3].

* وأوردَ الإخباريون أيضاً أنّه كان لإسماعيل ابنة غير أولاده الاثني عشر، وهي نسمة بنت إسماعيل[4] ـ عليه السَّلام ـ، ويبدو أنَّ نسمةَ هذه قد تزوّجها ابن عمها عيصو بن إسحاق بن إبراهيم.

* وقد بارك الله عزّ وجلّ في ذريّة إسماعيل من زوجه هذه، وانتشر في

---

(١) رواه البخاري ـ انظر فتح الباري (٦/ ٤٥٦ و٤٥٧) من حديث رقم (٣٣٦٤).

(٢) الحديث والقصة موجودة في عدد كثير من المصادر الأخرى الموثوقة من كتب حديث وسير وتاريخ وطبقات وغير ذلك.

(٣) انظر: شفاء الغرام (٢/ ٢٩) وقد ورد في بعض المصادر كالسيرة لابن هشام، وأخبار مكة للأزرقي بعض الخلاف في رسم ولفظ بعض الأسماء في أولاد إسماعيل.

(٤) انظر مثلاً: شفاء الغرام (٢/ ٣٣ و٣٤).

أقطار الأرض، ودخلوا في قبائل العرب، ونشر الله تعالى ذريّة إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ الذين تكلّموا بلسانِهِ ـ العربية ـ من ولده قيدار بن إسماعيل وهو أبو العرب[1].

* هذا وقد تحققت دعوةُ سيّدنا إبراهيم بأنْ جَعَلَ ذريّة إسماعيل مباركة طيّبة، قال الإمامُ الفاسيُّ ما ملخصه:

ثم نَشَر اللهُ تعالى بني إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ بمكةَ، فلما ضاقت عليهم مكة، انتشروا بها، وانبسطوا في الأرض، وابتغوا المعاش والتّفسُّح في الأرض، فلا يأتون قوماً ولا ينزلون بلداً، إلا أظهرهم الله عزّ وجلّ عليهم بدينهم فوطئوهم وغلبوهم عليها[2].

* أما زوجُ إسماعيل رِعْلة فقد عاشت حميدة في مكةَ قرب زمزم ـ وحسن ذلك المكان مستقراً ومقاماً ـ عاشت ورأت الوادي المبارك الذي تخفق في ربوعه أرواح نفوس مؤمنة عرفت طريق الله، واستنارت بنوره.

عاشتْ ابنةُ مضاض، ورأتْ أولادَها وهم زعماء مكةَ، وهم أُولو قوةٍ، وأولو بأسٍ شديد، وذوو منعة، تعلّقت قلوبُهم بالبيتِ العتيقِ الذي بناه زوجها إسماعيل مع أبيه إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ.

* كان لا يفارق سمعها دعوة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨ ـ ١٢٩].

* تحقّقت الدعوةُ هذه فكانت الذّرية منَ العرب مِنْ ذرية إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ وزوجه رعلة ابنة مضاض... وبعث الله رسولاً منهم.. روى خالد بن معدان؛ أنَّ نَفراً من أصحاب رسول الله قالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك.

---

(١) شفاء الغرام (٢/ ٣٣) بتصرف.

(٢) شفاء الغرام (٢/ ٣٤) ملخصاً.

قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى»[1].

* وعاشت رِعلةُ زوج إسماعيل في ربيع العبادة والصَّلاح، وهي تعرفُ وتدركُ أنّها زوج نَبيٍّ كريم أرسله الله عزَّ وجلَّ لهداية الناس إلى دينِ العزيز الحميدِ الذي له مُلْكُ السَّمواتِ والأرض.

* وقرب البيت العتيق فارقتْ رعلةُ الحياة. . كانت رضيّة النفس بما حباها الله من نعمه، وبما اختصَّها من مكرمة. . وصَعِدت روحها إلى ربها راضية مرضية لتكون مع الأبرار في عليين.

وفي دنيا النساء تركت رعلة زوج إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ أثراً كريماً لا تمحوه الأيام، وكانت بحق: قدوة رائعة لمن أرادت أنْ تقتدي بها من جماعة النّساء في مجال الخيرات.

رضي الله عن زوجِ إسماعيل، وأدخلها في رحمتِهِ.

* * *

(١) تفسير القرطبيّ (٢/ ١٣١).

زوج النبي يعقوب عليه السلام

* هي أمّ النبي يوسف عليه السلام، وزوجٌ لحفيد إبراهيم عليه السلام.
* من الزوجات المؤمنات الصالحات القانتات العابدات.
* كانت مثالاً للزوجة الوفية العطوف الصابرة الراضية بقضاء الله وقدره.

زَوْجُ الكَرِيْـمِ:

* في حَيَاةِ نِسَاءِ الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ نلتقي إحدى النّسوة اللاتي كان لهنَّ الأثر الكريم في كلِّ مكرمةٍ.. وكُنَّ القدوة الحسنة لغيرهنّ في فضيلةِ الصَّبرِ، وفضيلة الإيمان والتَّسليم.

* هذه المرأةُ العظيمةُ هي زوجٌ لحفيدِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وزوجها هو النّبيُّ الكريم الذي بشّرتْ بهِ ملائكةُ الرّحمن جَدَّهُ خليل الرّحمن إبراهيم، وجدَّته الصِّدّيقةُ العابدة سارَّةُ ـ عليهم السَّلام جميعاً ـ.

* أمّا النّبيُّ الذي نتحدثُ عن زوجهِ فهو النّبيّ ابنُ النّبيّ ابنِ النّبيّ أبو الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهو يعقوبُ بنُ إسحاقَ بن إبراهيمَ خليل الرحمن.

* في الذّكْرِ الحكيم تكرر الثّناءُ على يعقوبَ مِراراً... قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ... ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ..﴾ [الأنعام: ٨٤].

وأثنى عليه الله سبحانه بالهدايةِ فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا... ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٥ـ ٤٧].

* وذكر الله عزَّ وجلَّ يعقوب في سورة يوسف بالآيات المشهورة وأثنى عليه. وفي السُّنَّةِ المطهّرة وصَفَهُ رسول الله ﷺ بالكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم، وهو أبو الكريم.

وفي هذه الذُّرية الطّيِّبةِ الأصول، المتطاول فرعُها في سماء الكرامة؛ يقول

النَّبيُّ المصطفى سيّدنا محمّد ﷺ: «إنَّ الكريمَ ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[1].

* وأمّا زوجُ يعقوب التي نعطّرُ الأسماعَ بسيرتها فهي راحيل[2] بنت لابان، وهي ابنة خال يعقوب ـ عليه السَّلام ـ وهي أمُّ النّبيّ الكريم يوسف ـ عليه السَّلام ـ.

* وفي سيرةِ راحيلَ زوج يعقوب إمتاعٌ للأسماع، وتهذيبٌ للنّفوسِ، وقدوةٌ للمؤمنات، وسميرٌ للعابدات، وأُنْسٌ للصَّابرات.

مَـهْـرُ رَاحِيْـلَ:

* عنـدما بلـغَ سيّـدُنـا يعقـوب سِنّ الـزَّواج، أشار عليه أبواه أنْ يتوجَّهَ إلى خالِـهِ «لابـان» في أرض «حَرَّان»[3] بالعراقِ ويخطب إحدى ابنتيه، فقد

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٧٤) في أحاديث الأنبياء، باب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ و(٤٦٨٩) في التّفسير، باب: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ومسلم (٢٣٧٨) في الفضائل. وانظر الدّر المنثور للسّيوطيّ (٤/ ٤٩٨) وتهذيب الأسماءِ واللّغات (٢/ ١٦٥).

(٢) غررُ التّبيان (ص ٢٨٤) والمعارف لابن قتيبة (ص ٤٠) والبداية والنّهاية (١/ ١٩٤) ومفحمـاتُ الأقـران (ص١٢٦) وتفسيـر المـاورديّ (٢/ ٢٤٥) والـدُّر المنثـور (٤/ ٤٩٩) وتفسير الصّاويّ (٢/ ١٩٩) وأيضاً (٢/ ٢١٣) و (٢/ ٢١٩) والكامل في التّاريخ (١/ ١٢٦) وأيضاً (١/ ١٣٨) وغيرها كثير من المصادر الأخرى.

(٣) «حَرَّان»: بتشديد الرّاء وآخره نون. يجوز بأنْ يكونَ فعلان من الحرّ. يقال: رجلٌ حرّان: أي عطشان وأصله من الحرّ، والنّسبة إلى حرانَ: حَرْنَاني.
وحران مدينة عظيمة مشهورةٌ في جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مُضر، بينها وبين الرّها يوم، وبين الرّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشّام والرُّوم.
قيل: سُمِّيت بهارانَ أخي إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لأنَّه أول مَنْ بناها فعُرّبتْ فقيل: حَرَّان. وذكر قوم أنّها أول مُدينةٍ بُنيتْ على الأرض بعد الطّوفان، وكانت منازلُ الصّابئة وهم الحرّانيون.
قال المفسرونَ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]: إنه أراد حرَّان. =

آمنتا بدينِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

* انطلقَ يعقوبُ ـ عليه السَّلام ـ من مَسْقَطِ رأسه في بلاد المقدس، وتوجّه نحو العراقِ مصحوباً بدعاءِ والدَيْهِ... إسحاق بن إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ وأمّه رَفْقَة بنت بتوئيل[1].

* وأوحى اللهُ سبحانه إلى يعقوبَ ما أوحى، وفضَّلهُ على العالمينَ، فقد أكرمه اللهُ، واصطفاهُ نَبيّاً من عبادهِ المؤمنينَ، إنَّه كانَ بعبادهِ خبيراً بصيراً.

* ولما قدمَ يعقوبُ على خاله في أرضِ حرّانَ، إذا له ابنتان وهما: «ليا» وهي الكبرى، و«راحيل» وهي الصُّغرى.

وكانت راحيلُ قد أُوتيتْ حظّاً مِنَ الذَّكاء والصَّفاء والنَّقاء، وكانتْ تفوقُ أختَها ليا في الحُسْنِ، فقد زادها الله بَسْطَةً في الجسم والجمال ـ كما تضافرت بذلك الرّوايات ـ.

* أمّا يعقوبُ ـ عليه السَّلام ـ فقد تقدَّمَ إلى خالِهِ وخَطبَ منه ابنته راحيل، وكان يعقوبُ إذ ذاك لا يمتلك مالاً كيما يقدّمه مَهْراً لابنةِ خالهِ راحيلَ؛ فسأله خاله: هَلْ مِنْ مالٍ أزوّجكَ عليه ابنتي راحيل؟!

= وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] هي حَرَّان.
فُتحت حرّانُ في أيامِ عمرَ بن الخطّاب على يد عياض بن غنم رضي الله عنهما، وذلك صُلحاً كما فتح مدينة الرُّها. (معجم البلدان ٢/ ٢٣٥ و٢٣٦) بتصرفٍ واختصار.

(١) رَفْقَةُ بنتُ بتوئيل زوج إسحاق ـ عليه السَّلام ـ وأمُّ يعقوب وجدّة يوسف ـ عليهما السَّلام ـ ورفْقَةُ هذه من حَرَّان من بلادِ العراق، وتذكر المصادر أنَّ سيّدنا إبراهيمَ أَمَر ابنه إسحاق أَنْ يتزوّج امرأة من عشيرته في العراق، فكانت رفقةُ هي زوج إسحاق وهي ابنة عمه وابنة شقيق إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.
وبعد زواج إسحاق من رفقة هذه، رُزِقَ بولدين توءمين وهما: العيص ويعقوب. وقد اختصّ الله سبحانه وتعالى سيدنا يعقوب بالنّبوة، واختص ابنه يوسف بالنّبوة من بين إخوته أيضاً.

فقال يعقوب: لا يا خالي، إنّني غريبٌ هنا كما تعلم، ولكنّي مستعدٌّ لما تطلبه مني. . . . وصَمَتَ يعقوب ـ عليه السَّلام ـ قليلاً، ثم تابع حديثه وقال: يا خالي، إنْ شئتَ أَنْ أخدمَك أجيراً حتى تستوفي صداق ابنتك: راحيل، فأنا على استعدادٍ لذلك.

* عندئذ قال له خاله ـ وقد ظهرت أماراتُ الرِّضا على وجهه ـ: قبلت؛ وإنَّ صداقَ راحيل أنْ تأجرني سبع سنين.

فقال يعقوبُ: قَبِلتُ، فزوِّجني راحيل وهي شرطي، ولك أن أخدمك سَبْع حجج. . . وأجاب لابانُ يعقوبَ على شرطه.

عندئذ قال يعقوب: ذلك بيني وبينك.

* ورأى يعقوب ـ عليه السَّلام ـ نفسه وهو يرعى لخاله سبعة أعوام كوامل، فلّما وفّى لخالهِ شرطه الذي اتفقا عليه، صنع خاله لابان طعاماً من أَجْلِ الزَّفاف، وجمع النَّاسَ عليه.

* وأقبل لَيْلُ ذلك اليوم، ودخل يعقوبُ خيمتَه، فألفى فيها زوجه، فلما تنفَّسَ الصُّبحُ، وأشرقتِ الأرضُ بنورِ ربِّهَا، وَجَدَ أنَّ خاله قد زوجه ابنته الكبرى ليا، بينما كان الشَّرطُ بينهما أنْ يزوّجَه صغراهما راحيل. . . .

فقال يعقوب: لا حول ولا قوة إلا بالله.

* وجاء خاله لابان مُغَاضِباً فقال له: لقد غَدَرْتَ بي، ولقد غررتَني وخدعْتَني، واستحللتَ عملي سبع سنين، وَدَلَّسْتَ عليَّ غير امرأتي، وإنَّما خطبتُ إليك راحيل، ولم أخطب ليا. . أليس كذلك؟!.

* فقال خاله: رويدك يا بن أختي، فأنا لم أخدعْكَ، إنّه ليس من عادتنا في هذه البلاد أنْ نزوِّجَ الصُّغْرى قبل الكبرى، وهل تريد أنْ تدخِل على خالِكَ العار والسُّبَّة بهذه الفِعْلَة؟!

قال يعقوب: معاذ الله. . .

فقال خاله: يا بن أختي إنْ أَحْبَبْتَ راحيل أنْ تكون زوجة لك فاعمل لي سبعة أعوام أُخَر.

* وانقضتْ سبع سنين، وُلِدَ ليعقوب خلالها ببضعة أولاد من زوجه ليا، وجاء اليوم الذي ينتظره يعقوب ورأى ليلة تحقيق حُلْمه، تلك الليلة التي قَطَعَ مِنْ أجلها مسافاتٍ طويلةٍ تحيطُ به العناية الإلهيّةُ ليقترنَ بتلكَ المرأة التي ستكون أمّ نبي ورسول كريم وزوج نبيّ ورسول كريم...

* وزُفَّت إليه راحيلُ ـ وكان إذ ذاك سائغاً وجائزاً في ملّتهم زواج الأختين[1] على ما يبدو، ثم نسخ ذلك فيما بعد في شريعة التّوراة ـ ويبدو أنَّ لابانَ خال يعقوب قد سَعِدَ بهذا الزَّواج من ابن أخته، فوهبَ لكُلٍّ واحدةٍ من ابنتيه جارية، فوهب إلى ابنته الكبرى ليا جارية اسمها «زلْفَى» ووهب للصُّغرى راحيل جارية اسما«بَلْهَى».

* وتشيرُ المصادر إلى أنَّ راحيلَ لمْ تنجبْ في بداية زواجها من يعقوبَ، وتأخَّر عليها الوَلَدُ زمناً، ورأتْ بأنَّ أختَها ليا قد أنجبتْ أربعة أولادٍ، وكادتِ الغيرةُ تلعبُ بها، عندئذ رأتْ أنَّ تَهَبَ لزوجها يعقوب جاريتها بلهى؛ ويبدو أنَّ ليا قد وهبتْ له جاريتها زلفى منافِسَةً لأختها راحيل، وولدت كلّ واحدة من الجاريتين ليعقوب...

* ولما رأتْ راحيلُ أنَّ أختها ليا والجاريتين زلفى وبلهى قد وَلَدْنَ لزوجها يعقوب، ولم تَلِدَ هيَ، توجّهتْ إلى اللهِ بجوارحها وقلبها، ودعته أنْ يَهَبَ لها غلاماً زكياً من يعقوبَ...

* واستجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ دعاء راحيل، وأجابَ نداءها، ورحم ضعفها، وأكرمها، فحملتْ من نبيِّ الله يعقوب، ثم ولدت له غلاماً عظيماً شَريفاً حَسَناً جميلاً مُخْلصاً سمّته يوسف؛ وكان يوسف ـ عليه السَّلام ـ أشبه النَّاس بجدّتِهِ

---

(١) لبعض المفسّرين رأيٌ لطيفٌ وعَرْضٌ طريفٌ في هذا المجال، وهو أنّه لما توفيتْ ليا، تزوّج يعقوب أختها راحيل، وهذا معقول، ويدخل الطّمأنينة والسّكينة إلى النّفس. انظر (الكشّاف ٢/ ٣٠٤) و(التفسير الكبير ١٨/ ٧٤).

لأبيه سارَّة زوج إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ولذا فقد كان أحبَّ أبناء يعقوب إلى قلبه.

* من الجدير بالذِّكْرِ أنّه كانَ ليعقوب ـ عليه السَّلام ـ اثنا عشر ولداً من أربعِ زوجات، وأولاد يعقوب من زوجاته على النَّحوِ التَّالي:

فأوَّلُ زوجاته «ليا» وقد رُزِق منها: روبيلَ، شمعون، لاوي، يهودا، إيساخر، وزابلون.

والثانية: «راحيل» ورُزِقَ منها: يوسف، وبنيامين.

والثّالثة: «بلهى» جارية راحيل ورُزِقَ منها: دان، ونفتالي.

والرَّابعة: «زلفى» جارية ليا ورُزِقَ منها: جاد وأشير[1].

* ومما ينبغي الإشارةُ إليه أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد خصَّ يوسف ـ عليه السَّلام ـ بالنّبوّة[2] من بين أولاد يعقوبَ ـ عليه السَّلام ـ ونخصُّ بالحديث هنا

---

(١) انظر قَصَصَ الأنبياء لابن كثير (ص٢٣٨ و٢٣٩) بشيء من التصرف. وانظر أسماء إخوة يوسف في فتح الباري (٦/ ٤٨٣).

(٢) جاء في القرآنِ الكريم بيان نبوّة يوسف على لسان أحد المؤمنين وهو يعظُ قومه ويذكّرهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا . .﴾ [غافر: ٣٤].
أما قول الله سبحانه: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ . . .﴾ [النّساء: ١٦٣] وما ذكرها في غيرها من أنَّ الأسباط قد أوحى الله تعالى إليهم، فليس المرادُ ـ هنا ـ أنّهم أولاد يعقوب الاثنا عشر هؤلاء أنبياء، بل المراد هنا حفدته وذراري أبنائه، والسّبط من اليهودِ كالقبيلة من العرب، وهم يرجعون إلى أبٍ واحدٍ، وقد أصبح كلّ واحد من أولاد يعقوب أباً لسبط من أسباط بني إسرائيل، فجميعُ بني إسرائيل انحدروا وتناسلوا من أولاد يعقوب الاثني عشر، فالمقصود أنّه قد ظهرت في هذه الأسباط النّبوة، فسبط لاوي فيه «موسى وهارون وإلياس واليسع» وسبط يهوذا فيه «داود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى» وسبط بنيامين فيه «يونس» عليهم السلام.
هذا وقد ترسّخ في أذهان كثير من النّاس أنَّ إخوة يوسفَ أنبياء كيوسف وأبيهم =

راحيل أمّ يوسف لتكون ضيفتنا في هذه الحلقة.

قِصَّـةُ رَاحِيْـلَ مَـعَ الأَصْنَـامِ[1]:

ظلّتْ راحيلُ مع زوجها يعقوبَ قرابة عشرين سَنَة وهم مقيمونَ في أرضِ العراقِ، وكانت راحيلُ تؤمنُ بالله عزّ وجلّ وتعبدهُ مع زوجها يعقوب، وكانت تكرهُ الأصنام التي كانت منتشرةً في بلادِ أبيها، وودَّتْ لو تستطيع تحطيم

= يعقوب، وفي هذا نظر، إذ لو كانوا أنبياء لما أقدما على الحَسدِ، والكذب، وإلقاء يوسف في الجبِّ، والإقدام على القتل والسّعي بالفساد، كلّ ذلك من الكبائر التي تنافي عصمة الأنبياء.

نقل ابن كثير ـ رحمة الله ـ في تفسيره عن محمّد بن إسحاق قال: لقد اجتمعوا على أَمْرٍ عظيم من قطيعة الرَّحم، وعقوق الوالد، وقلة الرَّأفة بالصّغير الضّرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحقِّ والحرمة والفضل، وخطره عند الله مع حقّ الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنّه ورقة عظمه، مع مكانه من الله ممنْ أحبّه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده، وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين.

إذن فالقول بأنهم أنبياء ـ مع ما ذكرنا ـ لا يقبله العقل، ولا تطمئن إليه النّفس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) «الأصنام»: مفردها صنم. وهذه المادة قليلة الدَّوران في العربية، حتى قال ابنُ فارس ـ رحمه الله ـ: الصّاد والنّون والميم كلمة واحدة لا فرع لها.

وقد يُفسَّرُ هذا أنّها معربة لا عربية الأصل، وبذلك قال القدماء والمحدثون، وإن اختلفوا في ذكر ما هو أصل لها على ما يبحث في موضعه. واختلف الأولون في بيان الصنم، والفرق بينه وبين الوثن وسواه، أو التّسوية بينهما مما لا مجال هنا للإطالة فيه.

ولعلَّ أجمع ما يقال في بيان الصّنم: أنَّه ما اتُّخِذَ إلهاً من دونِ الله، ويتوسعُ الرَّاغبُ ـ رحمه الله ـ: في ذلك فيجعل الصنّم هو: كلّ ما يشغل عن الله تعالى.

والمادة قليلة الدّوران في القرآن الكريم، لم يَرِدْ منها المفرد، وإنّما ورَدَ الجَمْعُ على أصنام، فقد وردت لفظة الجمع في القرآن الكريم خمس مرات في خمس سور وهي: الأعراف آية(١٣٨) والأنعام آية (٧٤) وإبراهيم آية (٣٥) والشّعراء آية(٧١) والأنبياء آية (٥٧).

جميع تلك الأصنام التي أضلّتْ كثيراً من النَّاسِ، وجرّتهم إلى طريق الغوايةِ، وأبعدتهم عن طريقِ الرّشادِ. . . . .

* أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى يعقوبَ أنْ يرجعَ إلى بلادِ أبيه وقومه في بلاد المقدس، ويترك أرض حران في العراقِ. . . .

* وهمسَ يعقوبُ إلى أهلهِ وأولاده ما أوحى إليه ربّه، فامتثل جميعهم أَمْره، وأجابوه مبادرين إلى طاعته، وفي مقدمتهم راحيل، عندئذ حَمَلَ يعقوب أهله وماله، وانطلق نحو بلاد أبيه، بينما أخذت راحيل أصنام أبيها لتقذفهم في مكان بعيد، أو تلقي بهم في أحد الأَنْهار، ولم يشعرْ أَحَدٌ بما صنعتْ راحيلُ.

* وأخذ الرّكبُ بقيادةِ يعقوب ـ عليه السَّلام ـ يسيرُ نحو القدس، فلمّا جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم، لحقهم خاله لابان وقومه ـ وقد فَقَد لابانُ أصنامَه ـ فلّما اجتمعَ لابان بيعقوبَ عاتبه في خروجه بغير علْمِه، وهلا أعلمه برحيلهم حتى يودِّعَ بناته وأولادهن، ثم سأله لِمَ أخذوا معهم أصنامه؟.

* ولم يكن عند يعقوب ـ عليه السَّلام ـ عِلْمٌ مِنْ أصنامِ خاله لابان، وأنكر أنْ يكونَ أخذوا له أصناماً، ودخل بيوت بناته وإمائهنَّ يفتشُ عن الأصنام، فلم يجد شيئاً، وكانت راحيلُ قد جعلتهن في بَرْدَعَةِ[1] الجمل وهي تحتها، فلم تَقُمْ، واعتذرت لمرضٍ ألمَّ بها فلم يقدرْ عليهن، وكان مصيرُ الأصنام إلى الدَّمار، وبهذه الطَّريقة استطاعت راحيل أنْ تزيلَ الأصنام من بيت أبيها، وتريح النَّاس من سوءِ منظرها.

* وجاء يعقوبُ إلى أبيه إسحاق ـ عليهما السَّلام ـ فأقام عنده في قرية «حَبْرُون»[2] التي في أرضِ كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ

---

(١) «البردعة»: هي ما يُوضع على الحمار أو البغل ليُركب عليه، كالسَّرج للفرسِ.

(٢) «حَبْرون»: اسمُ القريةِ التي فيها قبر إبراهيم الخليل ـ عليه السَّلام ـ بالبيت المقدس، وقد غلب على اسمها الخليل، ويُقال لها أيضاً: حَبْرى. ورُوي أنَّه أول =

وهناك في أرضِ حبرون حملت راحيلُ فولدت غلاماً هو بنيامين، وهو شقيقُ يوسف ـ عليه السَّلام ـ. وكان يوسفُ وأخوه أحبّ إلى يعقوبَ من سائرِ إخوته، وكان من قصَّتِه ما حكى الله تعالى في سورةِ يوسف[1] ـ عليه السَّلام ـ.

رَاحِيْـلُ وَرُؤْيَا يُوسُـفَ:

ارتمى يوسف في حضنِ أبيه يعقوب ـ عليهما السَّلام ـ وراحَ يقصُّ عليه ما رآه في الرُّؤيا، وقال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[2] [يوسف: ٤].

* كانت في نبراتِ يوسفَ لهجة مميزة جعلتْ يعقوبَ يضمُّه إلى صدرِهِ ويحتويه في حضنه، كأنّما يحميه من خَطَرٍ يوشك أنْ ينقضَّ عليه، إذْ لاحظ في نبراتِ إخوته الأحد عشر كراهية ليوسفَ، وقد بدت البغضاءُ الممزوجةُ بالحَسَدِ من أفواههم... بَيْدَ أنَّ يوسفَ لم يكن يعرف شيئاً عن هذا وإنّما أَخْبَرَ والده بالرؤيا، لأنَّه عَلِمَ بإلهام ربانيّ أو بتعليمٍ سابق مِنْ أبيه أنَّ للرؤيا

= مَنْ مات ودُفن في حبرون سارَّة زوج إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ثمّ دفن فيه إبراهيم إلى جنبها، ثم توفيت رفقة زوجة إسحاق ـ عليه السَّلام ـ فدفنت فيه، ثم توفي إسحاق فدفن فيه، ثم توفي يعقوب ـ عليه السَّلام ـ فدفن فيه، ثم توفيت زوجه ليا فدفنت فيه.
هذا وقدم على النّبيّ ﷺ تميمٌ الدّاريّ في قومه، وسأله أنْ يقطعَه حبرون فأجابه إلى ذلك، وكتب له كتاباً أعطاه فيه حبرون. (معجم البلدان ٢/ ٢١٢ و٢١٣) بتصرف.

(١) من قَصَصِ الأنبياء لابن كثير (ص٢٤٠) بشيء من الاختصار والتّصرف، ومن الجدير بالذكْر أنَّ اسمَ يوسف ـ عليه السَّلام ـ قد وَرَدَ في القرآن الكريم (٢٦ مرة) منها (٢٤ مرة) في سورة يوسف، وآية في سورة الأنعام، وآية في سورة غافر، وقد وصفه الله عز وجل بالصّديقيّة ولهذا يُسمى يوسف الصديق.

(٢) «ساجدين»: مِنْ سَجَدَ، يسجد سجوداً: وضع جبهته على الأرض.
وسَجَدَ: خضع وانقاد، واسم الفاعل: ساجد وهم ساجدون وسجود. ولفظ ساجدين ورد خمس مرات في القرآن الكريم، في سورة الأعراف آية (١٢٠) ويوسف آية (٤) والحجر آية (٢٩) والشعراء آية (٤٦) وص آية (٧٢).

تعبيراً. . . وعلمَ أنَّ الكواكبَ والشّمس والقمر كناية عن موجودات شريفة، وأنَّ سجودَ المخلوقات الشَّريفة له كناية عن عظَمِ شَأْنِهِ، وعُلُوِّ مكانته، وسمو كرامته.

* وقد تكلَّمَ المفسِّرون عن تعبيرِ هذه الرُّؤيا بأشياءَ كثيرة وآراء عديدة، مفادها أنَّ الأحد عَشَر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا ـ كما مرّ معنا ـ أحد عشر رجلاً سواه، وفسَّروا بأن: الشَّمس عبارةٌ عن أمِّهِ راحيل، وأمّا القمرُ فهو عبارة عن أبيه يعقوب ـ عليه السَّلام ـ.

* وللصَّاويِّ ـ رحمه الله ـ كلامٌ يفيضُ جمالاً وروعة في التَّعليق على هذا الموضوع فيقول:

حكمةُ تأويل أمِّهِ ـ راحيل ـ بالشَّمس، لأنها يظهرُ منها الأقمار وهم الأنبياء، وأبيه بالقمر، لأن القمر يُهتدى به في الظُّلَم، كذلك الرُّسل يُهتدى بهم في ظُلماتِ الجهل والشِّرْكِ، والأخوة بالكواكب، لأنَّ نورهم لا يبلغ نور أبيهم، إما لأنَّهم أنبياء فقط وليسوا برسل، أو أولياء فقط وليسوا بأنبياء[1].

* وقال الإمامُ البَغويُّ[2] ـ رحمه الله ـ في تفسيرهِ عن الأم والأب

---

(١) تفسير الصّاوي (٢/ ١٩٨ و١٩٩).

(٢) «البغويُّ»: الحسينُ بن مسعود بنِ محمد أبو محمد البغويّ الفقيه الشّافعيّ، يُعرف بابن الفراء، ويُلقب: محيي السّنّة، وركن الدين أيضاً. والبغويّ: منسوب إلى بَغا بفتح الباء؛ قرية بين هراة ومرد.
تفقّه البغويُّ على القاضي حُسَين وسمع الحديث منه، ونبغ في التّفسير والحديث والفقه حتى عده السُّبكي من علماء الشّافعية الأعلام، فقال عنه: كان إماماً جليلاً، وَرِعاً زاهداً فقيهاً، محدثاً مفسّراً، جامعاً بين العلم والعَمَل سالكاً سبيل السَّلف.
وقال عنه الدّاوودي: كان إماماً في التَّفسير، إماماً في الحديث، إماماً في الفقه، جليلاً ورعاً زاهداً، وقد بورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول الحسن بنيّتِهِ، وكان لا يلقى الدّرس إلا على طهارة، وكان قانعاً يأكل الخبز وحده، ثم عُذِل في ذلك، فصار يأكل بزيت.
له من التّصانيف «المصابيحُ» و«الجمعُ بين الصّحيحين» و«التّهذيبُ في الفقه» =

والأخوة: كان النُّجومُ في التَّأويل إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً يُستضاء بالنُّجوم، والشّمس أبوه، والقمر أمّه؛ قال ابنُ جُريج: القمرُ أبوه، والشَّمس أمُّه، لأنَّ الشَّمس مؤنثةٌ والقمر مذكر[1].

* وحينما سمع يعقوب من ابنه هذه الرؤيا ـ التي تعبيرها خضوع إخوته وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرّون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً ـ خشي أنْ يخبر أحداً مِنْ إخوته بها فيحسدونه على ذلك الفضل الذي اختصَّه الله به مِنْ دونهم، فيبغون له الغوائل نتيجة حسدهم.

* قال أبو حيان ـ رحمه الله ـ في تفسيره: فَهِمَ يعقوب من رؤيا يوسف ـ عليهما السَّلام ـ أنَّ الله تعالى يبلغه مبلغاً مِنَ الحكمةِ، ويصطفيه للنّبوة، وينعم عليه بشرفِ الدَّارَيْن، فخاف عليه من حَسَدِ إخوته، فنهاه أنْ يقصَّ رؤياه عليهم[2].

* ويبدو أنَّ راحيل كانت تشفقُ أيضاً على ابنها، فقد أخبرها يعقوبُ بحقيقةِ الرؤيا وتأويلها، فَزَادَ قلقها على يوسف، ورجَتْ يعقوب أن يَجدَ مخرجاً لهذا الأمْرِ، فقال يعقوب ليوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥].

* إنَّ قولَ يعقوب ـ هذا ـ ليوسف إنّما هو تحذير له؛ مع ثقته بأنَّ التّحذير

= و«معالمُ التّنزيل في التّفسير» ويمتازُ تفسيره هذا بأنّه قد صَانَه عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة، إلا أنَّ تفسيره لم يَخْلُ من بعض الإسرائيليات وبعض الحكايات التي لم يُحكم بضعفها أو وضعها، ولكن يبقى تفسير البغويّ من أمهات كتب التّفسير.
توفي البغويُّ في شوال سنة (٥١٦هـ) بمرو الروذ، وبها كانت إقامته وقد جاوز الثمانين ولم يحج ـ رحمه الله ـ.
(طبقات المفسّرين للداوديّ ١/ ١٦١ و١٦٢) و(طبقات الشّافعية لابن قاضي شهبة (١/ ٢٨٨ و٢٨٩).

(١) تفسير البغوي بهامش الخازن (٢/ ٢٦٢).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٨٠).

لا يثير في نفسه كراهة لإخوته، لأنّه وثق بكمال عقله، وصفاء سريرته، ومكارم خلقه.

* وبعد أن نبّه يعقوبُ يوسفَ ـ عليهما السَّلام ـ على أنَّ لرؤياه شأناً عظيماً يستتبع منافع، وحذّره إشاعتها المؤدية إلى كيد إخوته له، شرع في تعبيرها وتأويلها على وَجْه مفاده: يا بني، إنّه كما سخَّر اللهُ لكَ تلكَ الكواكب العظيمة مع الشّمس والقمر وأراكها ساجدةً لك، كذلك يختارك سبحانه ويصطفيك لنبوّته، ويعلّمك مِنْ تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمته بإرسالك والإيحاء إليك ولهذا قال له: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦] وهو أعْلَمُ حيث يجعل رسالته، ويعطيها لمن يستحقها بحكمته سبحانه.

* ولكنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى غالبٌ على أَمْرِه، وقد وقع من قصَّةِ يوسف وإخوته ما وقع، وما قد قصَّهُ اللهُ بأحسن القَصَص في القرآن الكريم، فقد أَفْرَدَ الله تعالى بذكر شَأْنهم سورة محكمة، بين فيها حَسَد إخوة يوسف لأخيهم يوسفَ على المنام الذي بشّره اللهُ تعالى فيه بغاية الإكرام، حتى طرحوه في الجبِّ، فخلَّصه الله تعالى منه بمن أدلى الدَّلو، ثم استُعْبِد، فألقى الله تعالى في قَلْبِ مَنْ صار إليه إكرامه، واتخاذه ولداً، ثم مراودة امرأة العزيز إياه على نفسه، وعصمة الله له منها، وكيف جعل عاقبته بعد الحبس، إلى ملك مصر، وما لحق يعقوب ـ عليه السَّلام ـ من الضُّر لفرط البكاء، وما لحق إخوة يوسف من السَّعي إلى مِصْرَ وحبس أحدهم نفسه، حتى يأذن له أبوه، أو يحكم الله له، وكيف أنفذ يوسف إلى أبيه قميصه، فرده الله به بصيراً، وجَمَعَ بينهم، فجعل كلُّ واحدٍ منهم بالنّعمة، سعيداً مسروراً بصاحبه، وخصوصاً يعقوب وزوجه راحيل وابنهما يوسف ـ عليه السَّلام ـ.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾:

* لن نتعرَّضَ إلى المراحل التي مَرَّ بها يوسف في حياته، فقد ذكر مفصَّلاً في سورة يوسف ـ عليه السَّلام ـ وإنّما نتعرضُ لتحقيق رؤياه من قبل،

وسجود أمّه وأبيه وإخوته له حينما أصبح عزيز مصر، وذلك بعد سنوات تزيد عن الثّلاثين، وتقتربُ من الأربعين على أصحِّ الأقوال.

* وخلال تلك الفترة الطويلة كان يعقوبُ ـ عليه السَّلام ـ يقاسي البلاء والحزن على ولده يوسف، ثم ما لبث أنْ جاءه الخبر بفَقْدِ ابنه الآخر بنيامين شقيق يوسف، بَلْ واسترقاقه، وكانت عينا يعقوب قد ابيضت[1] من الحزن وهو كظيم، وظلّ قلبه موصولاً بالله، وصَبَر صَبْراً جميلاً، وكان الرَّجاءُ والأملُ معقودان في قمّةِ صَبْرِه، وسَقَطَ شعاعٌ منَ الرَّجاء إلى قلبِ يعقوبَ يبشِّرهُ برحمةِ الله.

* هذا هو موقفُ يعقوب وحاله من شدّةِ الحزن، فما نتصوّر أن يكونَ موقف راحيل أمّ يوسف، وأمّ بنيامين الذي فُقِدَ فيما بعد؟!.

اللهُ أعلمُ أنَّ موقفَ راحيل لا يقلُّ عن موقفِ زوجها يعقوب ـ عليه السَّلام ـ إنْ لم يكن أكثر؛ لأنَّ الأمَّ ـ وخصوصاً راحيل ـ أكثر عاطفة من الأب نحو ولديها، لا سيما وأنَّ ليعقوب أولاداً من غير راحيل.

* وربما يسأل سائل: لِمَ لَمْ يذكرِ القرآنُ في سورة يوسف قصّة موقف أمّ يوسف حتى تكتملَ الصّورة! ولِمَ لم يُشرْ إلى أمّ يوسفَ؟

---

(١) يعجبني في هذا المقام ما علّق به أبو بكر الرازي ـ رحمه الله ـ على هذه الآية الكريمة: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: ٨٤] حيث قال: فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ والحزن لا يحدث بياض العين لا طبّاً ولا عرفاً!.
قلنا: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من الحزن: أي من البكاء، ولأنَّ الحزن سبب للبكاء، فأطلق اسم السّبب وأراد به المسبب، وكثرة البكاء قد تحدث بياضاً في العين يغشىَ السواد، وهكذا حدث ليعقوب ـ عليه السَّلام ـ.
وقيل: إذا كثرت الدموع محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر.
وقال الصّاويُّ ـ رحمه الله ـ: ضعف بصره من كثرة البكاء، واتصال الدّمع بعضه ببعض، ولم يكن عمي حقيقة، بل من كثرة البكاء صار على إنسان العين غشاوة مانعة من النظر، ولم يذهب أصلاً.

* فالجوابُ: إنَّ ذِكْرَ موقف الأمّ ليس من الشُّروط الأساسية في اكتمال القصة القرآنية هنا، إذْ إنَّ القصّةَ مكتملةٌ بهدفها الذي جاءت منْ أجله، فالقضية هنا قضية يعقوب مع أبنائه في أنّهم شعروا بحبِّه وميله الزّائد ليوسفَ، وليس هي قضية أمّ يوسف حيث إنَّ غير يوسف وبنيامين ليسوا بأبنائها، ومن الطّبيعي والمسلّم به أنْ يكونَ ميلها إليهما أكثر من أولاد زوجها يعقوب، ولا تُلام على ذلك الشُّعور.

* وأمّا الإشارة إلى أمّ يوسف، فأعتقد أنَّ القرآن الكريم أشار إليها في أكثر من موضع في سورةِ يوسفَ إشارة يُفهم منها أنَّ المقصودَ بذلك هي أمّ يوسف.

* فعندما أَمَرَ يوسف إخوته أنْ يأتوا بأهلهم أجمعين من بلاد القدس إلى أرض مصرَ، خرج ليلتقي بأبيه وأمّه اللذيْنِ لم يرهما منذ أربعين سنة على وَجْهِ التّقريب، وقد عَلِمَ ما عَلِمَ منْ حالِهما لفراقه.

* ومن إكرام يوسف لأمّه وأبيه أنْ أجلسهما على سريره المخصَّص له، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] إذْ لا يفوق الأمّ والأب شيءٌ منْ أمورِ الدنيا، ولا يعلو على حقّهما سوى حقّ الله تعالى.

* ومن الملاحظ هنا أنَّ لفظ «أبويه» المرادُ به: الأب والأمّ، ولكنْ أُطلِقَ هذا اللفظُ عليهما منْ بابِ التَّغليب. قال ابنُ جرير ـ رحمه الله ـ في تفسير أبويه: أباهُ وأمّه، لأنَّ ذلك هو الأغلب في استعمال النّاس والمتعارف بينهم في الأبوين[1].

* وأودُّ أنْ أشيرَ هنا إلى أنَّ بعض المفسّرين ذكروا أنَّ راحيلَ أمَّ يوسف ماتتْ قديماً من قبلُ عندما ولدت بنيامين، وأنَّ المرادَ بأبويه في سورة يوسفَ إنّما هما أبوهُ وخالتُه... بَيْدَ أنَّ محمَّد بن إسحاق ومحمّد بن جرير الطبريّ ـ رحمها الله تعالى ـ يأتيانِ بما يتوافقُ مع القرآن الكريم والذّكْرِ الحكيم، وبما

---

(١) انظر تفسير الطبريّ (١٣/ ٦٧).

تطمئنُ إليه النّفس، قالا: كان أبوه وأمّه يعيشان[1].

قال ابن جرير الطبريّ: ولم يقمْ دليلٌ على موت أمّهِ، وظاهر القرآن يدلُّ على حياتهما.

قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: وهذا الذي نَصَرهُ ابنُ جرير هو المُتَصَوَّرُ الذي يدلُّ عليه السِّياق[2].

* ويبدو لي ـ والعلم عند الله ـ أن الراجحَ بقاء أمّ يوسف حيّةً إلى أنْ دخلتْ مصرَ، وتحقّقَتْ رؤيا يوسف ـ عليه السَّلام ـ من قبلُ؛ لأنَّ رؤيا الأنبياء وحيٌ كما وَرَدَ في الحديثِ الصّحيح.

* وأمّا السُّجود ليوسفَ ـ عليه السَّلام ـ فقد كان هذا سائغاً في شريعتهم، وهو كالتحيّة.

* وقد ذَكَرَ المفسِّرون أقوالاً كثيرة في كيفيّةِ ذلك السُّجود كالانحناء والرّكوع والإيماء بالرأسِ وما شابه ذلك.

* قال القُرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: وأجمع المفسّرون أنَّ ذلك السُّجودَ ـ على أي وَجْهٍ كان ـ فإنّما كان تحيّة، لا عبادة[3].

قال قَتَادةُ ـ رحمه الله ـ: هذه كانت تحيّة الملوكِ عندهم[4]،

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٨) وانظر: تاريخ الطبري (١/ ٢١٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٨).

(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٢٦٥).

(٤) للقرطبيّ ـ رحمه الله ـ تعليقٌ لطيفٌ على التّحية والانحناء، يشير إلى حَصَافةِ رأيه ورجاحة عقله، يقول: هذا الانحناء والتكفّي الذي نسخ عنا، قد صار عادة بالدّيار المصريّة، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض، حتى إنّ أحدهم إذا لم يُقَمْ له وَجَدَ في نفسِهِ كأنّه لا يُؤْبَهُ به، وأنّه لا قَدْرَ له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرّؤساء، نكبوا عن السُّنن، وأعرضوا عن السَّنَن.
(تفسير القرطبي ٩/ ٢٦٥).

وأعطى الله هذه الأمة السَّلام تحية أَهْل الجنّة.

وقال أبو بكر الرّازي[1] ـ رحمه الله ـ في تفسيره: كان السّجودُ عندهم تحيةً وتكرمةً، كالقيام والمصَافحة عندنا، وقيل: خرّوا سجّداً لله تعالى شكراً لله تعالى على جَمْعِ شملهم به[2].

مَعَ الصَّابِراتِ الخَالِدَاتِ:

* لعلَّ راحيلَ واحدةٌ من نساءِ الأنبياء اللاتي سجّل التَّاريخُ مواقفها العطِرة في مجالاتٍ خيرة متعددة، فقد كانت خير امرأة في كلّ موقفٍ، كانت مثال الزّوجة الوفية، ومثال الأم العطوف، ومثال العابدة الشّاكرة، والصَّابرة المؤمنة.

* ويبدو أنَّ شهرتها انطلقتْ من شهرة ابنها يوسف ـ عليه السَّلام ـ وعما حدث له ما حدثَ من قصَّة شائقة عظيمة، كانت راحيلُ خلال أحداثها مُسَلِّمة

---

(١) «الرّازيُّ»: محمّد بنُ أبي بكر بن عبد القادر الرازيّ زين الدين أبو عبد اللهِ، لغويّ مفسِّرٌ، أديبٌ، من فقهاء الحنفية، أصله من الرّي وإليها يُنسبُ، زار مصر والشّام، وهو صاحب «مختار الصّحاح». في اللغة؛ ذلك القاموس المشهور.
من آثاره: «الذّهبُ الإبريز في تفسير الكتاب العزيز» و«روضةُ الفصاحة» و«زهرُ الرّبيع من ربيع الأبرار» وتفسير اسمه: «أنموذجٌ جليلٌ في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل» وهو من التّفاسير القيمة التي اعتمدتُ عليها وأحبّ مطالعتها.
ويمتازُ تفسير أبي بكر الرازيّ بأنّه حلّ لبعض الوجوهِ يَرِدُ حولها سؤالٌ أو يقعُ فيها إشكالٌ أو يُحتمل أن تكون محلَّ نظر لسبب من الأسباب المتعلّقة بأسباب النّزول أو بالأحكام أوباللغة أو بالبلاغة أو بغير ذلك مما يكون التّفسير أو التّوضيح جواباً له.
وقد اقتبس الرازيّ ـ رحمه الله ـ معلوماته من كُتُب العلماء والمفسّرين من ناحية، ومن ناحية أخرى ما تفتّق عنه ذهنه بعد المدارسة والبحث والتّنقيب والمذاكرة مع صديق له من أهل العلم والفهم والصّلاح والتقى وسلامة الفطرة ووقادة الذّهن والاجتهاد والعناية بكتاب الله عزّ وجلّ.
توفي الرّازيّ بعد سنة (٦٦٦هـ) رحمه الله.
(الأعلام ٦/ ٥٥) و(معجم المفسرين ٢/ ٥٠١) بتصرف.

(٢) تفسير أبي بكر الرازيّ (ص ٢٣١) مختصراً.

مستسلمة لقضاء الله مع زوجها يعقوب، بل وابنها يوسف.

* يقول الشّيخ عبد الرحمن السّعديُّ في تفسيره: إنَّ هذه القصّة ـ قصة يوسف وراحيل وأبيه وإخوته ـ من أحسن القَصَصِ وأوضحها وأَبْيَنها؛ لما فيها من أنواع التّنقلاتِ من حَالٍ إلى حَالٍ، منْ مِحْنَةٍ إلى مِحْنَةٍ، ومن محنةٍ إلى مِنْحَةٍ ومنَّةٍ، وذلّ إلى عزٍّ، ومن رقٍّ إلى مُلْكٍ، ومن فرقة وشَتَاتٍ إلى اجتماع وائتلاف، ومن حُزْنٍ إلى سُرورٍ، ومن رخاءٍ إلى جَدْبٍ، ومن جَدْب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سَعَةٍ، ومن إنكار إلى إقرار فتبارك مَنْ قصّها فأحسنها ووضّحها وبيّنها.

* ويتبادرُ إلى ذهني أنَّ راحيلَ أصبحت أمّ مَلِكٍ مِنْ أعظم ملوك الأرض، ولكنّها لم تَنْسَ أنّها زوجُ نبيّ وأمّ نبيّ، وظلّت شاكرة عابدة لما أنعم الله عليها وعلى زوجها وابنها من فَضْل وجمع شَمْلٍ بعد مدّة طويلة، بل ويأْسٍ من الاجتماع، ورأتْ حُسْن عاقبة الصَّبر في الدُّنيا، وما أعدَّ اللهُ لها من إكْرامٍ في ولدها الذي اختصّه الله عزّ وجلّ بالنّبوّةِ.

* ويبدو أنَّ السَّيدةَ راحيل عاشت في كَنَفِ ابنها في نعمة عظيمة بعد أن أتوا من البادية...

* أورد ابنُ كثير قولاً يتوافق مع الذي ذكرناه فقال:

كانوا ـ يعقوب وأهله ـ منْ أهل بادية وماشية حيث كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشّام...

* وللإمام الرازيّ ـ رحمه الله ـ كلامٌ جميل حولَ العناية الإلهية التي اكتنفتْ راحيل وزوجها وإخوة يوسف، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

أي: إنَّ حصولَ الاجتماع بين يوسف وأبويه ـ يعقوب وراحيل ـ وإخوته مع الألفة والمحبّة، وطيبِ العيش، وفراغ البال، كان في غاية البعد عن

العقول، إلا أنّه تعالى لطيفٌ، فإذا قضى وأراد شيئاً سهّل أسبابه، فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول.

وتابعتْ راحيلُ حياتها في كَنَف ولدها يوسف إلى أنْ لقيتْ ربَّها وهي راضية مرضية[1].

* رحمَ الله راحيلَ أمّ يوسف ورضي عنها، وقبل أنْ نودّعَ سيرةَ هذه المؤمنة الخالدة، تعالوا لندعو الله بكلّ خضوع وخشوع بما دعاه ابنها يوسف ـ عليه السَّلام ـ وهو في موقف الظَّفر والنَّصر إذ قال: ﴿... فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. صدق الله العظيم.

* * *

(١) أشارتْ بعضُ المصادر أنَّ راحيل قد توفيت في فلسطين عندما ولدت ابنها بنيامين، ـ وهذا لا يتفق مع ما ذكرناه ـ ولكنّه في بلاد فلسطين اليوم مقام للسّيدة راحيل، وهذا لا يعني أنّها توفيت هناك، فلا نستطيع أنْ نجزمَ بذلك، فربما رجعت راحيل من مصر إلى فلسطين وتوفيت هناك وهذا محتمل.
ويبدو أنَّ الشّيخ عبد الغني النابلسي ـ رحمه الله ـ قد أشارَ إلى قبر راحيل في بيت المقدس، ولكنْ مع هذا نتوقّف عن الجزم بأيّ شيء، يقول النّابلسي: فمررنا على قبة راحيل.... وهي أمّ يوسف الصّديق ـ عليه السَّلام ـ فوقفنا عند ذلك القبر العظيم، وقابلناه بالإجلال والاحترام والتكريم، وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى بما تيسَّر لنا من الدعاء، والله بصير بمَنْ سعى.
قال الحنبلي في تاريخه: قبة راحيل بجانب الطريق بين بيت لحم وبيت جالا في قبة موجهة إلى جهة الصخرة وهي مشهور تزار.
انظر كتاب (الحضرةُ الأنسيّةُ في الرّحلةِ القدسيةِ ص٢٤٧) لعبد الغني النابلسيّ.

زوج النبي أيوب عليه السلام

* كانت من النساء القدوة في الإخلاص وطاعة الزوج والصبر على البلايا.
* كانت عابدة، حامدة، شاكرة.
* لم تترك زوجها أيام الشدة، بل صبرت، فوفّقها الله تعالى إلى حلاوة طاعته.

رَبـيْـعُ الأَبْـــرارِ:

* الصَّبْرُ مطيةٌ لا تكبو، وأفضل عدّةٍ على الشِّدَّةِ، وأكرم وسيلة لنيلِ رضاء الله عزَّ وجلَّ، والحصول على الآمال الطّيِّبة المعقودةِ بمرضاةِ اللهِ. . ما أجمل الصَّبر! إنَّه ربيعُ الأبرارِ، ومَصْيَفُ الأخيار. . . .

* وإذا كان الصَّبرُ قوامَ الحياةِ كلّها، فإنَّه ألزمُ ما يكون في ساعةِ المحنِ التي يبتلي الله تعالى عبده بها، فهنا يكون الصَّبْر مفروضاً عليه، لتنقلبَ المحنةُ في حقِّهِ إلى مِنْحة، وتتحوّل البليّة إلى عَطيّة، وكما يقول ابنُ قيّم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه اللطيف «الوابل الصّيِّب»: إنَّ الله سبحانه وتعالى لم يَبْتلهِ ليهلكه؛ وإنّما ابتلاهُ ليمتحنَ صبره وعبوديته.

* ونعيشُ الآن في هذه الصَّفحات مع زوجِ نبيٍّ كريم، شَهِدَ لها تاريخها بوفائها وصبرها وصلاحها وصدقها، وكانت من قدوات النِّساء في مجالِ الإخلاص وطاعة الزَّوجِ والائتمار بأمره الذي وَصَلَهُ ووَصَلَها بطاعة الله عزَّ وجلَّ.

* وقبل أنْ نعرفَ شيئاً عن سيرةِ هذه المرأة. . لا بد أنْ نعرفَ مَنْ هو هذا النّبيّ الكريم الذي تشرّفتْ بهِ.

* إنّه أيوب ـ عليه السَّلام ـ وهو منَ الأنبياء الكرام الذين ذكر القرآنُ الكريم نبوّتهم، وتحدَّث عنها في أربعة مواضع.

وقد ذكره الله عزَّ وجلَّ في عداد مجموعة الرُّسل الذين يجبُ الإيمانُ بهم تفصيلاً، وهو من ذريّة إسحاقَ بنِ إبراهيم[1] ـ عليهما السَّلام ـ، بدليل قوله

---

(١) انظر: مختصرتاريخ دمشق (٥/ ١٠٥) وتاريخ الطّبريّ (١/ ١٩٤) والبداية والنّهاية (١/ ٢٢٠) والكامل لابن الأثير (١/ ١٢٨) وغيرها من المصادر الحديثيّة وكتُب التّفسير، وقد ورد اسم أيوب في سورة النّساء والأنعام والأنبياء وص.

تعالى عندما تحدَّثَ عن سيّدنا إبراهيم في سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ﴾ [الأنعام: ٨٤] فالضّمير هنا عائدٌ على إبراهيم[١] عليه السَّلام.

* وأيّوب منَ الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النِّساء في قوله عزَّ وجلَّ ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: ١٦٣].

* أما زوجُ أيوبَ التي يطيبُ الحديث عنها في هذه الصَّفحات فهي «ليا بنت يعقوب»[٢] وقيل: ليا بنت منشا بن يعقوب. وقيل: اسمها رحمة بنت أفراثيم، واستدلّ بعضهم بقوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ معلِّقاً على هذا بقولٍ يشيرُ إلى فَهْمِهِ، وكمال إحاطته بعلوم التَّفسير وحسنِ التّأويل:

ومَنْ فهم مِنْ هذا اسم امرأته فقال هي «رحمة» مِنْ هذه الآية فقد أبعدَ النَّجعة، وأغْرقَ النَّزع[٣].

* والحقيقة أنَّ اسمها لا يهمنا بقَدْر ما تهمنا مواقفها العطرة التي خلَّدتْها وجعلتها من نساء الأنبياء الخالدات؛ اللاتي تركن أنْصعَ الآثار في دنيا النّساء الفُضْليات.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (ص٢٨٠) بشيء من التصرف.

(٢) انظر في هذا: فتح الباري (٦/ ٤٨٦) وتاريخ الطّبريّ (١/ ١٩٤) والكامل في التّاريخ لابن الأثير (١/ ١٢٨) وتفسير القرطبي (١٥/ ٢٠٩) والبداية والنّهاية (١/ ٢٢١) وغيرها من المصادر الأخرى.

(٣) قصص الأنبياء (ص٢٨٥).

لَيَا وَحَيَاةَ النَّعِيْمِ:

* أيوب ـ عليه السَّلام ـ أحد أغنياء الأنبياء ـ كما ورد في بعض المصادر ـ وكانت ليا زوج أيوب تعيش في نعيم وجنّاتٍ وعيون، وذلك في بلاد الشَّام. . . .

* كانت ليا قد آمنتْ مع أيوبَ وبدعوته، ومن الجدير بالذكْر أنَّه لم يؤمن بدعوةِ أيوب ونبوته إلا ثلاثة نفر[1].

* أمّا عن مكان نشأة أيوب ـ عليه السَّلام ـ فقد ذكر ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ أنَّ أيوبَ ـ عليه السَّلام ـ كان يسكن بالشَّام، وديره معروف بناحية بلد تدعى «البَثَنِيّة»[2] من نواحي دمشق بقرب نوى من أرض حَوْرَان، وموضع مسجده ومُغْتَسله وأندرته[3] بتلك القرية معروف[4].

* قال علماءُ التَّفسيرِ والتّاريخ وغيرهم ما ملخّصه:

كان أيوبُ ـ عليه السَّلام ـ رجلاً كثير المال، آتاه اللهُ جملةً عظيمةً من الثَّروة، فقد أنعمَ اللهُ عليه من سائرِ صنوفِ أنواع النّعم، وفي مقدمتها الأراضي المتسعة الخصبة، فقد وَرَدَ أنَّه كانت له البَثَنِيّة بأسرها؛ سهلها وجبلها، وكانت له من الخيل العِتَاق ما يدهش الأبصار، كما كانت له أعداد وفيرة من الإبل والبقرِ والغنم وسائر الماشية، وقد ذكر الإخباريون أنَّه كان لأيوب ألف شاة برعاتها، ناهيك بالعبيد الذين يقومون برعايةِ الأرض وخدمة الأنعام.

---

(١) تاريخ الطّبريّ (١/ ١٩٥) وتفسير القرطبي (١٥/ ٢٠٨).

(٢) «البثنية والبثنة»: اسم ناحية من نواحي دمشق، وكان النّبيّ أيوب عليه السَّلام منها. (معجم البلدان ١/ ٣٣٨).

(٣) «الأندرة»: جمع أندر، وهو البيدر.

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٠٥) بتصرف يسير، قال المسعوديّ في مروجه: وهو المسجد والعين على ثلاثة أميال من مدينة نوى أو نحو ذلك، والحجر الذي كان يأوي إليه في حال بلائه هو وزوجته في ذلك المسجد إلى هذا الوقت (مروج الذهب ١/ ٤٨).

* وكان أيوبُ ـ عليه السَّلام ـ برّاً تقياً رحيماً، يحسنُ إلى المساكين، ويكفلُ الأيتام والأرامل، ويكرم الضّيف، ويبلّغُ ابن السَّبيل، وكان شاكراً لأنعمِ الله عليه، مؤدياً لحقِّ الله عزَّ وجلَّ.

* وكان لأيوبَ ـ عليه السَّلام ـ أولادٌ وأهلون كثير، وكانت زوجه ليا ترفلُ في هذا النَّعيم، شاكرة عابدة عارفة حقَّ الله على العباد في الشَّكرِ، فقد كانت تكثُر الحمدَ والشّكر والثّناء على الله عزَّ وجلَّ، إذ رزقها من البنينَ والبناتِ ما تقرُّ بهِ عينها ولا تحزن، وأوسع عليها وعلى زوجها من الرِّزق شيئاً مباركاً، وفضّلهما على كثير مِنْ خلقه.

* كانت ليا تدركُ أنَّ سِرَّ بقاء النّعمة هو شكرها... فكانت دائمة الذّكر والحمد، تؤدي إلى كلِّ ذي حقٍّ حقّه، فتواسي عباد الله وتَبَرُّ بهم، وتحسنُ إليهم، وتستنيرُ بذلك في ضوء إرشاد زوجها نبيّ الله أيوب ـ عليه السَّلام ـ.

* إلا أنَّ زوجَ أيوب« ليا» خضعتْ لامتحانٍ رباني فيما آتاها اللهُ وزوجَها، فنجحتْ في هذا الامتحان بتوفيق من الله، وبرهنتْ على صدقها مع اللهِ سبحانه، ووفائها لزوجها الذي أثنى عليه ربّه أجمل ثناء، وخصه بفضيلةِ الصَّبر التي تجعل صاحبها منَ الذين يدخلون الجنَّة بغيرِ حساب جزاءً وفاقاً من الله الذي وعد الصَّابرين بهذا.

صـدّيْـقَـةٌ بَـارّةٌ:

* ارتقتْ ليا زوج سيدنا أيوب ـ عليه السَّلام ـ منزلة مباركة وعالية في مقام الصِّدق، واقتعدتْ مكاناً عليّاً في منازل الأبرار، حيثُ عاشت مع زوجها في محنتهِ التي امتدت بجناحيها قرابة ثماني عشرة سنة، وكانت مثال المرأة البارّة ومثال الزّوجة الصّابرة الرّاضية بقضاءِ الله وقَدَرِهِ....

* كانت ليا تقتبسُ مِنْ زوجها صفاءَ نفسه، وحسن عبادته، ومعاملته لربّه سبحانه، فقد ورد أن أيوبَ كان أَعْبد أهل زمانه، وأكثرهم مالاً، وكان لا يشبعُ حتى يُشْبعَ الجائع، ولا يكتسي حتى يكسو العاري، وكان عبداً صالحاً.

أمّا عن شريعة أيوبَ ـ عليه السَّلام ـ فقد كانت شريعته بعد التّوحيد؛ إصلاح ذات البين، وإذا طلب حاجة إلى الله عزَّ وجلَّ خرَّ ساجداً، ثم طلب ما يريد[1].

* وكانت ليا زوجه ترى هذه الخصال الحميدة المحمودة في أيوب، فتقتدي به، وتهتدي بهديه، لتكون ممن يفوزُ بمرضاةِ الله عزّ وجلّ.

* ولكنَّ حالَ أيوبَ تغيَّر وتبدَّل، إذ سُلِبَ من جميع ماله، وأرضه وأملاكه.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ ضُرِبَ أيوب بالبلاء ثم البلاء بعد البلاء بذهاب الأهل والمال[2].

* وَصَبَرَ أيّوب ـ عليه السَّلام ـ وصبرت زوجه ليا صَبْراً جميلاً، فقد تعوّدت أنْ تكِلَ أمرها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ...

إلا أنَّ أيوب ـ عليه السَّلام ـ قد ابتُلي[3] ابتلاء آخر، فقد ابتُلي في جسده، ومسّه الضُّر، وطال بلاؤه ومرضه أياماً وأعواماً، وهو في ذلك كلّه صابِرٌ محتسب، ذاكر الله في ليله ونهاره، وصباحه ومسائه، وفي كلِّ وقت.

* طال مرضُ أيوب ـ عليه السَّلام ـ حتى كاد ينقطع عنه النّاس، ولم يبقَ أحدٌ يحنو عليه سوى ليا زوجه، فقد كانت ترعى له حقّه، وتعرف قديمَ إحسانه إليها، وشفقته عليها عندما كان في بحبوحةٍ من العيش، وبسطة من الصّحة والجسم.

* تذكرت يوم كانت تُجبى إليها خراج قرية البَثَنيّة، وترى أمامها بيادر

---

(١) انظر مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٠٥) بتصرف.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٠٦). وما أجمل قول الشّاعر في هذا المجال:
وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعٌ ولا بدَّ يوماً أنْ تُرَدّ الودائعُ

(٣) «ابتلي»: من بلو. يقال: بلوتُ فلاناً، أو بلوتُ كذا أبلوه ـ من باب نصر ـ بَلْواً، وبلاء، وأبليته وابتليته: كل ذلك بمعنى امتحنه واختبره، ويكون بالخير والشّر، والنّعمة والنقمة.

زوجها وهي مملوءة بالخيرات مما أنعم الله عليهم مِنْ فضله وبركاته. . . كانت تَرِدُ على خيالها تلك اللحظات الطيّبة، وتنظرُ إلى زوجها أيوب الذي يجالد المرض ويصبر صبراً جميلاً، فتُقَرِّرُ أنْ تتابعَ خطوات الخير والواجب للعبد الأوّاب أيوب، وتنال بذلك شرف خدمته.

* في العشيِّ والإبكار كانت ليا تتردّد على زوجها الذي اعتزله الأصحاب، ونأى عنه الأقرباء، فباتَ مشغولاً موصولاً باللهِ. كانت ليا ترى كلَّ هذا فتزداد رغبةً في خدمتهِ والقيام على شَأْنِهِ، وتعينه على قضاءِ حاجته، وتقومُ بمصلحته، واستمرّتْ على ذلكَ حتى ضَعُفَ حالها، وقلّ مالها، وظلّتْ كذلك وهي صابرةٌ معه على ما حلَّ بها وبهِ من فراق المال والولد، وما يختصُّ بها من المصيبة بالزَّوجِ، وضيق ذات اليد بعد السَّعادة والنّعمة والخدمة.

ولهذا وصفها ابن كثير ـ رحمه الله ـ بقوله: الصَّابرة، المحتسبة، المكابدة، الصّديقة، البارّة، الرّاشدة، رضي الله عنها[1].

ادْعُ اللهَ أنْ يَـشْفِيَـكَ:

* كانت زوج أيوبَ ـ عليه السَّلام ـ تدرك أنَّ الله عزَّ وجلَّ يمتحنُ عباده المقرّبين بما شاء لرفع درجاتهم عنده، وليجعلهم قدوة في الصّبر على المكاره والصَّبر على قضاء الله عزّ وجلّ، وقد ثَبَتَ في الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياء[2]، ثم الصَّالحون ثم الأمثل فالأمثل»[3].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (ص٢٨٦).

(٢) نستطيع أنْ نفهم مِنْ هذا أنَّ الله سبحانه امتحنهم بالبلايا، وألقى عليهم الصّبر والمحبّة، فشاهدوا عطاء الله عزّ وجلّ في تلك البلايا، فصارت البلايا عطايا، والبلاء اختباراً وامتحاناً للأنبياء والصَّالحين؛ ليرقيهم الله به أعلى الدّرجات، ولله درّ مَنْ قال:

تلـذُّ لـي الآلامُ مُـذْ أنـتَ مُسْقمـي ... وإنْ تمتحنـي فهـي عنـدي صنـائـعُ

(٣) رواه الطّبراني عن أخت حذيفة بن اليمان، فاطمة أو خولة، ورمز السّيوطيّ لحسنه. انظر (فيض القدير ١/ ٥١٩).

* وقال النَبيُّ الحبيبُ ﷺ: «يُبْتَلى الرَّجل على حسبِ دِينِهِ، فإنْ كان في دِيْنه صلابة زِيْد في بلائه»[1].

* وصبر النَّبيُّ الكريمُ أيوب ـ عليه السَّلام ـ، ولم يزدْه البلاء وشدّته إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً، حتى إنَّ المثلَ ليُضْرَب بصبره ـ عليه السَّلام ـ، ويُضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا.

* وكان سيّدنا أيوبُ ـ عليه السَّلام ـ أشدّ النّاس صبراً وتحمّلاً للمكاره، وأرضاهم بقضاء الله وقدره، وأحسنهم تسليماً واستسلاماً لأَمْرِ الله... كان مطمئن القلب، رضي النّفس، عارفاً بالله حقَّ المعرفة، وكأنَّ الشَّاعر عناه بقوله:

أرحْ قلبَكَ العاني وسلِّم له القَضَا
تَفُز بالرضا فالأصل لا يتحول

علامة أهل اللهِ فينا ثلاثة:

أمانٌ وتسليمٌ وصَبْرٌ مجمّلُ

وأمّا ليا زوجه، فقد أشفقتْ عليه إشفاقاً شديداً ورثتْ لحاله، فلما رأتْ أنَّ زوجها أيوب قد طال عليه البلاء، ولم يزْدَدْ إلا شكراً وتسليماً، عندئذ تقدّمت منه وقالت له فيما رواه ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنه ـ: يا أيوب، إنّك رجلٌ مجاب الدّعوة، فادعُ الله أنْ يشفيَك.

فقال: كنّا في النَّعماء سبعين سنة، فدعينا نكون في البلاء سبعين سنة[2].

* وقال السُّديُّ ـ رحمه الله ـ: إنَّ امرأةَ أيّوب قالت له:

يا أيوب؛ لو دعوتَ ربّك لفرَّجَ عنك!.

---

(١) رواه الترمذيُّ (٢٣٩٨) في الزّهد، باب: ما جاء في الصّبر على البلاء، وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٠٢٣) في الفتن، باب: الصّبر على البلاء، وأحمد في المسند (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٠٧).

فقال: قد عِشْتُ سبعينَ سَنَة صحيحاً، فهل كثير لله أنْ أَصْبِرَ له سبعين سنة[1].

* ولمّا سمعتْ ليا من زوجها أيوب هذا الكلام الذي ينضحُ بالإيمان والتّسليم والانقيادِ لله، جزعتْ من ذلك، ورأتْ بعينِ بصرها وبصيرتها أنَّ زوجَها قد ضرب مثلاً شروداً في الصَّبْرِ، وفي الخضوع لأَمْرِ الله وقضائه وقدره، والركون إلى المشيئة الإلهيةِ، وعرفت أنّها لن تدركَ منزلته، أو ترقى إلى المكان الذي اقتعد فيه بمجال الصَّبر، ولكنها استمرتْ في الإحسانِ إليه، وحفظت ودَّه لإيمانها بالله تعالى وبرسوله أيوب، إلى أنْ كشفَ الله عنه الضّر، ومسّته نفحة ربانية فعاد صحيحاً سليماً. . . .

وقد أثنى عليه الله سبحانه فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[2] [ص: ٤٤].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (ص٢٨٢).

(٢) لأبي بكر الرّازيّ ـ رحمه الله ـ تعليق لطيفٌ ونفيسٌ على هذه الآية الكريمة يقول:
فإنْ قيل: كيف قال الله تعالى في وصف أيوب ـ عليه السَّلام ـ ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ مع أنَّ الصَّبر هو ترك الشّكوى من ألم البلوى وهو قد شكا؟.
قلنا؛ أولاً: الشكوى إلى الله تعالى لا تُنافي الصّبر، ولا تُسمى جزعاً، لما فيها من إظهار الخضوع والعبودية لله تعالى والافتقار إليه، ويؤيده قول يعقوب ـ عليه السَّلام ـ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] وقولهم: (الصبر ترك الشكوى) يعني إلى العباد.
الثاني: أنّه ـ عليه السَّلام ـ إنّما طلب الشّفاء من الله تعالى بعدما لم يبق منه إلا قلبه ولسانه خيفة على قومه أن يفتنهم الشّيطان بما كان يوسوس إليهم به ويقول: إنّه لو كان أيوب نبياً لما ابتلي بما هو فيه، ولدعا إلى الله تعالى بكشف ضره.
وروي أنّه عليه السَّلام قال في مناجاته:
إلهي، قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يلهني ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أبت شبعان، ولا كاسياً ومعي جائع أو عُريان، فكشف الله تعالى ضرّه. (تفسير أبي بكر الرازي ص٤٣٩).

هَـلْ رَأَيْـتَ نَـبـيَّ اللهِ؟ :

* مما لا شكّ فيه أنَّ عاقبةَ الصَّبرِ الجميل عاقبةٌ حَسَنة مباركة، وأيوب ـ عليه السَّلام ـ إمام الصّابرين، وقد أضحى أسوة حسنة لمن ابتُلي بأنواعِ البلاء[1]. . .

* فقد امتحن سيدنا أيوب ـ عليه السَّلام ـ في الدّنيا بمحنة عظيمة لم تُبْقِ له إلا زوجه الصّابرة الكريمة ليا، . . . وأصيبتْ هي الأخرى معه ببلاءٍ عظيم أيضاً، غير أنّها لم تتعرّضْ للمرضِ والأسقام، فتلقّى كلّ واحدٍ منهما المحنَة بجميل الصّبر، وجزيل الحمد، والرّضا بقَدَر الله عزَّ وجلَّ، والتّسليم الكامل، فاكتسبا الأَمْنَ والأمان، بل والإيمان في قلبيهما، وعاشا في سعادةِ العبادة، وهما يصارعان المرض ثماني عشرة سنة، إلى أنْ نادى أيوب ربّه أنْ يكشفَ عنه الضّرَّ الذي مسّه.

* أمّا كيف كشَفَ الله عنه الضّر، فقد وَرَدَ في القرآن الكريم في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

* وقد وَرَدَ ذلك مفصَّلاً في السُّنَّةِ المطهّرة، وروى الحبيبُ المصطفى ﷺ قصّة شفائِهِ، وقصّة زوجهِ الصّابرة معه، فلنقرأ قصّة شفاء أيّوب ـ عليه السَّلام ـ ففي قصّتهِ شفاءٌ للنفوس، ودواء للقلوب، وأنس للمؤمنين.

---

(١) إن قصة أيوب عبرة بالغة، وتعريف لكل ذي بصيرة أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على كل إنسان أن يروّضَ نفسه على امتطاء مطية الصبر، وعدم الجزع على ما يناله من البلاء، وعليه أيضاً أن يجتهد في القيام بحق الله تعالى عليه، وألا يضجر أو يتبرم من أي شيء وقع عليه قضاء وقدراً، وإنما يتصبّر في حالة الضر والبأس، وحين وقوع البليّات.
وفي هذه القصة أيضاً تذكير للعباد بضرورة الصبر، وتنبه لهم أن البلاء قد يصيب أحبّ الخلق إلى الله، وها هو أيوب ـ وهو أفضل أهل زمانه ـ قد ابتُلي بلاءً عظيماً.

* أخرجَ ابنُ حبّان ـ رحمه الله ـ وغيره بسندهم عن ابنِ شهاب عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

«إنَّ أيوبَ نبيّ الله ﷺ لبثَ في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريبُ والبعيدُ؛ إلا رجلين من إخوانه كانا منْ أخصِّ إخوانه؛ كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تَعْلَمُ، والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحدٌ منَ العالمين.

قال له صاحبه: وما ذاك؟.

قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به.

فلما راحَ إليه؛ لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له.

فقال أيوب: لا أدري ما تقول؛ غير أنَّ اللهَ يعلمُ أنّي كنتُ أَمُرُّ على الرَّجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأكفِّرُ عنهما كراهية أنْ يُذكرَ اللهُ إلا في حقٍّ.

قال: وكان يخرجُ إلى حاجته، فإذا قضى حاجته، أمسكتِ امرأته بيده، فلمّا كان ذات يوم، أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوبَ في مكانه ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهبَ اللهُ ما بهِ من البلاء فهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أيْ بارك الله فيك، هل رأيتَ نبيَّ الله هذا المبتلى؟ والله ما رأيت أحداً كان أشبه به منك إذ كان صحيحاً.

قال: فإنّي أنا هو.

وكان له أَنْدران: أنْدر للقمح، وأَنْدر للشَّعير. فبعث الله سَحَابَتَيْن، فَلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذّهب حتى فاضتْ وأفرغتِ الأخرى على أندر الشَّعير الوَرِقَ[1] حتى فاضت»[2].

---

(١) «الوَرق»: الفضة.

(٢) أخرجه ابن حبّان (٢٨٩٨)، وأخرجه أبو يعلى (٦/ ٢٩٩ و٣٠٠) برقم (٣٦١٧) والبزار (٢٣٥٧) والحاكم (٢/ ٥٨١ و٥٨٢) والهيثمي في المجمع (٨/ ٢٠٨) وقال:=

* هذا ما وَرَدَ في أيّوب وزوجه في القرآن والسُّنّةِ، أمّا ما وَرَدَ في غير ذلك فلا حاجة لنا به.

* قال القاضي أبو بكر ابن العربيّ ـ رحمه الله ـ: ولم يصحَّ عن أيوب في أَمْرِهِ إلا ما أخبرنا عنه في كتابه في آيتين:

الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ . .﴾ [الأنبياء: ٨٣].

والثّانية: ﴿. . أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

* وأورد البخاريُّ ـ رحمه الله ـ قصة أيوب بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رِجْلُ جراد مِنْ ذهب، فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربّه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟.

فقال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»[1].

هَـلْ صَحِيْـحٌ مَا وَرَدَ عَـنْ أَيّــوب؟

* أودُّ أنْ أشيرَ ـ عزيزي القارىء ـ إلى أشياءَ منكرةٍ وردت عن أيوب وزوجه في بعضِ المصادر، لا يقبلها العقل السَّليم، ولا يتقبلها مَنْ له أدنى معرفة بمقام الأنبياء، وقد ذُكرت في بطون بعض الكُتُب مستوحاة من الإسرائيليات المشوبة بالخرافات والأوهام.

* يقول القُرطبيُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره نقلاً عن ابن العربيّ:

= رواه أبو يعلى والبزّار، ورجال البزار رجال الصّحيح. وأورده ابن حجر في المطالب العالية برقم (٣٤٦٠) وأورده أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٧٤ و٣٧٥) وابن كثير في البداية والنّهاية (١/ ٢٣٣) والسّيوطيّ في الدّرِّ المنثورِ (٥/ ٦٥٩ و٦٦٠) والتّفسير الكبير للرازيّ (٢٦/ ١٨٦) وفتح الباري (٦/ ٤٨٥) ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ١١١).

(١) فتح الباري (٦/ ٤٨٤) حديث رقم (٣٣٩١). «رجل جراد»: جماعة جراد. «يحثي»: يلتقط.

وإذا لم يصحّ عن أيّوب فيه قرآنٌ ولا سُنّة إلا ما ذكرناه ـ أي: من القرآن والحديث ـ فمنِ الذي يوصل السّامع إلى أيوب خبره، أمْ على أيّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرضْ عن سطورها بصرك، واصممْ عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خَبَالاً[1].

وقد أوردتْ بعضُ المصادر في ضرِّ أيوب ـ عليه السَّلام ـ وموقف زوجه ليا صوراً منفّرة ليس لها سندٌ صحيحٌ في ديوان الإسلام، بل ويتنافى ذلك مع مَنْصبِ النّبوةِ ومع ما قرّره علماءُ التّوحيدِ: مِنْ أنَّ الأنبياءَ ـ عليهم الصَّلاة السَّلام ـ معصومونَ عن كلِّ ما ينفّرُ النَّاس منهم: كالجذام والجدريّ وسائر الأمراض المنفرة، وإلا أقعدهم المرض المنفر للنّاس عن قربانهم والدنو منهم، ومن ثمّ لم تحصلِ الفائدةُ المرجوة من بعثتهم...

* ولا أجدُ في هذ المقام أجمل من قول أحمد مصطفى المراغي ـ رحمه الله ـ في تفسيره عن ليا وعن سيدنا أيوب ومرضه حيث أجمل وأوجز وأَبَانَ فقال:

وما رُوي من مِقْدار ما لحقه من الضّرِّ في نفسه حتى وصل إلى حدّ النّفرة منه، وإنَّ النَّاس جميعاً تحاموه وطردوه من مقامهِ إلى ظاهرِ المدينة في موضع الكناسة، ولم يكن يتصل به إلا امرأته التي تذهبْ إليه بالزّادِ والقوتِ، فكلّ ذلك من الإسرائيليات التي يجبُ الاعتقادُ بكذبِهَا، لأنَّه ليس من سندٍ صحيح يؤيدها، ولأنّ من شروط النّبوة ألا يكون في النّبيّ من الأمراض والأسقام

---

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٢١٠) وأودُّ أنْ أشيرَ إلى حقيقةٍ لا يرفضها العلماء وهي أنَّ الإسرائيليات ليست كلها مرفوضة رفضاً باتاً ـ كما أشار ابن العربي رحمه الله ـ وإنما نقبل منها ما لم يخالف شريعتنا الغرّاء، وإنَّ منها ما يتوقف فيه وتجوز روايته، ولكنّنا نرفضُ منها رفضاً كلياً ما خالف الشّرع أو العقل، والذي يبدو أنَّ كلامَ ابن العربي ـ رحمه الله ـ يتعلق بقصة أيوب وما ورد فيها من الأشياء التي لا تليق بمنصب النّبوة والأنبياء. لذا فقد أحببت أنْ أنوه إلى ذلك، والله الموفق للصواب.

ما ينفرُ النّاس منه، ولأنّه متى كان كذلك لا يستطيع الاتصال بهم وتبليغ الشرائع والأحكام. . .

* هذا وقد دلّ القرآنُ الكريم الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، على أنَّ أيوب ـ عليه السَّلام ـ ابتلي في نفسه، وأنَّه صَبَرَ حتى صار مضرب الأمثال قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

* فالبلاء مما لا شكَّ فيه، والذي ينبغي أنْ نعتقدَه أنَّ بلاء أيوب ـ عليه السَّلام ـ لم يصلْ إلى هذا الحدِّ منْ أنَّ جسمه أصبح قرحة، وأنّه أُلقي على كناسة بني إسرائيل، وأيوب ـ عليه السَّلام ـ أكرم على الله عزّ وجلّ مِنْ أنْ يُلقى على كناسةٍ تختلفُ في جسمه الدّواب، وأنْ يصيرَ قرحة ينفرُ منها النّاس، والأنبياء إنّما يبعثون من أوساط قومهم، فأين كانت عشيرته فتواريه وتعمل على رعايته وحفظه، أَمْ أينَ كان أتباعه والمخلصون له؟ ـ على الرغم من قلتهم ـ بل إنَّ العنايةَ الإلهيّةَ تصونه عن كلّ ما ذُكِرَ من كلام لا يتوافق مع المنطق السَّليم.

* ويعجبني في هذا المقام ما ذكره صاحبُ المنار حيث قال:

والذي عليه المسلمون ولا سيما أهل السُّنَّةِ منهم؛ أنَّ اللهَ تعالى حفظَ الأنبياء من العاهات المنفّرة للطباع، لأنّها منافيةٌ لحكمةِ التّبليغ، وقالوا: إنّ هذا من أصول الإيمان الواجب اعتقَادها وتكذيب مَنْ خالفها.

* وتحدَّثَ صاحبُ المنار أيضاً عن نوع بلاء سيّدنا أيوب ـ عليه السَّلام ـ وأَبَانَ ماهية هذا البلاء، فلنستمع إلى ما ذكره السّيد رشيد رضا[1]

---

(١) السّيد محمّد رشيد بن علي رضا القلموني، البغداديّ الأصل، الحسيني النّسب، ولد في (٢٧) جمادى الأولى (١٢٨٢هـ) في قرية القلمون من جبل لبنان.
نشأ السّيد محمد رشيد رضا في طرابلس الشّام، وفيها تلقى العِلْمَ عن شيوخها، وقد وسع ثقافته بمطالعاته الخاصة، وانتفع بكتب شيخَي الإسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية ـ رحمهما الله ـ بزغ نجم السيد رضا في سنة (١٣١٥هـ) عندما رحل إلى مصرَ ولازم الشّيخ محمّد عبده واتصل به، وكان الوارث الأول لعلم الشيخ محمد=

ـ رحمه الله ـ إذ يقول:

أمّا عن حقيقةِ بلاء أيوب ومرضه، فالظّاهر أنّه كان مرض من النّوع الذي يشتد ألمه، ولا يظهر أثره على الجسم أو على الجلد، كبعض الأمراض الباطنية، وربما الأمراض العصبية، أو آلام العظام والمفاصل.

لَـيَـــا وَشِفَـــاءُ أَيّـوبَ:

* عرفنا مما سبق أنَّ سيدنا أيوب ـ عليه السَّلام ـ من عباد الله المخلصين في العبادة، وعرفنا أنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد امتحانه في أهله وفي ماله، ثم في جسمه، لكنّه صبر على هذا كلّهِ، وشكر ربّه على ما ابتلاه به.

* وطال مرضه، واستطال عليه البلاء، وأراد الشَّيطان أو يوسوس إليه ويغويه، لكنَّ الشَّيطان باء بالفشل، ووجد أنَّ قلب أيوب موصول بالله، ساكن وقور، فلم يفلحْ في شيءٍ ونكص على عقبيه، وخصوصاً لما ازداد أيوب

= عبده، وسار على نهجه في التّفسير، وكذلك في النواحي الاجتماعية والسياسيّة.
أصدر السيد رشيد رضا مجلة المنار في (١٥آذار) سنة (١٨٩٨م) وهي أشهر آثاره وتقع في (٣٤ مجلداً) وله «تفسير القرآن» في (١٢ مجلداً) ولم يكمله.
وتفسير المنار من أضخم آثار السيد رشيد رضا، يمتاز هذا التّفسير بالأسلوب الرائع والدفاع عن القرآن، والعناية في جوانبه اللغوية والبلاغية، وبيان لسنن الله في خليقته، ـ كما قال رشيد رضا نفسه ـ لكنّ تفسيره لا يخلو من بعض السَّقطات أو القسوة في الحكم على بعض الروايات أو التشكيك في بعض الرّوايات واعتماده على تحكيم العقل أحياناً، أو قل: تفضيل العقل على النَّقْل.
وكان الشّيخ رشيد رضا يلوم بعض المفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات في تفاسيرهم، ويتخذون منها شروحاً للقرآن الكريم، إلا أنه هو نفسه وقع في شَرَك هذه الإسرائيليات في تفسيره أيضاً. وبالجملة فهو تفسير مفيد إن شاء الله.
أمّا عن وفاة السّيد رشيد رضا. فقد مات يوم الخميس (٢٣ جمادى الأولى) سنة (١٣٥٤هـ) الموافقة لسنة (١٩٣٥م) إثر حادث سيارة كان راجعاً من السّويس إلى القاهرة، ودُفِن في قرافة المجاورين بالقاهرة بجوار ضريح الأستاذ محمد عبده، رحمهما الله تعالى.
(معجم المؤلفين ٩/ ٣١٠) و(التفسير والمفسرون ٢/ ٦٣٣).

شكراً لله، وطرد من مخيلته أوهام الشَّيطان، نادى ربّه مستجيراً داعياً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١][1].

وقتئذ تنزّلتِ الرحمةُ الإلهية على أيّوبَ، وعلى زوج أيوب التي لم تفارقه طيلة أعوام مرضه وبلائه، كانا خير عَبْدَين عصر إذ... كانا خير عابِدَين على وجه الأرض يوم ذاك.

* جاء الفرجُ الإلهيُّ... وجاءتِ الوصفةُ الطّبيّةُ الرّبانية لأيوب؛ أمّا صفة هذه الوصفة الرّبانيّة فموجودة في القرآن الكريم والذّكْرِ الحكيم في قوله عزّ وجلّ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

* كان الدَّواء كما لاحظنا بسيطاً، هيناً ليناً.. أَمَرَ اللهُ أيوب أنْ يضربَ برجله الأرض.. امتثل أيوب أَمْرَ ربِّهِ، ومسَّ الأرض... فنبعَ منها الماء نقيّاً عذباً فراتاً سائغاً، فشرِبَ منه فبرىء ما كان في باطنه من دقيق السّقم وجليله، واغتسل فبرىء من ظاهره أتمّ براءة، فما كان يرسل الماء على عضو إلا ويعود في الحين أحسن ما كان قبل بإذن الله تعالى.

* وذكر القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ الله سبحانه قد أنزل عليه ثوبين من السَّماء أبيضين، فَائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر[2].

* بدأتِ الصّحة تدبُّ في أيوبَ... بدأ السَّقم يزول فوراً... تمشّى البُرْءُ في مفاصله وأوصاله.... طُرِدَتِ الأسقامُ من بدنه... لم يَعُدْ يجدُ أَلَماً ظاهراً، ولا أَلَماً داخلياً.

اللهُ أكبر ما أعظمَ هذا الدَّواء!.

* كثير من الأطباء المتخصصين في الأمراض الجلدية ـ اليوم ـ ينصحون المرضى بالاغتسال في إحدى العيون الكبريتية.

---

(١) ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: بتعب وألم وضرّ.
(٢) تفسير القرطبي (١٥/٢١٦).

* في قاموس الأطباء[1] وصفاتٌ مستقاة من الذّكْرِ الحكيم والطبّ النبويّ الكريم، وقد تحدّثَ غير طبيب من قدامى أطباء المسلمين عن فائدة بعض العيون الطبيعيّة في أماكنَ معينة من بقاع الأرض؛ وقد استفادتْ بعض البلدان من هذه العيون اقتصادياً، فعلمتْ على تعبئةِ هذه المياه المعدنية أو الكبريتية في زجاجات، ومن ثمّ عرضتها للبيعِ، كما نلاحظ في الأسواق التّجارية اليوم.

* في تفسيره القيّم تحدّث أحمد مصطفى المراغي[2] ـ رحمه الله ـ عن الاستشفاء بالمياه الكبريتية، وأشار إلى قصّةِ سيّدنا نبي الله أيوب ـ عليه السّلام ـ فقال:

وفي هذا إيْماءٌ إلى نوعِ المرضِ الذي كان به ـ أي: أيوب ـ وأنّه منَ الأمراضِ الجلدية غير المعَدية؛ كالأكزيما والحكّةِ ونحوهما مما يتعبُ الجسم ويؤذيه أشدَّ الإيذاء، لكنّه ليسَ بقتّالٍ.

كما أنَّ في ذلك إيماء إلى أنَّ الماءَ كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة

---

(١) قال الموفق عبد اللطيف البغداديّ ـ رحمه الله ـ في كتابه «الطبّ النبويّ»: والاغتسال بالمياه الكبريتية يزيل الجرب والحكة، وينفعُ من الأمراض الباردة. (الطّب النّبوي ص٥٥).

(٢) «المراغيُّ»: أحمد بنُ مصطفى المراغيّ، مفسّر، مصريٌّ، من العلماء، تخرّج في دار العلوم بالقاهرة، ثم كان مدرس الشّريعة الإسلاميّة بالدّارِ نفسها، وعُين أستاذاً للغة العربية والشّريعة الإسلامية بكليةِ غوردن بالسُّودان في مدينة الخرطوم.
من آثاره: «الحسبةُ في الإسلام» و«الوجيزُ في أصول الفقه» و«علومُ البلاغة» و«تفسيرُ المراغيّ» وهو من أشهر آثاره، ويقع في ثماني مجلدات.
يمتاز تفسير المراغي ببساطة أسلوبه، وتلخيص ما جاء في التفاسير السّابقة وصياغتها بأسلوبه، وتظهر أحياناً شخصية المراغي من خلال إعطائه بعض الأفكار التي لا تخالف المعقول. عاد المراغي من الخرطوم إلى القاهرة، وهناك توفي سنة(١٣٧١هـ) التي توافق سنة (١٩٥٢م) رحمه الله تعالى.
(الأعلام ١/ ٢٥٨) و(معجم المفسرين ١/ ٨٠).

النّاجعة في تلك الأمراض، وهي كما تفيدُ بالاستعمال الظّاهري، تفيد بالشُّرب أيضاً، كما نرى في العيون التي في البلاد التي أُنشئت فيها الحمّامات الجلدية والأمراض الباطنية.

أمّا زوج أيوب فقد كانت في طريقها إلى أيوبَ....

لم تكن معه ساعة اغتسل وشرب من الماء، وعندما وصلت نظرتْ إليه فلم تعرفه بادىء الأَمْر، ولما أخبرها بما أكرمه الله، وبما مَنَّ عليه من الشّفاء سجدتْ شكراً لله تعالى ثم قالت: إنّ ربّي على كلِّ شيءٍ قدير، وإنّه يحيي العظام وهي رميم.

مِـنْ إكْـرَامِ اللهِ لَـهَـا:

* أكرمَ الله عزَّ وجلَّ أيوب وزوجه ليا، وردّ عليه ماله، وولده، وولدَ له مثل عددهم...

وقد قيل: إنَّ الله سبحانه قد آجَرَ أيّوب وزوجه فيمن سَلفَ، وعوضهما في الدُّنيا بدلهم.

قال أهل التّفسير: أعطى الله سبحانه وتعالى أيوب وزوجه في الدُّنيا مثلما كان له مِنَ الأولاد والأتباع. وقيل: ولدت له بعد ذلك ستة وعشرين ابناً.

* ومن إكرام الله لزوجِ أيوب ـ عليه السَّلام ـ أنَّه رخّص لعبده ورسوله أيوب رخصة تخصّها. فقد وَرَدَ أنَّ أيوبَ ـ عليه السَّلام ـ كان قد حَلَفَ ـ وهو في مرضه ـ ليضربنَّ امرأته مئة سوط، وذلك لأنها ذهبتْ في بعضِ المهَام فأبطأتْ على أيوبَ، فحلف ليضربنَّها.

* فلمّا عافاه اللهُ عزَّ وجلَّ، أفتاه أنْ يأخذَ حزمةً صغيرةً من ريحان تبلغُ مئة، فيجمعها كلّها ويضربها به ضربةً واحدةً، ويكون هذا منزلاً منزلة الضّرب بمئة سوط ويبرّ ولا يحنث[1].

* وهذا من إكرام الله سبحانه لزوجِ أيوب ـ عليه السَّلام ـ وهو من الفرجِ

---

(١) «حنث»: حَنِثَ في يمينه يحنثُ حِنثاً: لم يفِ بها. والحنث أيضاً: الذنب والإثم.

والمخرجِ لمن اتقى الله سبحانه وأطاعه، وقد كانت ليا زوج أيوب امرأة صابرة محتسبة بارّة بربّها وزوجها، فأكرمها الله بهذه الرّخصة الرَّبانية جزاء وفاقاً لإخلاصها.

* ولهذا عقّبَ الله سبحانه وتعالى عَقِبَ هذه الرّخصة وعللها بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

* قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ:

وقد استعمل كثيرٌ مِنَ الفقهاء هذه الرّخصة في باب الأيمان والنّذور، وتوسَّع آخرون لها حتى وضعوا كتاب الحِيَل في الخلاص من الأيمان[1].

* والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أنَّ هذه الرّخصة خاصّة بأيوب ـ عليه السَّلام ـ وزوجه الطّاهرة العابدة كرامة لها من الله تعالى... وقد رحمها الله تعالى وأكرمها لصبرها معه على البلاءِ، ووفّقها على حَلاوةِ الطَّاعات في ظلِّ مرضاته عزّ وجلّ.

* وبعد، فهذه سيرة زوج أيوب ـ عليه السلام ـ تلك المرأة الصَّابرة العابدة، الحامدة الشّاكرة، التي سبقت لها الحسنى من اللهِ عزَّ وجلَّ، أرجو الله أنْ أكونَ قد وفقتُ في الحديث عنها...

* وقبل أنْ نقولَ وداعاً سيّدة الصَّابرات وقدوة الشّاكرات تعالوا نعطر الأفواه والأسماع بقول الباري عزّ وجل:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ١٥٧]. صدق الله العظيم.

* * *

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (ص٢٨٦).

زوج النبي موسى عليه السلام

* امرأة وَصَفها الله عز وجل بالحياء والأَدَب.
* كانت أمينة قوية كاملة التربية، وهي تبلِّغ رسالة أبيها لموسى.
* هي قدوة لكل النساء في العفة والحياء والعمل الذي يرضي الله سُبحانه.

في رِحاب التَّنْزِيل:

* في قصَّةِ نبيِّ الله موسى ـ عليه السَّلام ـ مع زوجهِ صفورا[1] وقفاتٌ نورانيةٌ رائعة، ولمسات ربانيّة نديّة تداعبُ الوجدان، وتصقل جوهرَ الإنسان، وترفعه إلى أفقٍ يتلألأُ بالإيمانِ، فتجعل منه إنساناً يرتبطُ بخالقه ارتباطاً وثيقاً، يوصله إلى جنَّات النَّعيم.

* ولنعش لحظاتٍ مع نشأة موسى ـ عليه السَّلام ـ ومنْ ثَمَّ تنتقل معه من مصرَ إلى بلاد المقدس تلقاءَ مَدْيَنَ، هناك نتعرفُ الأحداثَ التي جرت لموسى مع فتاتَيْ مدين، كما ذُكِرتْ في ضوءِ القرآن الكريم، والسُّنَّةِ النّبويّة المطّهرة.

* ففي القصر الفرعوني الذي تغطّيه السُّرر المرفوعة والنّمارق المصفوفة، وتنضحُ منه آثار الحضارة الفرعونية، وترتسمُ على جدرانه صور الآلهة التي ملأت مصرَ، ثم تصدرت في إحدى القاعات الكبرى صورة لفرعون مصرَ الذي استخف قومه وزعم فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

* في هذه البيئةِ كانت نشأةُ موسى ـ عليه السَّلام ـ ولكنْ لم يكن هناك شيءٌ مِنْ زخارف الحضارة ليلفتَ نظره أو يؤثّر فيه، وإنما صُنعَ على عينِ الله عزَّ وجلَّ، ورضع عقيدة التّوحيد من أسرتهِ التي غذّته بذلك تحت وحْي الله وصنعه، وإذ ذاك عصمه الله عزَّ وجلَّ من الزَّيغ على الرّغم من أنّ الذين أشرفوا على تربيته كهنة القصر الفرعوني الذين اشتروا الضَّلالةَ بالهدى لقاء دريهمات يلقيها إليها فرعون مصر...

* ولما بلغ موسى ـ عليه السَّلام ـ أشدَّه واستوى آتاه الله صفتي الكمال:

---

(١) غرر التّبيان (ص ٣٩٠) ومفحمات الأقران (ص ١٥٨) والإتقان (٢/ ١٠٩٨) والبداية والنّهاية (١/ ٢٤٤) ومختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٣١٥) والكامل (١/ ١٦٩) وتاريخ الطّبريّ (١/ ٢٣١) وتفسير الخازن وبهامشه البغويّ (٥/ ١٧١) وتفسير الطبريّ (٢٠/ ٦٢) وتفسير الماورديّ (٣/ ٢٢٥) والقرطبيّ (١٣/ ٢٧٣) وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٦١) والدرّ المنثور للسّيوطي (٦/ ٤٠٥) وآثار البلاد (ص ٢٤٩) والكامل لابن الأثير (١/ ١٦٩) وغيرها كثير.

الحكمة والعلم ـ وهما النّبوة والرِّسالة ـ وكفاك بهاتين الخصلتين منحة ربانية يختصُّ بهما مَنْ يشاء مِنْ عبادِهِ.

* لقد ورثَ موسى ـ عليه السَّلام ـ فِقْهَ الدِّين الذي ورثه من آبائه الأطهار الذين ينتمون إلى أبي الأنبياء سيّدنا إبراهيم خليل الرحمن ـ عليه السَّلام ـ.

* كرّم اللهُ سيّدنا موسى بأشياء كثيرة، فقد كرَّم الله وجهه، فلم يسجدْ لإلهٍ منْ آلهة القصر! وممّا أكرمه الله به أيضاً أنْ آتاه بسطةً في القوّةِ والجسم؛ جعلته لا يخشى أحداً سوى الله عزَّ وجلَّ، وألقى محبّته في قلوب النَّاس، وهذا مِنْ أعظمِ المِنَن.

* ولما شرعَ الله عزَّ وجلَّ خروج موسى من مصرَ إلى أرض مَدْيَنَ وإقامته هنالك، جعل سبباً لتركه مصر.

* ففي ذات يومٍ دخلَ موسى مدينة مصر على حين غَفْلةٍ من أهلها، حيث كان النّهار قد انتصف، وأغلقتِ الأسواقُ من شدّةِ الحرّ، والنّاسُ في قيلولة، وبينما هو يمشي في ناحية المدينة إذ وجد رجلين يقتتلان ويتصارعان، أحدهما إسرائيلي، والآخر قبطي من قصر فرعون حاكم مصر.

* ولما رأى الإسرائيلي موسى ـ عليه السَّلام ـ طلب منه أنْ يعينَهُ على القبطي، إذ هو عدوهما، فأقبل موسى فوكز[1] القبطي فماتَ، ولم يُرِدْ موسى قتله بالكليّة، وإنّما أراد فضَّ النّزاع وزَجْره ورَدْعه.

* وأحسَّ موسى حزناً عميقاً في نفسه مما حصل، ولكن ما حصل قد حصل؛ وبات موسى يرجو رحمة ربِّه ويدعو: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

* واستجاب الله عز وجل دعاءَ عبده موسى: ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦] وعندئذ عاهد موسى ربّه فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]

---

(١) وكزه يكزه وكزاً: دفعه وضربه بجمْعِ كفيه، أي بكفيه المضمومتي الأصابع.

* أصبحَ موسى ـ عليه السَّلام ـ بمدينةِ مِصْرَ خائفاً من فرعونَ وجنوده؛ أنْ يعلموا أنَّ هذا القتيل الذي قُتل بالأمس إنّما قتله موسى في نُصْرة رجلٍ من بني إسرائيل، وإذ ذاك تقوى ظنونهم أنَّ موسى منهم، ولتعذَّرَ على موسى أنْ يبقى في القصر الفرعوني ليعمل على ما فيه مصلحة بني إسرائيل، ولترتّب على ذلك أمْرٌ عظيمٌ قد لا يستطيع وَضْعَ حَدٍّ له.

* وبينما كان موسى يساوره الخوف، بَصُرَ بذلك الإسرائيلي الذي نَصَره بالأمسِ يستنصره اليوم على قبطيٍّ آخر ويقول: انصرني يا موسى؛ عندئذ بَانَ الغضبُ في وَجْهِ موسى، وعنَّفَ الإسرائيلي على كثرةِ شرِّه ومخاصمته وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨].

* وأقبل موسى نحوهما، فلما لمح القبطي موسى وقد أراد أنْ يبطش به، قال له والخوفُ يلعبُ به: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ . .﴾ [القصص: ١٩].

* ورُفعَ الخبرُ إلى فرعونَ، فعرف أنَّ قاتل ذلك الرَّجل هو موسى، فأرسل في طلبه، إلا أنَّ رجلاً ناصحاً شديداً قويّاً سَبَق جنود فرعون، وسعى إلى موسى وأخبره إشفاقاً عليه مِنْ أنْ ينالهَ فرعون أو جنوده بسوء، ونصحه بالخروج من مصرَ.

الطَّرِيْـقُ إلـى مَـدْيَـنَ:

* خرجَ موسى ـ عليه السَّلام ـ منْ مصرَ وهو خائفٌ يتلفَّتُ في حيرة، لا يدري أين يذهب، وذلك لأنَّه لم يخرج من مصرَ قبلها، وخشي أن يدركه أحدٌ من قوم فرعون، ولكنّه خرج، وقد أرخى الليلُ سدوله على مصرَ، ولما سلك الطّريق المؤدي إلى مدين استغاثَ بالله، وسلَّم نفسه إليه، وطلب منه راجياً أنْ يهديَه سواءَ السَّبيل، فكان الطريقُ الذي سلكه هوالطّريقُ الموصل إلى المقصودِ وأيّ مقصود[1].

---

(١) عن قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٣١٦) وتفسير الرازي (٢٤/ ٢٠٤) بشيء من التصرف.

* والآن دعونا نجلس إلى مائدةِ الرَّحمن لنستمع إلى ما قصَّهُ الله في هذا، في الذِّكْرِ الحكيم في سورة القَصَصِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ١٤ ـ ٢٢].

﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟:

* بعد خروج موسى ـ عليه السَّلام ـ من مصرَ خائفاً يترقب عَبَرَ الأراضي، وجاز الصَّحراء وحيداً لا أنيس له سوى الله عزَّ وجلَّ، وظلّ يسيرُ في أرضِ الله، وقد يَسَّرَ الله له، ووجَّهه الوجهة المقصودة حتى وصل إلى مكانٍ لم تكن تَطَاله يَدُ فرعون، ومَنْ هم في زمرة فرعون، كان ذلك المكان يُسمّى مَدْيَن[1].

---

(١) «مَدْيَنُ»: مدينة قوم شعيب عليه السَّلام، وهي تجارة تبوك بين المدينة والشَّام، بها البئر التي استقى منها موسى عليه السَّلام لماشيةِ شعيب، ونقل ياقوت والقزوينيّ عن أبي زيد قال: رأيتُ هذه البئر مغطاة قد بُنيَ عليها بيت. وماء أهلها من عين تجري، ويزور النّاس هذه البئر.
وقد وردتْ مدين في الشّعر العربيّ على ألسنة الشُّعراء، ومن ذلك قول كثير عزّة متُغزّلاً:

رهبانُ مَديـن والـذيـن عهـدتهـم ... يبكـونَ مـن حَـذَر العقـاب قُعُـودا
لـو يسمعـون كمـا سمعـتُ حـديثهـا ... خـرّوا لعـزةَ ركعـاً وسجـودا=

* قال أبو السُّعود ـ رحمه الله ـ: كان بينها وبين مصرَ مسيرة ثمانية أيام[1].

في مدينَ جلس موسى ـ عليه السَّلام ـ عند بئرٍ عظيمة يسقي النّاس منْ مائها أنعامهم ومواشيهم، وكان من عادة النّاسِ أنَّ الغريبَ إذ قَدِمَ بلدة ما، وليس لديه فيها أحد يعرفه فإنّه يتوجَّه إلى المكان الذي يجتمعون فيه لسقياهم، وهناك يتعرّفُ على أحدهم ويكون نزيلاً عنده.

* وحين بلغَ موسى ـ عليه السَّلام ـ الماء في مدينَ، وَجَدَ هناك جماعةً مَن النَّاسِ يسقونَ أنعامهم ومواشيهم، لكنّه وجد مِنْ دونهم، وفي مكان أسفل من مكانهم امرأتين تحبسان وتكفّان غَنمَهُما عن الماء كيما تختلط بغنم القوم، وكيما تذهب عن الماء ومواشي النّاس، ومن ثمّ تبدأ هاتان المرأتان تسقيان ماشيتهما بعد ذلك... وما فعلا هذا إلالضعفهما ووجود مَنْ هو أقوى منهما على الماء، ناهيك بأنّهما كانتا تكرهان مخالطة الرّجال؛ وذكر المفسّرون والمؤرّخون أنَّ اسم الكبرى ليا، والصُّغرة صفورا.

* رأى موسى ـ عليه السَّلام ـ هذه الصُّورة من حياة أهل مدين على تلك البئر، نسيَ جوعه، ونسيَ عطشه وتعبه، وأثاره ذلك المشهد، وأحسَّ بما يشبه الإلهام أنَّ تلكما الفتاتين بحاجة إلى مَنْ يساعدهما في عملية سقاية الغنم، وثار في نفسه دافع حبّ لحماية المستضعفين.

* إنَّ الرحمةَ بالنَّاس، والإحسان إلى مَنْ يعرف الإنسان، وعلى مَنْ لا يعرف من أخلاق الأنبياء والصّالحين والصَّادقين... فها هو سيّدنا موسى ـ عليه السَّلام ـ كليم الله، غريب عن دياره، بعيد عن مِصْرِ أرض نشأته، لكنْ قلبه الرّحيم ظلّ قريباً مِنْ خالقه، موصولاً به بعروة وثقى لا انفصام لها.. كانت رحمته دافعاً له ـ رغم غربته ـ لكي يسقي الماشية الماء، ولكي يغيث

= (معجم البلدان ٥/ ٧٧ و٧٨) و(آثار البلاد ص ٢٦١) بتصرف.

(١) تفسير أبي السّعود (٧/ ٨) وانظر كذلك تفسير الماورديّ (٣/ ٢٢٣) وتفسير الرّازي (٢٤/ ٢٠٤) وتاريخ الطبريّ (١/ ٢٣٧).

مَنْ عجز عن ذلك ويرأف به؛ أليس هذا ذروة مكارم الأخلاق؟! عندئذ تقدم موسى ـ عليه السَّلام ـ من الفتاتين وسألهما: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾[1] [القَصَص: ٢٣] وما شأنكما؟ ولماذا تدفعان ماشيتكما وتحبسانها عن الماء؟.

قالتا: لا نستطيع أنْ نزاحمَ الرِّجال والرّعاة، ولهذا السَّبب فإنّنا نتأخر عن السَّقي.

قال موسى: ولم ترعيان؟!.

قلتا: إنَّ أبانا شيخ[2] كبيرٌ لا يستطيع أنْ يأتي هو ليرعى ويسقي لضعفه ووهن عظمه وكبره.

وعندما سمع موسى ما قالته المرأتان، لم يتوانَ في تقديم المساعدة لهما وقال: سأسقي لكما إنْ أحببتما...

* ونظر موسى، فوجد أنَّ الرُّعاة قد وضعوا على فَمِ البئر صخرة ثقيلة لا يقدرُ على رفعها إلا بضعة رجال، فرفع موسى تلك الصَّخرة ثم سقى لهما غنمهما، وردَّ الصَّخرة كما كانت، وبعد أنْ سقى موسى لهما، أوى إلى ظلِّ[3] شجرةٍ قريبةٍ من بئر الماء، جلس إلى ظلِّ الشجرة بجسمه البليل الذي أضناه التّعبُ والجوع، أخذ يناجي ربَّه بلسانه وقلبه، وكان يقول: ربِّ إنّي في هذه الهاجرة، ربِّ إنّي فقيرٌ، ربِّ إنّي وحيدٌ، ضعيفٌ، ربِّ إنّي فقيرٌ إلى فضلك وكرمك.

---

(١) «ما خطبكما»: قال الماورديُّ ـ رحمه الله ـ في الخطب تضخيم الشّيء ومنه الخطبة لأنّها من الأمر المعظم. (تفسير الماورديّ ٣/ ٢٢٤).

(٢) «شيخ»: شاخ يشيخُ شَيخاً ـ بتحريك الياء ـ وشيوخة وشيخوخة: استبانت فيه السن وظهر عليه الشّيب. والشَّيخ: من خمسين إلى آخر عمره؛ وقيل: إلى الثّمانين، وجمعه: شيوخ وأشياخ، وقد وردت كلمةُ «شيخ» مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة القصص الآية (٢٣).

(٣) يشير هذا إلى أنَّ الوقت كان في فصل الصَّيف بدلائل عدة منها: أنّه دخل مدينة مصر نهاراً وأهلها قائلون، وذلك لا يكون إلا في الحر. وكذلك عندما ذهب موسى إلى ظلِّ الشّجرة بعد أن سقى للمرأتين يشير إلى أنَّ الوقت كان حَرّاً وقيظاً.

* وصفَ القرآنُ الكريم تلك الصّورة الموحية، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[1] [القصص: ٢٣ ـ ٢٤].

* نعم لقد كان موسى فقيراً إلى الله عزَّ وجلَّ، فقد تذكّر نِعَمَ الله السَّالفة عليه، فشكر الله وأثنى عليه ثم دعا، قال هذا القول وهو في جهد شديد، وعرّض بقوله ـ هذا ـ للفتاتين تعريضاً لعلهما أنْ يطعماه مما به من شدّةِ الجوع، فعرّض بدعاء ولم يصرّحْ بسؤال، إذن فالخيرُ هنا بمعنى الطَّعام، فقد ذكر المفسّرون أنّ موسى ـ عليه السَّلام ـ لم يكن ذاق طعاماً منذ سبعة أيام[2].

﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ ﴾:

* هو ذا موسى ـ عليه السَّلام ـ يجلسُ تحت ظلِّ الشَّجرة، بينما ذهبتِ المرأتان إلى أبيهما سريعَتْين، وكانت عادتهما ـ من قبل ـ الإبطاء في السَّقي.

* وبهدوءٍ فيه لهجة التّعجب سأل الأبُ الشّيخ: عدتما اليوم سريعاً على غير عادتكما ما الخبر؟!.

عندئذ حدّثتاه بما كان من أمْرِ الرجل الذي سقى لهما[3]. وبيقين المؤمنين قال الأب الشيخ: الحمد لله ربّ العالمين. قالت ابنته صفورا: يبدو يا أبي أنَّ هذا الرَّجل الكريم آتٍ من مكان بعيد، إذ تبدو عليه علائم السَّفر، وأعتقد أنّه جائع مكدود، يبدو ذلك على تقاسيم وجهه.

---

(١) يلاحظ ـ هنا ـ استحباب الدعاء بتبيين حال الإنسان في لحظات من حياته، وشرحها مع كون الله عزّ وجلّ بها عالماً بها، عارفاً بأحوال الإنسان، لأنَّ ربنا عزّ وجلّ يحب تضرع عبده، وإظهار ذله ومسكنته، وهذا هو تمام العبودية، وكمال العبادة.

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٠/ ٥٩) والكشاف (٣/ ١٧٠) وابن كثير (٣/ ٣٥٩) والرازي (٢٤/ ٢٠٥) وتفسيري الخازن والبغوي (٥/ ١٦٩) وتفسير الماوردي (٣/ ٢٢٥).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٦٨) بتصرف يسير.

قال الأب لها: يا ابنتي، اذهبي إليه وأدعيه، وقولي له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ[1] أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]

* وانطلقتِ البنتُ تجري لتدعو موسى، قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ[2]..﴾ [القصص: ٢٥]

ولنقف هنا وقفة لطيفة عند قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ﴾ فنجد أنَّ الله عزّ وجلّ قد أكرم موسى في أمرين اثنين:

الأول: استجابة الله عزَّ وجلَّ لدعاء موسى ـ عليه السَّلام ـ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] فوفَّقَ الله له مَنْ يضيفه ويسدُّ حاجته، بل ويزوّجه.

الثاني: أنَّ أباهما الشّيخ الصّالح لم يتريّث في الإرسال وراءه، فأرسل إحدى ابنتيه فجاءته وهو لم يزل في مكانه الذي تركته فيه تحت الشَّجرة.

* والذي عليه بعضُ المفسّرين والمؤرخين أنَّ صفورا هي التي جاءت موسى وهي الصُّغرى[3]، ولكن ليس في القرآن الكريم دلالة صريحة على شيء من هذا.

---

(١) «ليجزيك»: الجزاء؛ القضاء والمكافأة. جزاه بعمله أو على عمله يجزيه جزاء: قابله بما يكافئه وإذا تعدّى جزى إلى مفعولين كان فيه معنى أعطى.
ويستعمل الجزاء في الخير والشر. وجزى عنه يجزي جزاء: قضى وكفى فهو جاز، وقد وردت كلمة «ليجزيك» مرة واحدة في القرآن الكريم.

(٢) قال الماورديُّ ـ رحمه الله ـ وفي سبب استحيائها ثلاثة أقاويل:
أحدها ـ أنّها دعته لتكافئه وكان الأجمل مكافأته من غير عناء.
الثاني ـ لأنّها كانت رسولة أبيها.
الثالث: ما قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: ليست بسلفع من النّساء خرّاجة ولّاجة.
(تفسير الماوردي ٣ / ٢٢٥).

(٣) انظر مثلاً: تفسير الماوردي (٣/ ٢٢٦) والكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ١٧٦).

لِبَاسُ الحَيَاءِ:

* صفورا امرأةٌ امتدحها الله عزّ جلّ بالحياء، بل وصفها بالحياء، وهي أجمل من الحياء لباس ترتديه المرأة وتتحلّى به ليكون شعاراً لها؟!.

* لنقرأ قول الباري سبحانه: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ..﴾ [القصص: ٢٥] والاستحياء؛ مبالغة في الحياء، لقد وصفَ الله عزَّ وجلَّ هذه الفتاة بالحياء، وهذا دليل على ما كانت عليه من عظم الحياء، وهذا مَدْحٌ مِن الله لها، وهل هناك أجمل من هذا المديح الرَّباني الذي خَصَّ به هذه المرأة التّقية العفيفة الطّاهرة؟!.

* إذن لقد جاءت صفورا إلى موسى وهي مستحيية في مشيتها. ذكر أبو السُّعود ـ رحمه الله ـ مشيتها في تفسيره: بأنّها تمشي غير متبخترة ولا متثنية[1].

* وذكر ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ نقلاً عن عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بإسناد صحيح: أنَّ صفورا كانت ساترة وجهها بثوبها مبالغة في الحياء؛ لأنَّ ستر وجهها غير واجب عليها[2].

* وقفت صفورا أمام موسى ـ عليه السَّلام ـ وأبلغته الرِّسالة الشَّفوية التي حملتها مِنْ أبيها حرفاً بحرف وقالت له في أدبٍ وحياء: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا...﴾ [القصص: ٢٥]. ومن الملاحظ أنَّ صفورا حتى في حديثها، كانت تظهر في كاملِ الأدب، وجمال الطّهر والعفاف، وبساطة الوضوح من غير ريبة.

كانت تحمل دعوة أبيها وقد جاءت موسى تمشي على استحياء؛ مشية الفتاة الطّاهرة الفاضلة العفيفة النّظيفة حينما تلقى الرّجال على استحياء، في غير ما تبذل ولا تبرّج ولا إغراء.

---

(١) تفسير أبي السعود (٧/ ٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٠) بتصرف يسير.

* جاءت صفورا لتؤدي إلى موسى دعوة في أقصر لَفْظ، وكانت أمينة هي الأخرى في أداء ما أمرها أبوها بأدائهِ، وفي هذا دليلٌ على فطرتها السَّليمة، وتربيتها المستقيمة القويمة.

* كانت أمينة، وكانت قويّة لم تضطربْ عند لقائها بموسى لثقتها بطهارتها، ولثقتها بعفافها، وقد تحدثت بالقَدْرِ المطلوب، فلم تزدْ ولم تنقصْ، وبذلك دلّتْ على كمال تربيتها[1]، وجمال صلاحها، وأدب طهارتها وعفافها.

* وفي لحظات سريعة وومضات كالبرقِ، استعرض موسى ـ عليه السَّلام ـ ما فعله قبل قليل؛ إنّه لم يَسْقِ لهاتين المرأتين غنمهما وهو ينتظر منهما أو من أبيهما أجراً، إنّه عَمِلَ ما عمل ابتغاءَ وجْهِ الله ليس غير، نعم لا يبتغي إلا وجه الله، فالله سيجزيه خير الجزاء.

* وأمّا صفورا، فقد كان كلامها الوجيز اللطيف يشير إلى حيائها الفطري، وإلى أدبها وكمال تربيتها، إذ لم تطلبه طلباً مطلقاً، وفي أدب الضّيافة وأدب الدّعوات أسندت الدّعوة إلى أبيها، ثم علّلت الدّعوة بالجزاء، وذلك لئلا يوهم كلامها ريبة فيشكّ في حالها، وفيه أيضاً إظهار لعفّتها[2] كما أنّها بيّنتْ له الغرض من دعوته مبادرة إليه بالإكرام.

* نعم هذه صفاتٌ أسبغها الله على هذه المرأة التي ستكون زوجاً للنّبي

---

(١) في هذا المجال ـ عزيزي القارىء ـ أقول: إنّ ديننا الحنيف أرشدنا إلى وجوب الاهتمام بتربية البنات تربية صالحة، وسقيهنّ من رحيق الإيمان لتكون البنات عوناً على كمال طاعة الله عزّ وجلّ، وقد جعل الإسلام لمن قام بتربية بناته على الالتزام بدين الله وشرعه أجراً عظيماً.
روى الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ بسنده عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو. وضمّ أصابعه....» رواه مسلم برقم (١٤٦) في كتاب البر والصّلة، باب: فضل الإحسان إلى البنات.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٠) وتفسير أبي السّعود (٧/ ٩) بشيء من التّصرف.

الكريم موسى، أحد أولي العزم من الرُّسل[1]، وستكون أمّاً للذّرية التي اختارها الله خليفة له في الأرض، وستكون مبعث الخيرات وقدوة لكلِّ النّساء في العفّة والحياء والعمل الذي يرضي الله عزَّ وجلَّ.

* هذا وقد ذكر المفسّرون أنَّ موسى ـ عليه السَّلام ـ اختار التي جاءته دونَ الأخرى، لأنّها هي التي عَرفَ أخلاقها باستحيائها وكلامها، فكان ذلك ترجيحاً لها عنده، وأفاد بعض المفسّرين أنّها كانتِ الصُّغرى، واسمها صفورا.

* استجابَ موسى لدعوة الرَّجلِ الصَّالح، ومن ثم صحب صفورا إلى بيت أبيها، ويُروى أنَّ موسى ـ عليه السَّلام ـ قال لصفورا ابتداء: يا أَمَةَ اللهِ، كوني ورائي، ودلّيني على الطّريق يميناً أو يساراً[2].

* وحينما وصل موسى، وقدم على أبيها[3]؛ سلّم عليه وأخبره بنسبه،

---

(١) الرّسل أولو العزم هم خمسة: سيّدنا نوح، سيّدنا إبراهيم، سيّدنا موسى، سيّدنا عيسى، وسيّدنا محمّد عليهم الصّلاة والسلام.

(٢) عن تفسير القرطبي (١٣/ ٢٧١) بشيء من التصرف. وانظر تفسير الماورديّ (٣/ ٢٢٥) وتاريخ الطّبريّ (١/ ٢٣٧).

(٣) اختلف المفسرون وأهل العلم فيمن هو أبو الفتاتين؟.
فالقولُ المشهور عند معظمهم أنّه: النّبيّ شعيب ـ عليه السَّلام ـ وبعضهم قال: هو يثرون ابن أخي شعيب. وقيل: هو مؤمن من قوم شعيب.
وهناك قولٌ بالتّوقف في أمره، فلا يجزم بأنّه شعيب أو ليس هو، والله أعلم بحقيقته.
أقول: وقد ساق كل فريق من العلماء أدلته؛ فالذين قالوا إنّه شعيب ساقوا أدلتهم، والذين قالوا خلاف ذلك ساقوا أدلتهم أيضاً.
والذي تميلُ إليه النّفس في هذه المسألة هو التّوقف وعدم ترجيح أحد الأمرين على الآخر، ويشفي غليل النفس في هذا ما ذكره إمام المفسرين محمد بن جرير الطّبريّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره لسورة القصص حيث قال: وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه... والله أعلم بالصواب.

وحكى له ما جرى معه في مصرَ كما حكى الله ذلك في القرآن: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

* وبهذا أزال الرَّجل الصَّالح الخوف عن موسى، وأخبره بأنّه أصبح في مأْمَنٍ منْ أنْ تطاله يد فرعون أو يناله أحد من أعوان فرعون، لأنَّ بلاد مدين ليست في سلطان فرعون، وإنّما هي تابعة لملك الكنعانيين، وهم أهل قوة ونجدة، وأولو بأس شديد.

زَوَاجُ مُوسَى:

* كان لزواجِ موسى ـ عليه السَّلام ـ من ابنةِ الرّجل الصَّالح قصَّة ذكرها الله عزّ وجل، ويبدو أنَّ زوجة موسى ـ صفورا ـ هي التي أثارت هذا الموضوع أمام أبيها، إذ عرضت عرضاً أدبياً على أبيها أنْ يستأجر موسى ـ عليه السَّلام ـ ليرى ماشيتهم؛ إذ لم يكن لديهم رجل يقوم بتلك المهمّة.

وها هي صفورا وأختها ليا تعانيان من مهمة رعي الغنم، تلك المهمة الصَّعبة على جنس النّساء، حيث فيها من مزاحمة الرِّجال على الماء ما فيها، ومنَ الاحتكاك الذي لا بدّ منه للمرأة التي تزاول أعمال الرِّجال الشيء الكثير، وبالتَّالي يكون في هذا إرهاق لهما.

* ثم إنَّ صفورا تتأذّى وأختها من هذا كلِّهِ، وتريد أنْ تكونَ امرأة مصونة عفيفة مستورة لا تحتك بالرّجال الغرباء في سقايتهم وفي أعمالهم، وقد وافقت الآن موسى الذي يحقّقْ مكارم الأخلاق، وفيه تحقّق صفورا ما كانت تصبو إليه من طهارة الأخلاق، وكمال التّربية.

وقد أضحى الوقت مناسباً، فها هي ترى أباها لا يستطيع القيام بذلك إذ وَهَنَ العظمُ منه، واشتعل رأسه شيباً، ونالت منه السّنون؛ غير أنّها من هيبته وأعلتْ من مقدارِه ووقارِه، يُضاف إلى ذلك كلّه أنّها رأتْ من موسى القوّة والأمانة، وهاتان الصِّفتان أجمل زينة يرتديها الفتى.

* ذكر اللهُ عزّ وجلّ هذا العرض المبارك من صفورا فقال في القرآن

الكريم: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

إنَّ قولَها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ[١]﴾ تعليل جار مجرى الدليل على أنّه حقيق بالاستئجار، وللمبالغة في ذلك جعل ﴿خَيْرَ﴾ اسماً لـ ﴿إِنَّ﴾ وذكر فعل ﴿اسْتَأْجِرْهُ﴾ على صيغة الأمر للدلالة على أنّه أمين مجرب[٢].

* ولا شكّ أنَّ كلامَ صفورا، ووصفها سيّدنا موسى ـ عليه السَّلام ـ كلام حكيم يجمع الفضائل ولا يُزاد عليه شيئاً؛ لأنَّه إذا اجتمعت هاتان السِّمَتان: القوة والأمانة في الرّجل، فقد تَمَّ المراد وحصل المقصود؛ فالقوة تساعده على حفظ الماشية والقيام على إصلاحها واستثمارها، والأمانة تتوّج قوته؛ فلا يخشى من خيانته فيما يؤتمن عليه.

ومما يؤكد أنَّ فراسة صفورا في محلّها ـ وقد تحققت ـ ما شهد به سيّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ إذ وَرَدَ عنه أنّه قال: أفرس النّاس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب[٣].

* أمّا والد صفورا، فقد استجاب للعرض المبارك الذي أدلَتْ به ابنته[٤]

---

(١) قال القاسمي ـ رحمه الله ـ معلقاً على مديح صفورا لموسى ما نصه: كما أنَّ في مدحها له بهاتين الصّفتين دون غيرها بقاء لحشمتها، فهذا أجمل شيء في مدح النساء للرّجال من المدح الخاص الذي قد تدخل فيه بعض الكلمات التي لا تليق بمقام فتاة عفيفة. (تفسير القاسمي ١٣/ ١٠٣).

(٢) انظر تفسير أبي السّعود (٧/ ١٠).

(٣) البداية والنهاية (١/ ٢٤٤) وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٦١).

(٤) يشير إبداء الرأي من قبل صفورا عل حسن طريقة التربية التي كان يتمتع بها أبوها ذلك الرجل الصالح، حيث إنه لا يحرم ابنته من حق إبداء رأيها في الذي فيه الخير، لذلك ظهرت تربيتها الحكيمة، إذ إنها لم تتلعثم فيما تكلمت به أمام والدها، ولم =

ولم يرفضْ طلبها، إلا أنَّه قَرنَ طلبها بطلب آخر فيه مصلحتها أيضاً، وفيه صلاحها، فقد أحبّ هذا الشّيخ الصالح أنْ يكافىء موسى على إحسانه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وها هو ذا الأب اللمّاح الذكي حين علم بإحسان موسى إلى ابنتيه، قام بطلبه، وأرسل وراءه كيما يكافئه على ما أسدى مِن جميل.

* هذا، وقد رأى الشّيخ بعين بصيرته أنَّ موسى ـ عليه السَّلام ـ من الذين أخلصوا لرّبهم فاصطفاهم وجعلهم ممن يؤدّون رسالته لخلقه، ولذلك عرض عليه فكرة الزواج من إحدى ابنتيه بشرط أنْ يأجره بضع سنين، وقد حدّدها بثمانٍ أو عشرٍ، كما قصّ ربنا عزَّ وجلّ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1] [القصص: ٢٧].

* يبدو أنَّ فكرة الزَّواج هي الأصل في هذا الطّلب، ومن ثم الاستئجار، وهذا يشير إلى اهتمام الأب بسيدنا موسى ـ عليه السَّلام ـ وإرادة الخير له ولابنته صفورا بدليل أنَّه قال لموسى: ما أريد أنْ أشترط ما فيه مشقّتك، وستجدني إن شاء الله من الصَّالحين في الوفاء بما قلتُ لك من حسن المعاملة ولين الجانب.

* ولعلّه من الاستطراد المفيد ما نستطيع استنتاجه من قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ

= تخش من سوء الظن، فهي نظيفة في كل شيء، في اللفظ، في الحس، في التربية، في الأمانة، وفي كل الفضائل، لذا فإنها لم تضطرب وهي تعرض اقتراحها المبارك أمام أبيها.

(١) تعالوا نقف وقفة ندية تحت ظلال هذ الهمسة الندية نتعرف معنى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ نقول: إنّ هذا ليس هو من تزكية النفس التي نهى الله عزّ وجلّ عنها في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] ولكنما قصد الشّيخ من قوله تعريف خلقه وأخلاقه لموسى كيما يطمئن إليه ويسرّ منه، ولم يقصد أو ينو الفخر وإظهار التمدح لنفسه، وتوج كلامه بأن صرف كلّ ذلك عن نفسه، وقدم المشيئة لله عزّ وجلّ الذي يتولى الصّالحين.

﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ يظهر لنا جواز عرض الولي ابنته أو أخته على الرّجل الصّالح، فهذا الأَمْر لا شيء فيه، ولا غبار عليه، بل هو مستحب ومقرر في السُّنَّةِ النّبويّةِ المطهّرة، فإنَّه متى ما رأى الولي رجلاً صالحاً لأن يكون زوجاً لابنته، فَلَه أنْ يتخيره ويطلب منه الزّواج، ولا يُلام على هذا.

* وقد أفرد الإمام البخاريّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه باباً في كتاب النّكاح عنوانه: باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير؛ وذكر من خلاله قصّة أمّ المؤمنين حفصة ابنة عمر بن الخطاب، وكيف عرضها عمر على عثمانَ بنِ عفان وأبي بكر رضي الله عنهما إلى أنْ تزوجها رسول الله ﷺ[1]، وكذلك فإنه يجوز أنْ تعرضَ المرأة نفسها على الرّجل الصالح، وقد أفرد الإمام البخاريّ أيضاً في صحيحه باباً عنوانه: عرض المرأة نفسها على الرجل الصّالح. وذكر فيه أيضاً: أنَّ امرأة عرضتْ نفسها على النّبيّ ﷺ، فقال له رجل: يا رسول الله زوجنيها.. الحديث[2]. إذن فهذا مقرر في الشّرع، وله محاسن عديدة.

* ولنعد إلى سيدنا موسى أمام ذلك الموقف، فقد وَافَق ورضي بما اشترطه والد صفورا، وأعلن عن ذلك بكامل الرّضا، وتمَّ التّعاقد على النّكاح، كما حكى القرآن الكريم: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨].

* ولكي يظهر موسى ـ عليه السلام ـ بمظهر الوفي أمام الشّيخ وابنته، أشهد الله عزَّ وجلَّ عليهما، وكفى بالله شهيداً؛ وقد أراد سيّدنا موسى من إشهاده: أنَّه إذا أخلّ أحدهما بشيء فإن الله مؤاخذه بتفريطه، ولا سبيل لأحدهما إلى الخروج عن شيء من ذلك[3].

* وعلّق الإمام القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾

---

(١) انظر هذا بتوسع في كتابنا «نساء مبشرات بالجنّة» (٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٢).
(٢) رواه البخاري في النكاح، باب: عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح.
(٣) انظر تفسير الطبري (٢٠/ ٦٦ و٦٧) بتصرف يسير.

فقال: فاكتفى الصَّالحان في الإشهاد عليهما بالله، ولم يُشهدا أحداً من الخلق[1].

* وتؤكد الآثار الواردة إلينا، والتي وصلتنا في الصّحاح أنَّ سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ قد قضى أطول الأجلين، ويؤكّد صدق هذا ما رواه البخاريّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي منْ أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟.

قلتُ: لا أدري حتى أقدم على حَبْر العرب فأسأله؛ فقدمت فسألت ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إنّ رسول الله إذا قال فعل[2].

* وأورد الإمام السّيوطي[3] ـ رحمه الله ـ في الدُّر المنثور نقلاً عن

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٨٠).

(٢) رواه البخاريّ في الشّهادات، باب: من أمر بإنجاز الوعد حديث رقم (٢٦٨٤).

(٣) «السّيوطي»: جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السّيوطي الشّافعي وُلد في رجب سنة (٨٤٩هـ) وختم القرآن وعمره (٨ سنوات) وحفظ كثيراً من المتون، وأخذ عن شيوخ كثيرين؛ وكان السّيوطيّ ـ رحمه الله ـ آية في سرعة التّأليف، وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، ولقد أخبر عن نفسه أنّه يحفظ (٢٠٠،٠٠٠) مئتي ألف حديث، قال: ولو وجدت أكثر لحفظت.
تحدث السّيوطي عن نفسه، وأنّه رُزِقَ من سَعَة العلم وفضل الله ما جعله يقول: رزقتُ التّبحر في سبعة علوم؛ التّفسير، والحديث، والفقه، والنّحو، والمعاني، والبيان، والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة.
كان السّيوطي ـ رحمه الله ـ موسوعة علمية متحركة تسعى على قدمين، وألف في فنون المعرفة وألوانها شيئاً كثيراً، فألف في الفقه والتّفسير والحديث والتّاريخ والنّحو والطّبقات وعلوم البلاغة والتّصوف وغير ذلك، ومن أشهر مؤلفات السّيوطيّ «الإتقان في علوم القرآن» و«الخصائص الكبرى» و«تاريخ الخلفاء» و«المزهر في علوم اللغة» و«الأشباه والنظائر» وله تفسير «الدرّ المنثور في التّفسير المأثور» ويمتاز هذا التّفسير بسَرْد الرّوايات وجمعها من التفاسير السَّابقة دون أنْ يعقّب عليها، فهو كتابٌ جامع لما يروى عن السّلف في التفسير وأخذها من الكتب =

الخطيب البغداديّ في تاريخه عن أبي ذَرّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«إذاسئلتَ أي الأجلين قضى موسى؟ فقلْ خيرهما وأبرّهما، وإذا سئلت أي المرأتين تزوّج؟ فقل الصّغرى منهما، وهي التي جاءت فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فقال: ما رأيت من قوّته؟ قالت: أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه على البئر. قال: وما الذي رأيت من أمانته؟ قالت: قال لي امشي خلفي ولا تمشي أمامي[1]».

* وذكر الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ في تفسيره ما يتوافق مع الذي أورده السّيوطي فقال: أعلم أنّه رُوي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «تزوّج صغراهما وقضى أوفاهما» أي: قضى أوفى الأجلين. وقال مجاهد: قضى الأجل عشر سنين[2].

* وتزوج موسى ـ عليه السّلام ـ مِنْ صفورا[3]، ووفى للشّيخ بما عاهده عليه، مكث يعمل عنده، كان فيها كما وصفته زوجه: القوي الأمين، ووفى بأوفى الأجلين وهو عشر سنين، وبهذ أكّدَ صدق وعده، ووفاء عهده، ونحسب أنّه تفانى في سبيل تحقيق القوّة والأمانة.

= السّتة وغيرها. والسّيوطي ـ رحمه الله ـ رجل مغرم بالجمع وكثرة الرّواية، وبالإضافة إلى معرفته بالحديث الشّريف وعلله، ولكن تفسيره لا يخلو من بعض الهفوات البسيطة التي تعثر فيها، وبالجملة فهو من التفاسير الجيدة النافعة.
عاش السّيوطيّ (٦٢) سنة وتوفي بمصر في (١٩ جمادى الأولى) سنة (٩١١هـ) ودفن خارج باب القرافة، وقبره ظاهر وعليه قبة رحمه الله تعالى.
(رجال من الإسلام ٢/ ٧١ ـ ٨١) و(التّفسير والمفسّرون ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٥).

(١) الدر المنثور للسّيوطي (٦/ ٤١٠) وانظر تفسيري الخازن والبغويّ (٥/ ١٧١) والإتقان (٢/ ١٢٦٧).

(٢) التفسير الكبير للرازيّ (٢٤/ ٢٠٨) وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦١) وتفسير الماوردي (٣/ ٢٢٧) وتاريخ الطبري (١/ ٢٣٨).

(٣) الكامل (١/ ١٧٧).

* وظلّ موسى ـ عليه السّلام ـ يرعى الغنم، ولكنّه صُنِعَ في تلك الفترة على عين الله، فكانت سُبْحاتُه دقيقة في محراب الوجود، وتنطلق روحه في الأفق البعيد لتتصل بنور النّور، وتسرح في رحاب السَّموات والأرض، ومِنْ ثم تعود إليه نفسه ليفكّر في الكون وما فيه.

* وفي موافقةِ موسى ـ عليه السَّلام ـ على رعي الغنم دليلٌ من الحديثِ الشّريف، فقد أخرجَ البخاريّ في الصَّحيح بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «ما بعثَ الله نبيّاً إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنتَ؟ فقال: نعم، كنتُ أرعاها على قراريط لأهلِ مكةَ»[1].

صَـفُورَا والرِّحْلَـةُ المُبَـارَكَـةُ:

* جاء يومٌ من الأيامِ على موسى وهو في مَدْيَنَ، فإذا به تتحرّك في صدره لواعجُ الحنين إلى الوطنِ، فقد انتهتِ الفترةُ المحددةُ بينه وبين الرّجل الصَّالح، واستيقظ في قلب موسى الحنين إلى مصرَ، إلى أمِّهِ التي رَبَطَ اللهُ على قلبها مرّةً أخرى عندما فارقها موسى مهاجراً إلى مدين، اشتاق موسى إلى أمِّهِ وأخته التي قصَّتْ خبره وهو رضيعٌ، ودلّتْ آلَ فرعون على مَنْ يرضعه ويكفله.. اشتاق إلى أخيه هارون ذلك الأخ التّقي الوفي.. وأعتقد أنَّه اشتاق إلى امرأة فرعون، تلك التي أحبّته حبّاً شديداً وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي﴾، أعتقد أنه أشتاق إلى صفائها، وربما قد عرف إيمانها، ولاحظ، بل سمع مناجاتها مع خالقها ربّ السّموات والأرض إذ قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

* بثّ موسى ما بنفسه إلى زوجه صفورا قال: إنّي اشتقتُ إلى أمّي وأختي وأخي هارون... وأودُّ أنْ تستعدي للرّحيل إلى مصر فإنَّ أهلي وشيعتي هنالك.

* يبدو لي ـ والله أعلم ـ أنَّ ذلك الحنينَ إلهامٌ مِنَ الله إلى موسى حتى تتحقّق مشيئةُ الله في موسى، وتتمّ رسالته على أرض مصرَ، على الرّغم من أنَّ

---

(١) رواه البخاريّ في الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط.

موسى خرجَ من مصرَ خائفاً يترقَّبُ، لكنَّ الحنينَ نحوها يحركه ويحرّك مشاعره نحو أرض نشأته، فاتخذ القرار بالعودة، ربما بوحيٍ وإلهام من الله، هذا في علم الله.

* كانت صفورا ـ كما أسلفنا ـ من أكمل نساء عصرها ديناً ووفاء، فسرعان ما استجابتْ لرغبةِ زوجها، وأعدّتْ متاعها، وما تحتاج إليه من أدوات السَّفر، وخرجت مع موسى إلى مصر وكانت حاملاً ـ كما ذكر المفسّرون ـ وكانت قد ولدت لموسى وَلَدَيْن، خرجت صفورا مع موسى بعد أنْ ودّعتْ والدها الشّيخ الجليل وأختها، وقد ودّعهم الشّيخ وداعاً حَسَناً، ودعا لهم بالتّوفيق والإكرام.

* وخرج موسى ـ عليه السَّلام ـ مع أهله[1]، وسار ومعه بعض المواشي والمتاع مما يعينه على سفره، ولما فَصَلَ عن مَدينَ وسار باتجاه سيناء، وهنالك أخطأ موسى الطّريق[2]، فاتجه نحو جانب الطّور الأيمن في عشيّةٍ شاتيةٍ شديدة البرد، وكانتِ الرِّياحُ شديدة، وقد أرخى الليل سدوله على الدّنيا، وغابت النّجوم وراء السّحب التي تركضُ هي الأخرى ركض الخائفين، هذا وقد اشتدّ البرقُ، وأخذتِ السّماء ترعد وتمطر، عندئذ توقف موسى وزوجه عن المسير، ونزل ونصب خيمته، وآوى في داخلها زوجه وطفليه، ثم خرج من الخيمة يجوسُ الفضاء ببصره لعلّه يجد ناراً أو جذوة من قبس يخفّف بها من حدّة البرد والظّلام.

* رفع موسى يده فشاهدها عن بعد... آنس ناراً من جانب الطّور الأيمن... امتلأ قلبه بالسّرور، التفت إلى زوجه صفورا وقال: إنّي آنست

---

(١) قال الماوردي: أهله: زوجته صفورا.
قال تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩]وفي هذا دليلٌ على أنّ الرجل يذهب بأهله حيث شاء؛ لما له عليها من فضل القوامة وزيادة الدرجة، إلا أنه يلتزم لها أمراً، فالمؤمنون عند شروطهم.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير (١/ ١٧٧).

ناراً سأنطلق لعلّي آتيكم منها بخبرٍ، أو لعلّي أجدُ أحداً أسأله عن الطّريق الموصلة إلى مصر.

* أَمَرَ موسى أهله أنْ يجلسوا مكانهم ليحضر لهم ما يُذْهِبُ عنهم البرد ويطرد عنهم الظّلام، ذكر الله هذا المشهد الدّقيق في تلك الساعة الحرجة: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

* قال الفرّاء[1] ـ رحمه الله ـ في معاني القرآن: آنست ناراً: وجدت ناراً،

---

(١) «الفراء»: يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الدّيلميّ، إمام العربية أبو زكريا المعروف بالفراء. كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي وأعلمهم باللغة وفنون الأدب. ولد بالكوفة سنة (١٤٤هـ) وكان أكثر مقامه ببغداد لتعليم أولاد المأمون.
وصفه الداوديّ فقال: كان ديّناً متورعاً على تيهٍ وعجب وتعظّم، وكان يتفلسف في تصانيفه، ويسلك ألفاظ الفلاسفة، واشتهر بالفرّاء ولم يعمل في صناعة الفِراء، وقيل في سبب لقبه: لأنّه كان يفري الكلام، ولأنّه كان يحسنُ نظم المسائل.
كان الفراء قوي الحفظ، لا يكتب ما يتلقاه عن الشّيوخ استغناء بحفظه. قال عنه ثعلب: لولا الفراء لما كانت عربية لأنّه خلّصها وضبطها، ولولا الفرّاءلسقطتِ العربية لأنّها كانت تتنازع ويدعيها كلّ مَنْ أراد، ويتكلم النّاس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب.
وقال البغدادي في تاريخه: وكان يقال: النّحو الفرّاء، والفرّاء أمير المؤمنين في النّحو.
ويبدو أنَّ الفراء كان متعدد المواهب، فكان فقيهاً عارفاً بالطّبّ وبأيام العرب وغير ذلك من المعارف في القرن الهجري الثاني. صنّف الفرّاء كتباً كثيرة منها: «اللغات» و«غريب الحديث» و«الحدود» و«المذكر والمؤنث» و«معاني القرآن» وهذا الكتاب معاني القرآن ليس تفسيراً للقرآن فحسب، وإنّما هو عبارة عن محاضرات كان يلقيها الفراء في مجالسه على العلماء وفيهم (٨٠ قاضياً). وقد جمع فيه الفراء من فنون العلم ما جعل هذا الكتاب من المصادر الخالدة على مرّ الدهر. ولكن الغالب عليه علوم اللغة من نحوٍ وصرف وبلاغة وغير ذلك، وبالجملة فهو من الكتب النافعة إن شاء الله.
عاش الفراء قرابة (٦٧ سنة)، وتوفي بطريق مكة سنة (٢٠٧هـ)، رحمه الله تعالى. =

والعرب تقول: اخرج فاستأنس هل ترى شيئاً، ومن أمثال العرب: بعد اطلاع إيناس[1].

* انطلقَ موسى مسرعاً في الوادي المقدس يتوكأ على عصاه باتجاه النَّار التي تراءتْ له عن بُعْدٍ، كان الماءُ قد بلل جسمه، وظلّ يسير في وادي طوى، بعد دقائق لاحظ شيئاً غريباً في هذا الوادي، لم يكن هناك رَعْدٌ ولا برق ولا رياح، كان الكون قد لفَّه خشوعٌ عجيب، وسكون مفعم بالتّسبيح، وصمتٌ عظيم ساكن خاشع.

* أحسَّ موسى بشيء ما يحرّك نفسه، لكنّه لم يعرف ماهية هذا الشيء.

* اقترب من النّار... لم يكد يقترب منها حتى نودي من ربّ العزة: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨].

* ارتعدتْ فرائصُ موسى، وتسلّل الخوفُ إلى نفسه، وشعر برغبة ملحّة في الفرار مما سمع ورأى، لكنّه تماسك رغم أنه مرتعش من ذلك الموقف، كان الصّوت يجيء من كلّ مكان، ولا يأتي من مكان محدد، أو من جهة محددة، لم يستطعْ موسى تحديد جهة الصّوت.

* مرة أخرى، دنا موسى من النّار، ليأخذ منها قبساً لأهله، فإذا المكان يتّسم بالخشوع والرهبة والنّور، وإذا الله عزَّ وجل ينادي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١١ ـ ١٢].

* ازدادت دهشة موسى، فإذا بالنّداء العلويّ من ربِّ العالمين يناديه: ﴿.. وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٣ ـ ١٧].

= (طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٦٧ و٣٦٨) و(تهذيب التّهذيب ١١/ ٢١٢) بشيء من التصرف.

(١) معاني القرآن (٢/ ١٧٤).

وسمع موسى كلام الله عزَّ وجلَّ من جميع جوارحه، فعلم إذ ذاك أنَّه كلامُ الرّحمن الرّحيم العليّ العظيم، لحظ إذ هدأت نفسه، واستأنس بالنّداء، وذابت روحُه فيما كان، وغاب عن أهله وولده، وإنّه الآن في الحضرة الإلهية مستغرقٌ في المناجاة مع ربِّهِ عزّ وجلّ، وإذا النّداء العلويُّ من العلي الأعلى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧].

أجاب موسى في الحضرة الإلهية: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[1] [طه: ١٨].

وإذا الأَمْرُ الإلهي قد صَدَرَ لموسى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾...

رمى موسى العصا دون أنْ يسأل عن السَّبَبِ، لكنْ ماذا حدث؟!!.

* كان ذلك الموقفُ غريباً جداً.. لقد تحوّلتِ العَصَا التي يتوكأ عليها إلى ثعبانٍ مبين، عندئذ احتلّ الخوف قلبه، وكاد يُسْلِمُ ساقيه للريح... جاءه النّداء العلويّ من الله مُطَمْئِناً: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:

---

(١) علّق سلطان العلماء الإمام عزّ الدين بن عبد السّلام ـ رحمه الله ـ على هذه الآية: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] فقال: لو قال موسى عليه السَّلام هي عصا، كان جواباً مطابقاً، فَلِمَ زاد الإضافة؟ وما فائدتها؟ وما فائدة إخبار الله عزّ وجلّ بالجمل التي بعدها، مع أنَّ الله سبحانه عالم بذلك؟.
وما فائدة قوله سبحانه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] مع أنه يعلم ذلك وموسى يعلم ذلك؟!.
والجواب: إنّ الله سبحانه أراد أن يؤنسه بكلامه، وكذلك جرتْ عادة العظماء إذا أرادوا تأنيس شخص يهابهم، سألوه عما يعلمونه وعما لا يعلمونه، وليس مقصودهم أنْ يخبرهم ويحصل لهم علم، بل لأجل تأنيسه فقط، وكذلك أنَّهم إذا اشتغلوا عنه فلم يسألوه شرع هو في حديث يتحيل على تحصيله حتى يحدثهم به ليحصل الأنس والشّرف بحديثه معهم لا سيما من هو أعظم العظماء، وأكرم الكرماء، فلهذا بسط موسى عليه السَّلام القول في ذلك (انظر فوائد في مشكل القرآن للعز بن عبد السلام ص ١٧٩ و١٨٠).

١٠] ولكي يزيد من اطمئنان موسى ناداه: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١].

* وعاد موسى نحو الصّوت ووقف... كانتِ العصا التي استحالت إلى حيّة ما تزال تتلوّى وتتحرّك.. ولم تزل حيّة تسعى.. جاء الأمْرُ الصّادر من ربِّ العالمين يقول: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١] لم تكد يد موسى تمتد نحو الحيّة حتى تحولت في يده إلى عصا، إلى عصاه التي يعرفها ويألفها في حِلّهِ وترحاله.

* مرة أخرى صَدَر الأمرُ الإلهي لتحقيق معجزة أخرى... ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ [القصص: ٣٢].

* وضع موسى يده في جيبه وأخرجها فإذا هي تتلألأ كالبدر في وسط السَّماء، وضمّ يديه إلى صدره، ووضعها على قلبه فسكن ما به من خوفٍ واضطراب، وعادت إليه نفسه.

* وفي تلك اللحظة جاء نداء من العليّ الحكيم لموسى: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص: ٣٢].

* عرف موسى أنّه أُمِرَ بالرّسالة من ربِّ العالمين، وعليه تبليغ ما أُمِرَ به، فقد اصطفاه الله لنفسه، وكفى؛... وسيتم أمر الله بإذن الله.

* والآن، فقد تركنا صفورا زوج موسى في خيمتها تنتظر عودة زوجها، لا ندري ما الوقت الذي استغرقه موسى في مناجاته، ولا ندري ماذا دار بذهن صفورا... كلّ ما نتوقعهُ أنَّ الله سبحانه قد ربط على قلبها... ولم تساورها المخاوف إلى أن عادَ زوجها موسى وزفَّ إليها بشارة النّبوة والرّسالة، ثم انحدر بها إلى مصرَ....

* لا نملك معلومات عن حياتها في مصر، إلا أنّنا نتوقع أنّها أكملت مع سيّدنا موسى حياتها، وكانت له خير عون في أداء رسالته... ولا شك أنّها

كانت تقرأ في التوراة، وتعمل على مرضاة الله عزَّ وجلَّ. . . .

* رضي الله عن زوج موسى، وأدخلها في رحمته مع مَنْ شاء، وهو أرحم الراحمين.

* * *

زوج النبي زكريا عليه السلام

* زوج نبيّ كريم، وأمّ نبيّ حكيم، وخالة نبيّ من المقرّبين.
* ولدت نبيّاً بعد أن كانت عاقراً لا تنجب؛ بفضل الله وقدرته.
* جاءتها البشارة الإلهية تزفّ إليها أجمل ما تعتزّ به المرأة (الأمومة).
* كانت في قمة الطاعة لله عز وجل والإخلاص له سبحانه.

فـي رِحَـاب الطَّـاهِـراتِ:

* مومنةٌ كريمةٌ طيِّبَةُ المنابتِ، طاهرةُ الأصولِ، نشأتْ في حجْرِ الفضيلةِ، وغُذّيتْ على مائدة التُّقى، وعاشتْ عيشة الطُّهر والنَّزاهة، وصَلَتْ ليلها بنهارها في طاعةِ اللهِ، فاختصّها اللهُ بمكرمةٍ عظيمةٍ رفعتها عالياً في سماء الأبرارِ، وأخرج منها نبيّاً منَ الصَّالحين، فكانت زوجُ نبيٍّ كريم، وأمُّ نبيٍّ حكيم، وخالة نبيٍّ من المقربين ومن الصَّالحين.

* فأمّا زوجها فهو النّبيُّ الكريم الذي نادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب، وبشّرته بشارة حَلَّقَ فيها عالياً في الأفق العلويّ؛ فجعلته يُسبِّح بكرةً وعشياً.

وأمّا ابنها فهو النّبيّ الحكيم الذي اختصّه الله عزَّ وجلَّ بالحُكْمِ وهو ما يزال صبيّاً، ووصفه بالتُّقى؛ والتُّقى لباس الخير للصَّالحين، كما وصفه بالبرِّ والتَّواضُعِ، واختصَّه بالسَّلام في جميع أطوار حياته... زِدْ على ذلك أنّه اختصّه بمكرمة السَّبْق إذ جعله أول مَنْ يُدعى باسم يحيى، وجعله سيِّداً وحصوراً، وفوقَ هذا كلّه جعله نبيّاً منَ الصَّالحين.

* وأمّا ابنُ أختها فهو النّبيُّ الزّكيُّ، الوجيه في الدُّنيا والآخرة ومن المقرّبين الذين جَعلهم الله مِنْ عبادِهِ وآتاه الكتابَ وجعلهُ مُباركاً حيثما كان، وأوصاه بالصَّلاة والزّكاة والبرّ؛ وجعله مِنْ الأتقياءِ، ولم يجعلْه جباراً شقياً.

* إيْشَاع[1] بنتُ عمران زوج زكريا ـ عليه السَّلام ـ هي تلكم المرأة

---

(١) غرر التّبيان (ص ٢٢٥) ومفحمات الأقران (ص ٦١) ومختصر تاريخ دمشق (٢٧/ ٢٣٦) وتفسير القرطبيّ (١١/ ٧٩) والكامل لابن الأثير (١/ ٢٩٨) والصّاوي على الجلالين (٣/ ٢٧) والمعارف (ص ٥٢) وتفسير الرازيّ (٨/ ٢٢) وفتح الباري (٦/ ٥٤٠) وغيرها كثير.

الصَّالحةُ التي يَطيبُ الحديثُ عنها في هذه الصَّفحات.

* هذه المرأةُ الطّاهرة من النِّسوة اللاتي عَقَدْنَ مع الفضيلة عروة لا انفصام لها، فقد كانت تسارعُ إلى كلِّ مكرمة، وكلّ خير وفضيلة اقتداء بزوجها زكريا، وحبّاً برحمة الله تعالى.

* أثنى الله عزَّ وجلَّ على هذا البيتِ ذي الدَّعائم الثَّلاث: زكريا، وزوجه، ويحيى، وذكر فَضْلهم، وأبانَ كرامتهم، وذلك بحبِّهم للخيراتِ، ودعاءِ الله في السِّرِّ والعلانية، والخشوعِ في العبادة.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾:

* إنَّ قُدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ ليس لها حدود، وليس لها ضوابط، ولذلكَ فإنَّ الإيمان باللهِ على أساسٍ صحيحٍ، يجعل الإنسان في اطمئنانٍ وأَمان.

* من هنا بدأت قصّة نبيّ اللهِ زكريا، وقصّة زوجه إيشاع مع الخالقِ البارىء المصور.

* كانت إيشاعُ زوج زكريا امرأة عاقراً لا تلدُ، وهي ما تزال في ريعان الشَّباب، وتقدمت بها وبزوجها زكريا الحياة، وأضحى زكريا شيخاً كبيراً وَهَن عظمه، وانتشر الشَّيبُ في رأسِهِ، بينما أضحت زوجه امرأة عجوزاً قد أثّرتْ فيها السّنون؛ إلا أنَّ وجهها ظلَّ يحتفظُ بنورانيّةٍ ربانيّةٍ جعلتها تزدادُ مهابة في نَفْسِ مَنْ يراها.

* وتبدأ الرِّحلة الشَّائقةُ والمعجزة الكبرى... أخذَ زكريا ـ بعد أنْ كفل مريمَ ابنة عمران ـ يلاحظ تلك العناية الرّبانية لمريم، ويرى كرامة الله لها، كرامة من الله لمريم الصَّالحة التي تقبّلها ربّها بقبُول حَسَن، وأنبتها نبتاً حسناً، فقد كانت مريمُ كريمةً على الله، إذ اصطفاها الله واختارها على نساء العالمين، وكانت أمّاً لنبيٍّ جاء ميلاده معجزة كخلق آدم.

* كان لمريم ـ عليها السَّلام ـ محراب خاص تتعبد فيه، وكانت لا تغادر مكانها إلا قليلاً، تقضي وقتها كلّه في عبادة وصلاة، فقد وصلت الصَّلاة بالمناجاةِ، والذِّكْر بالشُّكْرِ والحمد الله عندما تقومُ منَ الليل وأطراف النّهار.

* وباعتبارِ كفالة زكريا لها، كان يزورُها في المحرابِ، وهذا شيءٌ طبيعي، لكنَّ شيئاً ما كان يلفتُ انتباهه ويحرك وجدانه، ويجعله أمامَ شيءٍ مدهش، إذ كان يَجِدُ عند مريم رزقاً من اللهِ، والعجيب في ذلك ـ كما قال المفسِّرون ـ:

إنَّ زكريا كان يجدُ عند مريم فاكهة الشِّتاء في الصَّيفِ، ويجدُ فاكهة الصَّيف في الشِّتاء[1]، حقّاً إنّه لشيءٌ مدهش.

* لم يَرَ ذلك المنظر مرّةً واحدة، بل تكرر ذلك مرّات ومرّات، وتكرر المشهد أمام زكريا، عندئذ سألها: مِنْ أين يأتيك هذا الرّزق؟ وتجيبُ مريم: من عند الله، وهذا ما ذكرته الآية الكريمة في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] [آل عمران: ٣٧].

* عند رؤية زكريا هذه الكرامة تحرّكتْ في نفسهِ عواطف الأبوة، وتمنّى أنْ يرزقَه الله ولداً صالحاً، وما ذلك على الله بعزيز؛ نعم، عندما رأى سيّدنا زكريا خارق العادة استحكم طمعه في إجابة دعوته.

* لم يكن أحدٌ يعرفُ ما بداخل زكريا ـ عليه السَّلام ـ من حبٍّ للذّرية التي ترثُ النّبوّة منه ومن آل يعقوب، كان يدركُ تماماً أنَّ زوجه عاقر وهي في حال

---

(١) الكامل (١/ ٢٩٩).

(٢) إنَّ في هذه الآية الكريمة: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ دليلٌ قويٌّ في إثبات الكرامة والمنحة الإلهية لأولياءِ الله المتقين، ولذا يجبُ الإيمان بها، وعدم إنكارها لهم.
وفي العقيدة الطّحاوية تحدّثَ الإمام الطّحاويّ ـ رحمه الله ـ حول أولياء الله، وما جاء مِنْ قولِهِ عنهم: ونؤمنُ بما جاء مِنْ كراماتهم، وصحَّ عن الثِّقَات من رواياتهم.
وأستطيعُ أنْ أقولَ الآن:
إنَّ الله عزَّ وجلَّ أعطى مريم ابنةَ عمران هذه الكرامة لفضلها ومكانتها عند ربّها عزّ وجلّ، وكذلك وهب لإيشاع زوج زكريا ابنها يحيى لتقاها وفضلها كذلك، والله تعالى أعلم.

صباها، ولم تنجبْ منه، فكيف وقد فارقت مرحلة الشَّباب منذ سنين عديدة، وأضحتْ عجوزاً كبيرة؟! لكنَّ قدرةَ اللهِ فوقَ هذا كله، ونظر ثانية إلى المكرمة الإلهية لمريم ابنة عمران؛ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

* قال القاضي عبد الجبار بن أحمد[1] ـ رحمه الله ـ في تعليق له على هذه الآية مفاده: إنَّ ذلك من معجزات زكريا ليعرف حال مريم ابنة عمران وما تعتقده في الرِّزق الذي عندها، فعندما قالت هو مِنْ عند الله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾[2] لأنه عرف منها اليقين، فلمّا أعجبه ذلك سأل الله أنْ يرزقَه ولداً، فبشَّره الله بيحيى على ما نطقَ به الكتاب.

* وذكر الله عزَّ وجلَّ ذلك في سورة مريم: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣

---

(١) «عبد الجبار»: عبد الجبار بن محمد بن عبد الجبار القاضي أبو الحسن الهمذاني الأسداباذيّ، وهو الذي تلقبه المعتزلة بـ: قاضي القضاة، عاش دهراً طويلاً وفاق أقرانه، وسار ذكره، وبَعُدَ صيته، ورحل إليه الطّلاب للعلم، وأخذ عنه كثير من العلماء، وولي قضاء الريّ وأعمالها، وكان له معرفة بعلوم الحديث وغيرها.
خلَّفَ القاضي عبد الجبار مصنفات في أنواع مختلفة من أنواع مختلفة من العلوم منها: «كتاب المبسوط» و«كتاب المحيط» و«النّهاية والعمدة» في الفقه، وله تفسير بعنوان: «تنزيه القرآن عن المطاعن»، وقد أوضح فيه كثيراً من جمال التركيب القرآني الذي ينطوي على البلاغة والإعجاز، وعلى الرغم مما في الكتاب من النّزعات الاعتزالية، فإن هذا التّفسير جيد العرض، ولكنه لم يتعرض لجميع الآيات في القرآن، وإنّما يشرح بعض الوجوه، ويبني عليها بعض المسائل التي تشهد بقوة وغزارة علمه؛ توفي القاضي عبد الجبار في ذي القعدة سنة (٤١٥هـ) رحمه الله.
(طبقات المفسرين للداودي (١/ ٢٦٢ و٢٦٣) و(التفسير والمفسرون ١/ ٣٨٩ ـ ٤٠١) بتصرف.

(٢) في دعاء زكريا مشروعية طلب الولد، لما يرجوه من نفع الولد في حياته وبعد موته. قال ﷺ: «إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا في ثلاث» وذكر منهن: «وولد صالح يدعو له».

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا[1] وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا[2] ﴾ [مريم: ٣ ـ ٦].

* وكان دعاء سيّدنا زكريا خفيّاً، لم يكن يجهرُ بدعائِهِ، لِكَوْنِ الجهر والإخفاء سيّان عند الله عزَّ وجلَّ الذي يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تخفي الصُّدور، والذي يعلم السِّرَّ وأخفى، لذلك استحبَّ زكريا ـ عليه السَّلام ـ الإخفاء في دعائه لأنّه أدخلُ في الإخلاص، وأبعدُ عن الرِّياء، وهو بذلك يكون أحبّ إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال قتادة ـ رحمه الله ـ: إنَّ الله يعلم القلبَ التَّقي، ويسمعُ الصَّوتَ الخِفي[3].

* وزيادةً في خشوع زكريا وخلوصه ورجائه في دعائِهِ، أفصح عن حاله كأنّه يقول: يا ربّ هذا حالي ـ وأنتَ به عليم ـ لا يمكن معه الولد، ولكنّي يا رب، أطلبُ منك هذا الطّلب لأنّه لا يعجزك شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وأَمْرُك ينفذُ في كلِّ شيء، وإنّه يا ربّ لا حَدَّ لرحمتك التي تصيبُ بها من تشاء، ولا حدَّ لقدرتك العظيمة.

---

(١) قال الشّريف الرّضي: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ وهذه من الاستعارات العجيبة والمراد بذلك: العبارة عن تكاثر الشَّيب في الرّاس حتى يقمر بياضه، وينصل سواده، وفي هذا الكلام دليل على سرعة تضاعف الشّيب وتزايده، وتلاحق عدده حتى يصير في الإسراع كاشتعال لهب النَّار فيعجز مطفيه ويغلب متلافيه.
(تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص ١١٤).

(٢) «الولد الرضي»: الذي آتاه الله كمال الفعل والحزم، وإذا كان بهذه الصّفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وجلب السُّرور والنعمة لأبيه وأمه، وهكذا فليتضرّع العبدُ إلى مولاه في هداية ولده، أو نجاته في أولاه وأخراه، اقتداء بالأنبياء ـ عليهم الصّلاة والسَّلام ـ والفضلاء الأولياء، فإنَّ ذلك مستحبٌّ في الشّريعة الطّاهرة. ذلك أنَّ صلاح الولد وهدايته عون للوالد على دينه ودنياه.

(٣) تفسير الرازي (٢١/ ١٥٣) و(تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٥) مع الجمع بينهما.

* كانت غاية زكريا ـ عليه السَّلام ـ استرحام الله سبحانه، مع أنَّ الله عليمٌ بحاله وحالته ومطَّلعٌ عليه وعلى زوجه اللذين وهن العظم منهما، وانتشرَ بياض الشَّعر في رأسيهما كانتشار النّار في الهشيم، والمراد من هذين الوصفين: الوهن والشَّيب؛ الإخبار عن الضَّعف والكبر ودلائله الظّاهرة والباطنة.

شَـأْنُ الـدُّعَـاءِ:

تعوّد سيّدنا زكريا ـ عليه السَّلام ـ إجابة الله له في دعائه دائماً وعندما دعاه بالخفاء بأنْ يهبَه ولداً، أيقن بأنَّ جميل صنع الله معه سيثمر بالإجابة.

* لم يكن هدف سيدنا زكريا من دعائه عرض الحياة الدّنيا وإنّما كان هدفه من دعائِهِ أنْ يكرمه الله بولدٍ صَالح يرث النّبوّة من بعده، ويحفظ أمْرَ الدِّين الذي هو منْ عندِ الله، ومن ثمّ لا يضيعه، وهذا الدِّين هو تراثُ آبائه وأجداده من الأنبياء، فقد كان سيّدنا زكريا ـ عليه السَّلام ـ من ذريّة سيّدنا يعقوب ـ عليه السَّلام ـ.

* وقد خشي زكريا ـ عليه السَّلام ـ الموالي[1] من بعده ألا يحسنوا خلافته في أمتّه، ويبدّلوا عليهم دينهم، وزكريا ـ عليه السَّلام ـ لم يعقبْ نَسْلاً لوجود عائق، وهو أنَّ زوجه إيشاع كانت عاقراً، وليس هناك في ذريّته مَنْ يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته[2]، وذلك قوله عزّ وجلَّ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[3] [مريم: ٥ ـ ٦].

---

(١) «الموالي»: الذي يلونه في النسب وهم بنو عمّه، وكانوا أشرار بني إسرائيل.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٧٨ و٧٩) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٠٦) وتفسير أبي السعود (٥/ ٢٥٣ ـ ٢٥٥).

(٣) «يرثني»: وَرِثَ يَرِثُ وراثَة، وَرِثَهُ فهو وارث، وهم ورثة، يجيء لما يأتي: فيقال: ورث الميت، استحقَّ مما خلّفه الميت من مال لقرابته له، أو علاقة توجب ذلك، على حسب ما يقضي به العرف أو الشَّريعة. =

ويبينُ الله عزَّ وجلَّ هذا الهدف من دعائه في سورة الأنبياء حيث قال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] أي: لا تتركني بلا وَلَدٍ ولا وارث يقوم في النّاس بعد، «وأنتَ خيرُ الوارثين» وهذا دعاء وثناء مناسب للمسألة ذاتها[1].

* إنّ سيّدنا زكريا ـ عليه السَّلام ـ سألَ الله وليّاً، هذا الوليُّ غيرُ جارٍ أَمْرُه على المعتاد من إيجاد الأولادِ لانعدام الأسباب المعتادةِ فتكون هبة كرامةٍ له، وزاد زكريا في طلبه مِنْ ربّه بأنْ يجعلَ ما يَهَبَهُ مرضياً عنده وعند خلقه، يحبّه ويحببه إلى الخَلْقِ في دِيْنِهِ وفي خلقه، ولعلّ الرّضا مِنَ الله على العبد من أعظم النِّعم التي يسبغها الله على عبده.

البُشْرَى العُظْمَى:

* نظر زكريا إلى زوجه إيشاع نظرةَ عَطْفٍ، ورنا إليها رنوّ إكبار، فرأى أشعّة مِنْ نورٍ ترتسمُ على وجهها، وابتسامة الرِّضا على شفتيها.. كان قلبها موصولاً بالله؛ ساكناً، وقوراً... عرفتِ الله حقَّ المعرفةِ، فلم تَعُدْ تعرفُ إلا الخالق.

* أيقن زكريا أنَّ رحمة اللهِ قد مسَّتْه نفحاتها، طوّقته لحظاتُ العناية

= ويقال: ورثَ المال: استحقه بموت قريبه أو موت من له به علاقة تسوغه ذلك.
ويقال: ورث أباه أو غيره في العلم والصَّلاح أو ما جرى هذا المجرى: كان له منه ما ورثه، وهذا على التّشبيه بوراثة المال.
ويقال: ورثه ماله: ملكه بعده، ويقال من هذا: ورث عدوه سلاحه وماله؛ سلبه إياه كأنَّه الوارث له.
ويقال: غلب عدوه وورث أرضه وماله: ملكه يتصرّف فيه كما يشاء تصرف الوارث، والله الوارث للأرض ومن عليها: مالكه يتصرف فيه لا يعارضه أحد.
ويقال: ورث العلم والصَّلاح ونحوهما: أدركه وناله واستقرّ له ذلك كأنه ملك له في يده.
وقد وردت كلمة «يرثني» مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة مريم الآية (٦).

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية (٩٨) من سورة الأنبياء بشيء من التصرف.

الإلهية، ارتسمت لحظات الإجابة في رعايةٍ وعطفٍ ورضا... وإذ ذاك جاء النّداء العلويُّ من العزيز الجليل: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾[1] نعم نداء كهمس الحنان، وهمس الرفق، وجاءتِ البُشرى على جناح السُّرعة بوساطة الملائكة الكرام الذين لا يعصون الله ما أمرهم... ويفعلون ما يؤمرون.. نادته الملائكة بأَمْرِ مليكهم المقتدر نداءً جلياً: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ فجأة تسقطُ البشارة العلوية بغلام يحملُ صفات رقيقة مباركة أعلاها النّبوّة ثم العلم، والمنزلة الرفيعة... حرم زكريا وزوجه الولد أكثر من نصف قرن من الزّمان، ولك أنْ تتصور ذلك الموقف الذي لا تستطيع أعظم العواطف أنْ تترجمه إلى سطور[2].

* ولم يكتفِ المبشرون بزفِّ بشارة الغلام لزكريا، وهل هناك أفرح للقلب من هذه البشارة بعد أنْ مرّتِ السّنون الطّويلة ولا أمل بالولد؟! ما أجمل لحظة

---

(١) ذكر الإمام القرطبيّ ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ كلاماً جميلاً فقال: في الكلام حذف؛ أي: فاستجاب الله دعاءه، فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فتضمنتْ هذه البُشرى ثلاثة أشياء:
أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة.
الثّاني: إعطاؤه الولد وهو قوة.
الثّالث: أنْ تفرد بتسميته (تفسير القرطبي ١١/ ٨٢).
وقال القاضي عبد الجبار بن أحمد ـ رحمه الله ـ معلقاً على هذه الآية بقوله: وربّما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ ما الفائدة في ذكر الاسم واللقب والكلّ في ذلك سواء، وما الفائدة في قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ولو جعل له سمياً لم تتغير البشرى؟!.
وجوابنا: إنَّ من تمام نعمة الله أنْ يرزقه المسمى ويتولى اسمه؛ لأنَّ ذلك يكون في الإنعام أزيد، كذلك إذا لم يكن له من قبل من يساويه في الاسم كان الإحسان أعظم.

(٢) أكرم الله تعالى زكريا بولادة يحيى بعد دعاء ومناجاة، وتضرّع وإخلاص، وأدب وتفويض الله تعالى، وذلك في سن الكبر هو وامرأته العاقر، فمن دعا بإخلاص وصِدْق أجاب الله دعاءه وحقّق آماله.

اللقاء! بل ما أجمل البُشرى ذاتها . . إنّه غلامٌ ذَكَرٌ، وليس الذَّكَرُ كالأنثى.

* أضاف المبشّرون الذين يحملون رسالتهم من ربِّهم بأنَّه سيغمرُ زكريا بالعطفِ أيضاً، إنَّ الله عزَّ وجلَّ اختار له اسم الغلام الذي بشّره به «اسمه يحيى» وماذا في هذا الاسم؟!.

* إنَّ هذا الاسم بِكْرٌ لم يسمه أَحَدٌ من قبل: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[1] [مريم: ٧].

رُوي عن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ في التّعليق على الاسم أنَّه قال: وإنَّما سُمّي يحيى لأنَّ الله أحيا به عقْرَ أمِّهِ.

---

(١) من الأشياء التي حضَّ الإسلام عليها ورغّب فيها، أنْ يختارَ الآباء لأبنائهم أفضل الأسماء، إذ على الآباء أنْ يتخيروا لأبنائهم أحْسَنَ الأسماء، وأجملها وأفضلها. فقد كان رسول الله ﷺ يستحبّ الاسم الحَسَنَ لما فيه من الصِّفات المحمودة، وقد تحققت هذ الأسماء لرسول ﷺ حين ولادته؛ في الوالدة والقابلة والحاضنة والمرضع ـ راجع ذلك في كتابنا نساء من عصر النّبوّة (٢/ ١١٧). وينبغي على الآباء تجنب التّسمية بما يلي:
١ ـ الاسم القبيح الذي يمسّ الكرامة الإنسانية، ويكون مدعاة للسّخرية والاستهزاء، وقد ثَبَتَ عن النّبيّ ﷺ أنَّه كان يغير الاسم القبيح.
٢ ـ الأسماء المعبّدة لغير الله عزّ وجل، كعبد اللات، وعبد العزّى، وعبد الكعبة، وعبد النّبيّ، وعبد الزّهراء، وما شابه ذلك، فإنّها محرمة التّسمية بها بالاتفاق.
٣ ـ الأسماء المختصة بالله عزّ وجلّ، فلا يجوز التّسمية بالخالق، ولا بالصّمد، ولا بالهادي، ولا بالعليم، ولا بغيرها.
٤ ـ الأسماء التي لها اشتقاق من كلمات فيها تشاؤم حتى يسلم الأولاد من مصيبة هذه التّسمية وشؤمها.
٥ ـ وكذلك مما لا ينبغي التسمية به الأسماء التي فيها تمييع لأنّها تفقد صاحبها الهيبة عند الكبر، وهذا هو هدي النّبيّ ﷺ.
وقد عقد ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ فصلاً عن هذا الموضوع في كتابه القيم «زاد المعاد»، فليراجع.

وعن قتادة ـ رحمه الله ـ: أنَّه سُمِّي بذلك لأنّه أحيا قلبه بالإيمان، والله أعلم.

* لا ندري ما الشّعور الذي اعترى زكريا ـ عليه السَّلام ـ لحظ إذ... نحسب أنَّ زكريا فُوجِئَ بهذه البُشْرى العظيمة التي أتته، وهو في أشرف الأماكنِ وأطهرها، وفي أعظم الحالات وأكملها... في محرابه وهو يدعوه ويناجي: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ...﴾ [آل عمران: ٣٩].

* تساءل زكريا ـ عليه السَّلام ـ وهو في محرابه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[1] [مريم: ٨] أدهشه

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: لما دعا زكريّا ربّه أنْ يَهَبَ له غلاماً هبطَ جبريل ـ عليه السَّلام ـ فبشّره بيحيى فقال زكريا عندها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، وأخبر بكبر سنّه، وعلّة زوجته، فأخذ جبريل عوداً يابساً، فجعله بين كفي زكريا، فقال: أدرجه بين كفيك، ففعل، فإذا في رأسه عودٌ بين ورقتين يقطر منهما الماء، فقال جبريل: إنَّ الذي أخرج هذا الورق من هذا العود، قادر على أنْ يخرج من صلبك، ومن امرأتك العاقر غلاماً. (الدر المنثور ٥/ ٤٨١).

وللفخر الرّازي ـ رحمه الله ـ تعليقٌ لطيفٌ في هذا الموقف إذ يقول: اعلم أنّه تعالى إنّما قدم قصّة يحيى على قصّة عيسى عليهما السَّلام، لأنّ خَلْقَ الولد مِنْ شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تَخليق الولد لا من الأب البتة، وأحسن الطّرق في التّعليم والتّفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقياً من الأصعب فالأصعب. (تفسير الرازي ٢١/ ١١٦و١١٧).

وللقاضي عبد الجبار بن أحمد ـ رحمه الله ـ تعليق نفيس على هذا الموضوع قال: إنّ ذلك استبعاد من حيثُ العادة لا من حيث القدرة، وذلك يصحّ في الأنبياء كما يصحّ في غيرهم، ولو أنّ نبياً من الأنبياء بشّر مَنْ بالبادية بنهرٍ جارٍ، لجاز أنْ يُقال: كيف يصحّ ذلك في هذا المكان؟ فيكون استبعاداً من حيث العادة لا من حيث القدرة. (تنزيه القرآن من المطاعن ص ٢٤٦).

أنْ ينجبَ وهو عجوزُ طاعن في السِّنِّ وامرأته عجوز أيضاً وعاقر، لا تَلِدُ في جميع الأحوال[1].

* جاء النِّداء العلويُّ برفْقٍ متدفِّقٍ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

أفهمته الملائكة أنَّ هذه مشيئة الله، وليس أمام المشيئة الإلهيّة إلا التّنفيذ، وليس هناك شيءٌ يصعبُ على الباري المصوِّر سبحانه وتعالى، فكلُّ شيء يريده الله يأمره بالوجود يوجد، وكلُّ شيء يخلقه الله تعالى بمجردِ المشيئة، قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

* ومشيئةُ الله هنا تقرّرت في الاستجابة لزكريا، وفيها إعجاز الله وقدرته بأنْ جَعلَ زوج زكريا إيشاع تصلح للإنجاب، وتتغيّر سنّة الحياة فيها، ومن قبل في سارَّه زوجِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

* كان إصلاح زوج زكريا يحملُ معانٍ عديدة تتفجر بالفضيلة استجابة لزوجها زكريا الذي نادى ربّه نداء خفياً، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ[2] وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

قال جمهور من الصَّحابة والتَّابعين منهم: ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير ـ رحمهم الله ـ: كانت زوج زكريا عاقراً لا تلد فولدت.

* وهذا الرّأي هو القول الأليق والأَجْوَدُ بالقصَّةِ، وهو ما عليه جمهور المفسِّرين. وهناك رأيٌ مقبولٌ في زوج زكريا مفاده: أنَّ الله جعلها مصلحة في

---

(١) قال الماورديُّ ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لم يقل ـ زكريا ـ ذلك عن شك بعد الوحي ولكنْ على وجه الاستخبار، أتعيدنا شابين؟ أو ترزقنا الولد شيخين؟ (تفسير الماوردي ٢/ ٥١٧).

(٢) إن سبب الإجابة المبادرة إلى فعل الطاعات وعمل القربات، وقد كان زكريا يدعو ربّه في حال الرخاء وحال الشدة أملاً في رحمة الله.

الدِّين لتعينه على أمْر الدَّعوة. وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ: جُعلتْ حَسَنَة الخلق ولوداً[1].

* ولنتابع نصَّ البشارة الإلهية لزكريا، إذ تضمنت ذِكْرَ ما سيكون عليه أَمْر يحيى ـ عليه السَّلام ـ من نبوّتِهِ وصلاحه، وقد نصَّ على ذلك قول اللهِ عزَّ وجلَّ في آيةِ آلِ عمران: ﴿.. أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الله أكبر ما أعظم هذه البشَارة!.

بشارة مباركة ثابتة الأركان متطاولة في سماء المعالي...
بشارة عظيمة أسستْ على دعائم أربع....

فأولها: كون يحيى مصدقاً بعيسى ـ عليه السَّلام ـ، وهو كلمة الله ألقاها إلى مريمَ، وسُمي بذلك لأنَّه وُجِدَ بكلمة «كن» من غير أب، وتصديقه له بأنَّه آمن به وصدق بأنَّه كلمة الله وروحه.

* قال ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ يحيى كان أكبر سِنّاً من عيسى بستة أشهر، وكان يحيى أول مَنْ آمن وصدّق بأنّه كلمة الله وروحه، ثم قُتل يحيى قبل رفع عيسى عليه السّلام.

هذا وقد ذكر ابنُ الأثير وابنُ كثير ـ رحمهما الله ـ أنَّ عيسى ابنَ مريم ويحيى بنَ زكريا ابنا خالة، وكان حَمْلُهما معاً، وقد دخلت مريم على أختها أمِّ يحيى زوج زكريا، فقالت لها أختها: أشعرتِ أنّي حُبْلَى؟ قالت مريم: وأنا كذلك، فقالت أمُّ يَحيى: إنّي أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك[2].

وثانيهما: كونه «سيداً»، وقد أكثر المفسرون في معاني لفظة «سيّداً» فقالوا: الحليم، وسيّد المؤمنين، ورئيسهم في الدِّين، والعلم والحلم

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٣٣٦).

(٢) انظر الكامل لابن الأثير (١/ ٢٩٩ و٣٠٠) والبداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٦٥) مع الجمع بينهما والتصرف.

والعبادة والورع، والكريم على الله، والفقيه العالم، والذي لا يغلبه الغضب؛ ولعلّ أجمل الأقوال وأجمعها ما قاله القاضي ابن العربي ـ رحمه الله ـ:

السّيّد: هو المتقدّم المرجوع إليه، فلما كانَ سيّداً في الدِّينِ كان مرجوعاً إليه في الدِّين، وقدوة في الدِّين، فيدخل فيه جميع الصِّفات المذكورة في العلم والحلم والكرم والعفّة والزُّهد والورع[1].

وثالثهما: كونه «حَصُوراً» وهو الذي لا يأتي النِّساء لا للعجز؛ بل للعفةِ والزُّهد.. وهذا هو قولُ المحققين وما عليه الجمهور[2].

ورابعها: كونه «نبيّاً» ودرجة النّبوة أعلى الصِّفات وقوله عزَّ وجل ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ناشئاً منهم؛ لأنه كان منْ أصلاب الأنبياءِ، أو كائناً من جملة المشهورين بالصَّلاح، والصَّلاحُ من أعلى المراتب، وبهذا دعا سيّدنا يوسف ـ عليه السلام ـ ربَّه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وعلى الصَّلاح بنى سيّدنا سليمان دعاءه أيضاً في قوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]

﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾:

* في هذه الرِّحلة الشَّائقة مع نساء الأنبياء، نقفُ وقفةَ تأمّلٍ مع إيشاع وزوجها زكريا من خلال البشارة الإلهية بيحيى؛ فقد كان موقف كلّ من زكريا وإيشاع يشيرُ إلى مدى عمق الإيمان بالله عزّ وجلّ وشكره.

* وقد تحدّث سيّدنا زكريا ـ عليه السلام ـ عن نفسه، وعن زوجه العاقر التي قطعتْ شوطاً كبيراً في الحياة، لنقرأ معاً قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]. قال ابنُ الجوزي[3] ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ هو مئة

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٨/ ٣٢).

(٢) ثبت أنّ يحيى كان كافّاً عن النساء عن قُدْرة واستطاعة، وهذا في شرعه، أمّا في شرعنا فالنكاح هو الواجب، وتركه مذموم بنص الأحاديث الشريفة.

(٣) «ابنُ الجوزي»: عبد الرحمن بن علي بن محمد البكريّ البغدادي الحنبليّ الواعظ =

= من ولد أبي بكر الصّديق رضي الله عنه، ولد سنة (٥٠٨هـ) وهو الإمام العلامة، حافظ العراق، وواعظ الآفاق، صاحب التّصانيف المشهورة في أنواع العلوم والحديث والفقه والوعظ والزهد والتّاريخ والطّبّ وغير ذلك.

وصفه الذهبيّ فقال: كان رأساً في التّذكير بلا مدافعة، يقول النّظم الرائق والنّظم الفائق... وكان بحراً في التّفسير، علامة في السِّير والتّاريخ، موصوفاً بحسن الحديث ومعرفة فنونه، فقيهاً عالماً بالإجماع والاختلاف جيّد المشاركة في الطّبِّ، ذا تفنن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإكباب على الجمع والتَّصنيف، مع التَّصوف والتّجمل وحسن الشّارة ولطف الشّمائل.

اشتهر ابنُ الجوزي بكثرة التّصنيف والتّبحر في فنون العلوم حتى قال الحافظ الذهبيّ: ما علمت أحداً من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرّجل. وبلغت مصنفاته قرابة (٢٥٠) مصنفاً، وعن نفسه تحدث ابنُ الجوزي فقال: إنّي رجلٌ حُببَ إليَّ العلم من زمن الطّفولة فتشاغلت به، ثم لم يحببْ إليّ فنّ واحد منه، بل فنونه كلها، ثم لا تَقتصر همتي في فن على بعضه، بل أروم استقصاءه.

ومن مصنّفات ابن الجوزي: «المنتظم في تاريخ الأمم» في التاريخ، و«صفة الصّفوة» في التّراجم والطّبقات، و«الأذكياء» و«التّبصرة» وعدد من الكتب في المناقب، وله: «زاد المسير في التفسير» وهو تفسير حسن جامع لآراء السابقين من الصحابة وتابعين وعلماء ومفسرين، ويمتاز هذا التّفسير بأنه جمع فيه أكبر عدد ممكن للمسائل والأقوال في آية أو حكم أو ما شابه ذلك، وأضفى عليه روحه فكان يجمع في تفسيره روح التّصوف والأدب والأخلاق والتّاريخ وأساب النزول وجميع علوم التّفسير، وبالجملة فتفسيره هذا نافعٌ مبارك بإذن الله.

ولابنِ الجوزي كلامٌ لطيفٌ ينمّ عن ملكته وذوقه الرّفيع لمعاني الكلام، وجمال الألفاظ من ذلك قوله: عقارب المنايا تلسع، وخدران الأمل يلمع؛ من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه. هذا وقد توفي ابن الجوزي ليلة الجمعة (١٢ رمضان) سنة (٥٩٧هـ) في بغداد، وكانت جنازته مشهورة، شيّعه الخلائق إلى مثواه الأخير، ورثاه خلق كثير، منهم الناصر العلوي الذي قال فيه:

قد كنتَ كهفاً للشّريعة والهدى ... حبراً بأنواع الهداية تلمع

يا قبره حاذتك كلُّ غمامة ... هطالة ركانة لا تقلع

رحم الله ابن الجوزي وأجزل مثوبته. (رجال من الإسلام ٢/ ٨٢ ـ ٩٥) و(طبقات

وعشرون سنة. وذكر ابنُ الجوزي كذلك خمسة أقوال أُخَر في سِنِّ زكريا.

وتحدّث كذلك سيّدنا زكريا عن سِنّه وكبره وعقم زوجه في سورة مريم، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

* إنَّ سيّدنا زكريا ـ عليه السَّلام ـ لم يكن لينكر قدرة الله لحظة واحدة، وموقفه هنا ليس موقف المُنْكِر والمنقص لقدرة الله سبحانه، وإنَّما هو تعجّبٌ منه حين أُجيبَ إلى ما سأل، وبشّر بالولد، مع أنَّ امرأته كانت عاقراً ولم تلدْ من أوّل عمرها، وفي حال شبابها، فكيف وهي في حالة كبرها، ومع أنَّه هو قد بلغ النّهاية في الكبر وتقدم السّن!!.

* ولا شكَّ بأنَّ زوجَ زكريا كانتْ أشدّ فرحاً من زوجها عندما عرفت حقيقة البشَارة الإلهيّة التي تحمل إليها أعزّ شيء لدى المرأة ألا وهو الأمومة[1]، ووقفت أمام القدرة الإلهيّة متعجبة من رحمته، وكان تعجّبها ممزوجاً بالشُّكر والثَّناء على اللهِ والتَّسبيحِ بحمده.

* كان تعجّب زكريا وزوجه تعجّباً مكنّى به عن شكر الله عزّ وجلّ الذي اختصهما برحمته، فهما قد اعترفا بأنَّها عطيّة عزيزة كريمة غير مألوفة، ولهذا سارعا بالثَّناء على الله والتَّسبيح بحمده، وذلك أنَّ هذا الأَمْرَ سهلٌ ويسيرٌ على الله، وليس هناك في الخلق هين وصعب عليه سبحانه وتعالى، إذ وسيلة الخلق لكلّ شيء قول الله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وإنّما هو أهون في اعتبار النَّاس، والقادر على الخلق من العدم قادر على الخَلْقِ من شيخين كبيرين هرمين: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ...﴾ [آل عمران: ٤٠].

= المفسرين للداودي ١/ ٢٧٥ ـ ٢٨٠).

(١) إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد جعل من صفاء ونقاء نفس زوج زكريا وعبادتها مؤهلاً لتلقي فضل الله عليها، واستقبال هذا الحدث العظيم وهو ولادة يحيى على الرغم من أنَّها عاقر ومن أنها بلغت سن الشّيخوخة، وبذلك قرّت عينها وعين زوجها وسرت بما أكرمها الله بهذا النبي النبيه الحصور الزكي.

﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾:

* بعد أنْ بَشَّرتِ الملائكةُ زكريا ـ عليه السَّلام ـ بغلام، طلب من الله تعالى أنْ يجعلَ له دليلاً وعلامة على وجود الحمل في بَطْنِ زوجه، ولم يكن هذا الطّلب من قبيل عدم الثّقة بوعد الله عزّ وجلّ، فحاشا لزكريا النّبيّ التّقيّ النّقيّ أن يكون كذلك، وهو منْ أعرف النّاس بالله عزّ وجلّ، بَيْدَ أنَّ ذلك من قبيل الطُّمأنينةِ القلبيّة والاستقرار النّفسي، كيما يبادر إلى الشُّكر ويتعجّل السُّرور، إذ الحملُ لا يظهر في بدايته فأراد معرفته أول وجوده[1].

* مرّة أخرى استجاب الله عزَّ وجلَّ لطلبِ زكريا. . وصدر الأَمْرُ العلويّ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٠] إنَّ علامةَ ذلك أنَّك يا زكريا لا تستطيع التّكلم إلى النّاس ثلاثة أيام بلياليهن، وأنتَ صحيح سويُّ الخلْقِ ليسَ بِكَ خرس ولا علّة، وفي هذا قال ابنُ عبّاس ومجاهدُ والسُّديُّ وعكرمةُ وقَتَادةُ وغير واحدٍ منَ العلماء: اعتقل لسان زكريا من غير مرضٍ ولا علّة؛ وذلك كما ذَكَرَ الله عزَّ وجلَّ في آية آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

* إنَّ سيّدنا زكريا ـ عليه السَّلام ـ مع ذلك لم ينقطعْ لسانُ عن الذِّكْر والتَّسبيح، وهو دليلٌ على أنَّه كان في غاية السَّلامة والقدرة على النُّطقِ إلا أنَّه يعتقل لسانه عند التكلم مع النَّاس، وهذه هي العلامة[2].

* وأعطى الله زكريا العلامة، وأَمَرَهُ بالذِّكْرِ والتَّسبيحِ، واطمأنتْ نفسُ زكريا، وخرجَ منَ المحرابِ الذي بُشِّرَ فيه بيحيى، فأوحى إلى مَنْ حوله من العبّاد والنّاس بإشارة خفيفةٍ سريعة باليَدِ أو بالرّأس بالذّكر والتَّسبيح موافقة له فيما أُمِرَ بهِ في هذه الأيام الثّلاثة، كما ذكر الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ

---

(١) انظر: تفسير أبي بكر الرازي (ص ٣١٤) بتصرف يسير.

(٢) انظر: تفسير الماوردي (٢/ ٥١٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٠٧) وفتح الباري (٦/ ٥٣٩) مع الجمع بينها.

﴿ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] فقد كان زكريا ـ عليه السَّلام ـ في منزلة عاليةٍ عندهم وهو خَيْرُهُم وإمامهم، وعالمهم ونبيّهم.

أُمُّ النَّبيِّ التَّقِيِّ:

* تَمَّتْ كلمةُ الله عزَّ وجلَّ، وولدت زوجُ زكريا ابنها يحيى، كان ميلاد يحيى معجزة، فقد جاء لأبويه بعد عمر طويل حتى يئس فيه أبوه وأمّه من الذّريةِ، وجاء بعد دعوة تقيّة نقيّة تحرّكَ بها قَلْبُ نبيّ الله زكريا ـ عليه السَّلام ـ وبلغ السِّنَّ التي يُؤمَر بها، شهد له عزَّ وجلَّ وأخبر عن مكانته وفضله فقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] والكتاب هنا: التّوراة التي أنزلها الله عزَّ وجلَّ على موسى ـ عليه السلام ـ والقوّة هنا: الجِدُّ والعزمُ والثَّبات. والباء هنا: للملابسة، أي: أخذاً ملابساً للثبات على الكتاب، أي: على العمل به وحمل الأمانة على اتباعه، إذ قد أخذ الوهن والضَّعف يتطرقُ إلى بني إسرائيل في العمل بدينها[1].

* ومما زاد الله زوج زكريا كرامة أنْ وَصَفَ ابنها يحيى بما تحلّى بهِ من صفاتٍ عظيمة، وجعله ذا حنان، والحنان[2] هو المحبّةُ في شفقةٍ وميل ومنه التّعطُّف والرّحمة، قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٥) وتفسير القرطبي (١١/ ٨٦) مع الجمع بينها.

(٢) ذكر القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ معان كثيرة للحنان مفادها؛ قال جمهور المفسّرين: الحنان: الشَّفقة والرّحمة والمحبّة، وهو فعل من أفعال النفس. وفي معنى الحنان قولان: أحدهما: تعطف الله عزَّ وجلَّ عليه بالرحمة. والثّاني: ما أعطيه من رحمة النّاس حتى يخلصهم من الكفر والشّرك، وأصله من حنين النّاقة على ولدها، والعرب تقول: حنانك وحنانيك، يا ربّ: أي: نريد رحمتك.
قال الزّمخشريّ: حناناً: رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفاً وشفقة. وقال ابنُ الأعرابي: الحنَّان: من صفة الله تعالى مشدداً الرّحيم. والحَنَان مخفّف: العطف والرحمة. والحنان: الرّزق والبركة. وقال ابن عطية: الحنان في كلام العرب أيضاً: ما عظم من الأمور في ذات الله تعالى. فالحنان: العطف.
(تفسير القرطبيّ ١١/ ٨٧ و٨٨) ملخصاً.

١٣] إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد آتاه رحمةً من عنده، وتحنّناً على العباد ليدعوهم إلى طاعة ربهم.

* من الصّفات الكريمة التي امتنَّ الله بها على يحيى أنَّه جعله زكي النَّفس مطهراً من الذّنوب والآثام، وجعله من المتقين الذين لم يعملوا بذنبٍ لوقاية أنفسهم من سخط الله، ولطلب رضاه، والإشارة إلى ما كان عليه من التّقوى فيه بيان لإخلاصه[1]....

* كانت إيشاع وزوجها زكريا وابنهما يحيى في قمة طاعة الله عزَّ وجلَّ، يتسابقون إليها، والسَّبْق محمود في هذه الفضيلة، والمسارعة في الفضائل من أجمل ما يمتدح به الإنسان، لأنّها تدلُّ على حرص عظيم في طاعة الله، وبلوغه أعلى درجات التّقوى. وقد وصَفَ الله هذا البيت المبارك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ...﴾ [الأنبياء: ٩٠].

* ومما أكرم الله به زوج زكريا أنْ جعل ابنها يحيى متواضعاً بارّاً بها أشدّ البرّ، وكان بعيداً أشدّ البعد عن العقوق قولاً وفعلاً وأمراً ونهياً، إذ أنّه لا عبادة بعد تعظيم الله عزَّ وجلَّ أعظم من برّ الوالدين، وذلك ما ذكره الباري عزّ وجل: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

* ومن جميل ما أثنى الله به على يحيى بعد أنْ ذكر تلكم الأوصاف الجميلة، أنْ جعلَ جزاءه عليها الأمان في أحوالٍ ثلاثة، وهي يوم الولادة، ويوم الممات، ويوم البعث، قال تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

* قال سفيان بن عُيينة ـ رحمه الله ـ: أوحش ما يكون المرء فيه ثلاثة مواطن:

يوم يُولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه.

ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/١٠٨) بشيء من التصرف.

ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشَرٍ عظيم، فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصَّه بالسَّلام عليه[1].

* هذا هو يحيى النّبيّ الزكي التّقي، وتلك نفحاتٌ من حياة أمِّه زوج زكريا ـ عليهم السَّلام جميعاً ـ تلك المرأة التي ذكرَ القرآن الكريم قصّتها، وأسبغ فضله عليها بأنْ جعلها ولوداً على الكبر بعد أنْ كانت عاقراً في أيام حياتها السَّابقة، وما ذاك إلا لمنزلتها وكرامة الله لها.

* رضيَ الله عن زوج زكريا الأمّ الصّالحة، والزّوج الصّالحة، وأكرمها برحمتِهِ، وألحقها بالصّالحين.

* * *

(١) للقرطبيّ ـ رحمه الله ـ كلام فيه إمتاعٌ للأسماع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ..﴾ قال الطبريّ وغيره: معناه أمان، وقال ابن عطية: الأظهر عندي أنّها التحية المتعارفة فهي أشرف وأنبه من الأمان، لأنَّ الأمان متحصّل له بنفي العصيان عنه، وهي أقل درجاته وإنَّما الشَّرف في أنْ سلّم الله تعالى عليه، وحيّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضّعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول.
قال القرطبي: وهذا قول حسن.
وذكر الطبريّ عن الحسن أنَّ عيسى ويحيى التقيا ـ وهما ابنا الخالة ـ فقال يحيى لعيسى: ادع الله لي فأنت خير مني.
فقال له عيسى: بل أنت ادع الله لي فأنتَ خيرٌ مني، سلم الله عليك، وأنا سلّمت على نفسي (تفسير القرطبي ١١/ ٨٨ و٨٩).

زوجا النبي إبراهيم عليه السلام

أ ـ سـارة:

* أمّ النبي إسحاق عليه السلام، وجدُّةُ النبي يعقوب عليه السلام.
* كانت من أحسن نساء الأرض وأكثرهن جمالاً وأشدّهن غَيْرة.
* امرأة عاقر؛ سمعت بشارة الملائكة لزوجها إبراهيم بالذرية الطّيبة.
* مؤمنة، تقيّة، عصمها الله عزَّ وجلَّ من جبار مصر عندما أراد الشرَّ بها.
* محبة لزوجها النبي إبراهيم عليه السلام، مطيعة له.

ب ـ هـاجر:

* مصرية، أهداها جبّار مصر لسارّة لتخدمها.
* مؤمنة، تقية، راضية، عابدة، موصولة القلب بالله تعالى.
* وهبتها سارة لزوجها إبراهيم فَرُزِقَ منها غلاماً زكيّاً.
* أمّ العرب، وأمّ الذّبيح إسماعيل عليه السلام.
* مطيعة لزوجها، مساعدة له على طاعة الله عزَّ وجلَّ.

أ ـ سارة زَوْجُ إِبْرَاهِيْمَ عليه السلام

زَوْجُ نَبـيٍّ كَـرِيْـمٍ:

* هذهِ امرأةُ نبيٍّ كريم مِنْ أُولي العزمِ من الرُّسُلِ، هذا الرَّسولُ الكريمُ هو إبراهيم الخليل ـ عليه السَّلام ـ.

* في سيرةِ هذهِ المرأةِ إمتاعٌ للأسْماع، وجلاءٌ للأذهانِ. أَوْرَدَ القرآنُ الكريم قصَّتَها في مواضعَ، وذُكِرَتْ في ثنايا الحديث النّبويِّ الشَّريفِ.

* وفي بطونِ كُتُبِ التَّاريخِ وكُتُبِ التَّراجم والطَّبقَاتِ، وردتْ سيرتُها وقصَّتها مع زوجها إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ تفوح بشذا العِطْرِ وكريم الصِّفَاتِ.

* الآن.. لنعش أوقاتاً مباركةً في ضيافةِ أبي الأنبياء سيّدنا إبراهيم، وفي ضيافةِ زَوْجِهِ كَيْمَا نستمتع بسيرتها العطرة التي تُدْخِل السُّرور إلى النُّفوسِ، وتَصِلُ القلوبَ ببارئها بعروةٍ وثقى لا انفصام لها...

* ذكر المفسِّرون والمؤرِّخُونَ والمحدّثُون وكتّاب التَّراجم أنَّ زوج سيّدنا إبراهيم ـ هذه ـ تُدعى سَارّة[1].

---

(١) انظر: تفسير القرطبيّ (٩/ ٦٦) والبداية والنّهاية (١/ ١٥٠) وفَتْح الباري (٦/ ٤٤٧) وغرر التّبيان (ص ٢٨٢) ومفحمات الأقران (ص ١١٩) وحدائق الإنعام (ص ٤٣) والطّبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٤٧) وتاريخ الطّبريّ (١/ ١٤٩) والكامل لابن الأثير (١/ ١٠٠) وأخبار مكة (١/ ٥٤) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/ ١٠٢) وغيرها من المصادر الأخرى الكثيرة.

* ولنا ـ إن شاء الله ـ أخبارٌ سَارّة مع زوجها سيدنا إبراهيم سارّة. . . هذه المرأة التي كلّمتْ ملائكةَ اللهِ. . . وكلّمها ملائكةُ اللهِ في بُشْرى جعلَتْها تضحكُ سُروراً، لِما حَبَاها عزَّ وجلَّ من إكْرامٍ رأتْه بعينها، وإكرامٍ ظلَّ بعدها مباركاً إلى ما شاء الله.

* وكذلك جَعَلَ الله سبحانه عَيْنَ إبراهيم[1] قريرة بزوجه سارّة، وبما حَبَاه الله من فَضْلِهِ، إذ وَهَبَه من ذريّته الأنبياء. . واتّخذه خليلاً، وأثنى عليه ثناءً عطراً في مواضعَ شتى من القرآن الكريم، فكان أمّة قانتاً لله، جَعَلَه إماماً، ورزقه الحلم وغير ذلك من الصفات الربانية العظيمة؛ التي اختصّه الله بها، وفي القرآن الكريمِ سورة كاملة باسم «إبراهيم» ـ عليه السلام ـ.

إبْرَاهِيْمُ وَسَارَّةُ:

* تشير المصادر إلى أنَّ سيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كان في بدايةِ حياتهِ ببَابلَ بالعراق، وتزوّج سارّة وهي قريبتُه، وكانت قد آمنتْ برسالتِهِ، وكذلك آمَنَ له لُوْطٌ ابن أخيه. . .

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ أنَّ سارة كانت عَاقِراً لا تَلِدُ، وكانت قد رُزِقَتْ حظّاً كبيراً من الجمالِ وحُسْنِ الهيئة، ويبدو أنَّها كانت صاحبة ماشية كثيرة، وأرض واسعة، وقد وهبتْ ما كانت تملكه لزوجها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ليقومَ بإصلاحه وتنميته. . .

---

(١) قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ إبراهيم بالسّريانية: معناه أبٌ راحمٌ. (فتح الباري ٦/٤٤٨).

ومن الجدير بالذكر أنَّ سيدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم كثيراً، فقد ورد اسمه في ثلاثة وستين موضعاً وذكر في خمس وعشرين سورة وهي: البقرة، وآل عمران، والنّساء، والأنعام، والتوبة، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر، والنّحل، ومريم، والأنبياء، والحج، والشّعراء، والعنكبوت، والأحزاب، والصّافات ، وص، والشّورى، والزّخرف، والذّاريات، والنّجم، والحديد، والممتحنة، والأعلى.

* وعندما نزلَ الأَمْرُ الإلهي على سيّدنا إبراهيم بالرِّسالة، وأُمِرَ بتبليغ النّاس، قامَ إبراهيم بامتثالِ الأَمْرِ الرَّبّاني، وبالغَ في الإرشادِ والنُّصح، ولم يهتد قومه، وحَصَل اليَأس الكلّيُّ، حيثُ رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا، عندئذ وجبتِ المهاجرةُ من أرضِ الكافرين.

* ذكرتِ المصادرُ أنَّ إبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ انطلقَ مهاجراً تصحبه زوجه سارة، وابن أخيه لوط، وخرج بهم منْ أرضِ العراق إلى بلاد المقدس... قأقاموا في بلدةٍ تسمى «حَرَّانَ» وهي أرضٌ قريبةٌ من الشَّام، وكان أهلُها يعبدون الكواكبَ السَّبعة، ويُشْرِكونَ في عبادتها الأصنام.

* وفي ذلك الزَّمان كان جميعُ النَّاس على وَجْهِ الأرض كفاراً، لا يعرفون ديناً سوى الكواكب والأصنام التي احتلت أفئدةَ كثيرٍ من النّاس واستهوتهم. ولم يكن مؤمناً بالله سوى سيّدنا إبراهيم الخليل وزوجه سارة، وابن أخيه لوط.

* كان نبيُّ اللهِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ هو الذي أزال الله به تلك الشّرور، وأبْطَل به ذاك الضَّلال، ومحابه ملّةَ الكُفْرِ، وكرَّمه وأكرمه، وإنَّ الله سبحانه آتاه رشْدَهُ في صغَرِه، وابتعثه رسولاً واتّخذه خليلاً في كبره[1].

* كان إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أهلاً لهذا الفضل.. قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

---

(١) قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: لما هجر ـ إبراهيم ـ قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصّالحين، وجعل في ذريّته النّبوّة والكتاب، فكلّ نبيّ بُعِث بعده فهو من ذريته، وكلّ كتاب نزل من السَّماء على نبي من الأنبياء من بعده، فعلى أحد نسله وعقبه، خِلْعَةً من الله وكرامة له، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربّه عزّ وجلّ، ودعوة الخلق إليه (قصص الأنبياء ص ١٥٩).

مِنْ صِفَـاتِ سَـارَّةَ:

* تدلُّ المصادرُ الوثيقةُ أنَّ سارّةَ قد أوتيتْ حظّاً وافراً من الجمالِ جعلها من أَحْسنِ نِسَاءِ الأرض عصر إذ، وفي هذا أخرج ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ بسنده عن أنس بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَ يوسف وأمّه شَطْرَ الحُسْنِ[1]» ـ يعني سارّة ـ.

وأخرج ابنُ عساكر بسنده أيضاً عن ربيعةَ الجُرَشيِّ قال: قُسِمَ الحسنُ نصفين: فبين سارّة ويوسف نصف الحسن، ونصف الحُسْنِ بين سائرِ النّاس[2].

وعن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قَسَمَ الله عزَّ وجلَّ الحسن عشرة أجزاء؛ فجعل منها ثلاثة أجزاء في حوّاءَ، وثلاثة أجزاء من سارّةَ، وثلاثة أجزاء في يوسفَ وجزء في سائر الخَلْقِ.

فكانت سارّة من أَحْسَنِ نساء أهل الأرضِ، وكانتْ من أشدّ نسائهم غيرة[3].

سَـارَّةُ وَالمِحْنَـة:

* يبدو منَ الأخبار التي وصلتنا أنَّ سارّةَ ـ عليها السَّلام ـ قد دخلتْ مِصْرَ، وامتُحِنَتْ بسبب حسنِها، تقول المصادر:

إنَّ أرضَ فلسطين التي كان يقيم بها إبراهيم قد عَمَّها القحطُ والجَدْب، فمضى إبراهيم نحو مصرَ وبصحبتهِ زوجهِ سارّة، ولما وصلا مصر، علم إبراهيمُ أنَّ جَبَّارَ مصر يطمعُ في النّساء... فخافَ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ على زوجهِ سارّة، فقال لها: إنَّ هذا سألني عنك، فأخبرتُه أنَّك أختي، فلا

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (ص ١٢١) تراجم النّساء، وذكره ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٩٢) وعزاه لأبي يعلى، ولم أجد لفظة «وأمه» في مسند أبي يعلى المطبوع.

(٢) المصدر السابق (ص ١٢٢).

(٣) المصدر السّابق (ص ١٢٨).

تكذّبيني عنده، فإنّه ليسَ في الأرض مسلمٌ غيري وغيرُكِ، وإنّك أُخْتي في كِتَابِ اللهِ[1].

* وفي مصرَ، لَمَحَ أحدُ أعوانِ حاكمها سارّة، فهبّ مسرعاً ودخل على الملكِ وقال له: يا سيّدي، قدمت امرأةٌ إلى مصرَ لا ينبغي أنْ تكونَ إلا لَكَ، فجمالها يكادُ يطغى على الشَّمس في رابعةِ النَّهار. . . .

أشرقَ وَجْهُ الملك بابتسامةٍ عريضة، وارتسمتْ على وجهه أماراتُ الرِّضَا عن هذا المُخلصِ له، ثم توجَّهَ إليه وقال له: اذهبْ وأحْضِرْهَا.

وانطلقَ الرَّجُلُ حتى إذا أتى سيّدنا إبراهيم وزوجه سارّة قال له: إنَّ الملك أمرني بأنْ آخذَ هذه المرأة إليه. . . .

مشتْ سارّة ودخلتْ قَصْرَ الملك، لم تبهرها السُّرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنّمارق المصفوفة، والزَّرابيُّ المبثوثة. . . لم تلفتْ أنظارها الأعمدة السَّامقة، ولا الجدران الباسقة. لم تُعِر اهتماماً للخدمِ والوِلْدان الذين يطوفون ذات اليمين وذات الشمال. . . لم تَنْتَبِه لأحدٍ. . ولا لشيءٍ ممّا حولها. . .

كان قلبُها موصولاً باللهِ ساكناً وقوراً. . . وكان يملأُ قلبها يقينٌ أنَّها في رعايةِ ربِّ العالمينَ، مالك يوم الدِّين، ومَلِكِ كلِّ شيء. . .

كانت نفسهُا تسبحُ في ذِكْرِ الله. . . وكانت روحُها تهيمُ لتتّصلَ بسرِّ الوجود. . . كان لسانُها يلهجُ بالثَّناء على الله. . . لم يفترْ عن ذِكْر الله لحظة. . .

كانت كلّ حاسّةٍ منْ حواسها ترتبطُ بخالقها ارتباطاً وثيقاً دقيقاً، فهي تدرك أنَّها من عباد الله المخلصين، وتعرف أنّها زوج نبيٍّ كريمٍ على اللهِ، حبيبٍ إلى ربِّهِ. . . لن يضيعَها اللهُ. . .

كانت تحاولُ أنْ ترى اللهِ بعينِ بصيرتها لتأنسَ بِهِ، وتتفيّأ ظلال رحمته،

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (ص ١٣٠) تراجم النّساء.

وتحتمي بحصنِهِ الحصينِ في تلك اللحظات الحرجة.

كان الجبّار ـ ملك مصر ـ مشغولاً مبهوراً بهذه المرأة العظيمة.. أحسَّ بأنَّ رعدةً قد سَرَتْ في جسمِهِ... لم يَدْرِ ماهيّة هذه الرّعدة... إلا أنّه شَعَرَ بخوفٍ يغلّفُ قلبَه، ويستولي على إحساسه...

كانت الرّعْدةُ إنذاراً إلهيّاً؛ بادي الرّأي نظرَ نظرةً أخرى إلى سارّة فيها شيءٌ مِنَ الغَدْر... تمشّتْ في مفاصِلِهِ رعدةٌ أخرى عندما هَمَسَ الشَّيطانُ في أذنِهِ: أن اقتربْ من هذه المرأة... دنا منها قليلاً... أرادَ أنْ يبسطَ يَدَهُ...

لَمْ يَدْرِ ما يفعل، كأنَّ قوةً ما كتمتْ أنفاسه وحركاته ويده... بقي لسانُه يتحرّكُ... أوجسَ خيفةً في نفسه، كاد قلبه يتمزّق... نزلتْ به رهبةٌ زلزلتهُ زلزالاً شديداً، وغشيه رَهَقٌ شديد... غَطَّ حتى رَكضَ برجلِهِ[1]، وارتبك ولم يَدْرِ ما يفعل... بينما استغرقتْ سارّةُ في مناجاةٍ حَارَّةٍ مع خالقِها، أحسّتْ كأنَّ نُوراً أضاءَ نفسها، وأنَّ طمأنينةً ندِيّةً استقرّتْ في أعماقِ قلبها... وأنَّ السَّكينة قد أُنزلت عليها... وراحتْ تقول:

اللهمَّ إنْ كُنْتَ تعلمُ أنّي آمنتُ بكَ وبرسولك، وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي فلا تُسلِّطْ عليَّ الكافر....

توسّل الجبّار إلى سارّة قائلاً: أيَّتها المرأة الصَّالحة ادعي ربّك أنْ يطلقني ولا أضرّك... ولا أعودُ لما تكرهين...

توجّهتْ سارّةُ إلى ربِّها، ودعتِ اللهَ أنْ يطلقَ يَدَ هذا الظَّالم الجبّار... وكأنّما نشط المِلكُ من عقال، فأُطْلِق.. لكنَّ الشَّيطانَ سَوَّلَ له أنْ يمدّ يَدَهُ ثانيةً إلى الصّدّيقةِ الصّادِقةِ سارّة زَوْجِ خليلِ الرحمن، وأنْ ينكثَ عهده معها... لكنَّ يَدَهُ هذه المرّة شُلّتْ بقسوةٍ، وقُبضت قبضة شديدة... عندئذ قال لسّارة: ادعي إلهك الذي تعبدين أنْ يطلقَني ولا أعود... فدعتِ الله فأطلقه.. ثم كرَّرَ ذلكَ مرّةً ثالثة... وهنا نَظَرَ إليها نظرةَ رجاءٍ واستعطاف

---

(١) يعني أنه اختنق حتى صار كأنه مصروع. والغطّ: صوت النائم من شدة النفخ.

وقال في خشوع: ادعي إلهك أنْ يطلقني وَلَنْ أعودَ أبداً...

ولما استوثقت منه سارّة، ورأتْ صِدْقَه دعتِ اللهَ أنْ يطلقَ يَدَهُ، فاستجاب الله دعاءها وأطلق يده، وهنا دَاخَل الملك الانبهار لهذه المرأة التي أخافَتْهُ، والتي أَيْبَسَ الله يَدَهُ مِنْ أجلِها في عنقه، فأضحت مغلولة لا يستطيع أنْ يبسطها...

وفي لحظةِ خشوع ورجاء قال الملكُ لسارّة: يا هذه، ما أطوع ربّك لكِ حين دَعَوْتِهِ عَليّ!!...

فقالت له بيقينِ الإيمانِ وإيمانِ اليقين: وأنتَ ـ يا هذا ـ إنْ أطعتَه أطَاعَك[1]...

* الله أكبرُ ما أجمل هذه الكلمة... إنْ أطَعْتَه أطاعك، الله أكبرُ، فالصّدْقُ مع اللهِ يصنعُ المعجزات، ويُنْطِقُ المرءَ بالحكمةِ وفَصْلِ الخطاب... فما أجمل الصِّلَة باللهِ! ومع الله!.

* وأمَّا الجبّارُ، فإنَّه دعا الذي جاء بسارّة وقال له: أخرجها عني، فإنّك لم تأْتِني بإنسيّة... إنّما أتيتني بشيطانةٍ[2].... ثمّ وهبها جارية اسمها هَاجَر... بعد إذْ أصدر الملك أوامره بأنْ تخرجَ سارّة وزوجها من أرضهِ...

كَرَامَـةٌ لِسَـارّةَ وإبْـرَاهِيْـمَ:

كان سيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ منْ وقت ذُهِبَ بسارّة إلى الملك قام يصلي لله عزّ وجلّ، ويسأله أنْ يدفعَ عن أهله، وأنْ يردَّ بأْسَ هذا الذي أراد بأهله سوءاً...

* وهكذا فعلتْ سارّة أيضاً، فعصمها الله وصانَها لعصمةِ عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (ص ١٣١) تراجم النّساء بشيء من التّصرف.

(٢) قال ابن حجر: كانوا قبل الإسلام يعظّمون أَمْر الجنّ كثيراً، ويرون كل ما وقع من الخوارق من فعلهم وتصرّفهم. (فتح الباري ٦/ ٣٩٤).

* أورد ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ قصَّة عن كرامة سيّدنا إبراهيم وزوجه سارّة وصيانة الله لهما فقال:

رأيتُ في بعضِ الآثار؛ أنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ كَشَفَ الحجاب فيما بين إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وبينها، فلمْ يزلْ يراها منذ خرجتْ مِنْ عنده إلى أنْ رجعتْ إليه، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقرّ لعينه، وأشدّ لطمأنينته[1]، فإنّه كان يحبُّها حبّاً شديداً لدِيْنِهَا وقرابتها منه، وحُسْنها الباهر، فإنّه قد قيل: إنّه لم تكن امرأة بعد حوّاء إلى زمانها أحسن منها رضي الله عنها[2].

* وقال ابنُ كثير أيضاً: وقد ذهب بعضُ العلماء إلى نبوّةِ ثلاث نسوة: سارّة، وأمّ موسى، ومريم، والذي عليه الجمهور أنّهن صدّيقات، رضي الله عنهن وأرضاهن[3].

سَـارَّةُ وَالحَدِيْـثُ النَّـبَوِيُّ:

* تحدَّثَ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ عن سيّدنا إبراهيم وزوجه سارّة ـ عليهما السَّلام ـ وذكر قصّتها مع الجبّارِ... ففي صحيحه أخرجَ البُخاريُّ ـ رحمه الله ـ بسندِهِ عن أبي هريرة رضي اللهُ عنه قال:

---

(١) ذكر الحافظُ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح ما ملخصه: أنَّ الله عزّ وجلّ كَشَفَ لسيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ حتى رأى حال الملك مع سارّة معاينة، وأنَّه لم يصلْ منها إلى الشيء، وجعل الله القصر لإبراهيم كالقارورة الصّافية، فصار يراهما ويسمع كلامهما...
ويستفادُ من هذه القصّة أنَّ مَنْ نَابَه أمرٌ مهمٌّ مِنَ الكرب ينبغي له أن يفزعَ إلى الصَّلاة، وفيه أنَّ الوضوءَ كان مشروعاً للأمم قبلنا، وليس مختصاً بهذه الأمَّة ولا بالأنبياء؛ لثبوت ذلك عن سارة. (فتح الباري ٦/ ٥٤) بتصرف.

(٢) البداية والنهاية (١/ ١٥٢).

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٦٣). وقال ابن حجر: الجمهور على أنّها ليست بنبيّة.

قال رسول الله ﷺ: «لم يكذبْ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ إلا ثلاث كذبات»[1].

* وبسنده أخرج البُخاريُّ أيضاً عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «ولم يكذبْ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذاتِ الله عزّ وجلّ؛ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وقال: بينا هو ذات يوم وسارّةُ إذْ أتى على جبّارٍ من الجبابرة، فقيل له: إنَّ ها هنا رجلاً معه امرأةٌ منْ أحسنِ النَّاسِ، فأرسلَ إليه، فسأله عنها فقال: مَن هذه؟.

قال: أختي.

فأتى سارّةَ قال: يا سارّة ليس على وَجْهِ الأرض مؤمنٌ غيري وغيرُكِ، وإنَّ هذا سألني عنكِ فأخبرتُه أنَّكِ أختي، فلا تكذِّبيني.

فأرسلَ إليها، فلمّا دخلتْ عليه ذَهَبَ يتنَاولُها بيدهِ فأُخِذَ، فقال: ادْعِي الله لي ولا أضرُّكِ، فدعتِ الله فأُطْلِقَ.

ثم تناولها الثّانية: فأُخذَ مِثْلَها أو أشدَّ، فقال: ادْعي الله لي ولا أضرُّكِ. فدعت فأُطْلِقَ.

فدعا بعض حجَبِته فقال: إنَّكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتُموني بشيطان، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فأتته وهو قائمٌ يُصَلِّي، فأَوْمَأَ بيده: مَهيَمْ؟ قالت: ردَّ اللهُ كَيْدَ الكافر ـ أو الفاجر ـ في نَحْرِهِ، وأخدَمَ هَاجَرَ».

قال أبو هريرة: تلك أمّكم يا بني ماء السَّماء[2].

---

(١) انظر فتح الباري (٦/ ٤٤٧) حديث رقم (٣٣٥٧).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٤٧) حديث رقم (٣٣٥٨) وانظر تاريخ الطّبريّ (١/ ١٤٩) ومختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٢٤٨) وأيضاً (٣/ ٣٥١) والطّبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٤٨ ـ ٥٠) وغيرها. ومعنى كلمة: مَهْيَم: أي ما الخبر؟!.

سَـارَّةُ وَهَاجَـرُ:

* عاد سيّدنا إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ من مِصْرَ إلى فلسطين، وعادت معه سارّة وفي صحبتها هاجر المصريّة تخدمها، وتخدم زوجها خليل الرَّحمن.

* واستقرّ جميعُهم في بيتِ المقدس، تلك الأرض التي بارك الله حولها... وتمضي الأيامُ والسّنون... وتقدمُ سارّة في العمر... لقد اشتعل رأسها شيباً، وأضحت عجوزاً قد وَهَنَ العظمُ منها، وهذا بعلُها[1] سيّدنا إبراهيم يتقدّمها في السِّنِّ بضعة أعوام.

* كانت سارّةُ تنظر إلى نفسها وإلى زوجها نظرة إشفاق... كانت تُحدّث نفسها قائلة: ليت لنا ولداً تقرُّ به أعيننا.

* ذكر ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ إبراهيم لم يُولد له، فكانت سارّة لا تلد، فلمّا رأت سارّة ذلك أحبت أنْ تعرضَ هاجر على إبراهيم؛ فكان يمنعها غيرتها.

* ويبدو أن سارَّة في لحظةٍ من لحظات الصَّفاء الرُّوحيِّ آثرت زوجها على نفسها، وتمنَّتْ أنْ يكونَ له وَلَدٌ، فهي تدرك أنّها عاقر لا تنجب... تلك مشيئة الله، إنَّه عَليٌّ حكيم...

* وفي سُبُحاتٍ رُوحية مع خالقها تذكّرتْ هاجر... هاجر تلك المرأة المصريّة التي تعيشُ معهما، وقد آمنت بدعوة إبراهيم، وأسلمتْ وجهها لله فاطر السَّموات والأرض، وراضتْ نفسها على الأُنْسِ بالله ومناجاته، والتّسبيح له حين تصبح وحين تمسي... ومن الليل... وحين إدبار النُّجوم... إنَّها امرأة مؤمنة حقاً...

* راقبت سارّةُ هاجرَ، ها هي تَصِلُ العبادة بالصَّلاةِ، وتَصِلُ العملَ بالصَّلاحِ، وتقوم علىٰ عملها كأفضل ما يمكن...

---

(١) «البَعْل»: الزّوج، والبعولة جمع له. وبعل: اسم صنم عبده قوم إلياس عليه السَّلام.

* كانت الأيامُ تسيرُ. . . وهاجر لا تدري بماذا تفكّر به سارّة، بينما تابعتْ هاجر عبادتها وعملها حتى غَدَتْ نقيّة النّفس موصولة القلب بالله عزَّ وجلَّ.

* كانت تعبدُ الله سبحانه طاعة له تعالى، ليرضى عنها، ويوفّقها للاستزادة من حلاوة العبادة، ويثبّت إيمانها في جَنَانها، وقد خَشَعَ قلبُها للهِ وخشيتْ ربَّها وأخْبَتَتْ إليه. . . فرضي عنها ورضيتْ عنه.

* أراد اللهُ سبحانه أنْ يجزيها جزاء الشَّاكرين. . أرادت مشيئته أنْ يرفعَ قَدْرَهَا عالياً فوق نساء عصرها. . . أرادتْ الحكمة الإلهيّةُ أنْ يكونَ ذِكْرُها عَطِراً إلى يوم القيامة، اقتضت حكمتُه سبحانه بأنْ أوحى إلى سارّة أنْ تزوّجَ هاجر إلى خليله إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

* وفي لحظةِ صفاءِ إيماني، قال سارة لإبراهيم وقد شَرَحَ اللهُ صَدْرَهَا لتلك الفكرة: يا خليل الرَّحمن، هذه هاجر، أهبها لك عسى أنْ يرزقنا اللهُ منها ذريّة. . .

* تذكّر إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ ما وعده ربّه أنْ يهبَ له ذريّة طيّبة، وكان وَعْدُ الله مأتياً. . .

* وافق إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ على الزَّواج منْ هاجرَ. . تحقّقَ الوعدُ الإلهيُّ الحقُّ. . وحملتْ هاجر. . .

* اقترب موعدُ ولادتها. . . فولدت غلاماً سويّاً زكيّاً. . . أسموه إسماعيل.

* ويبدو أنَّ فرح سارّةَ كان عظيماً بهذا الغلام الوسيم وقد ألقى اللهُ مَحَبَّتَهُ في قلبها، فهو ابنُ زوجها إبراهيم وابنُ جاريتها هاجر التّقية المؤمنة.

* توجّهت سارّةُ إلى ربِّها شاكرةً حامدةً: الحمد الله الذي وهب لنا إسماعيل. . . . خرّتْ سارّة ساجدةً لله ربِّ العالمين. . . نزلت بقلبها سكينةٌ وأَمْنٌ وطمأنينة. . .

تلاشتْ نفسُها في ذاتِ الله. . . نسيت الوجودَ من حولها، ظلّت مع ربّها في شكْرٍ وذِكْرٍ. . . ومَنْ يشكر فإنّما يشكر لنفسه.

* تاقت سارّة لرؤيةِ الوليد إسماعيل... انطلقتْ إلى غرفة هاجر... سمعت زوجها إبراهيم يقول: ربِّ إني أعيذُه بكَ وذريته من الشَّيطان الرجيم.

* حملت سارّةُ إسماعيلَ بين يديها، وضمّتُه إلى صدرها في حنانٍ ورفق... تذكّرتْ ما كان يدعو بهِ إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصَّافات: ١٠٠]. استجاب الله عزَّ وجلَّ دعاء إبراهيم.... وهبَ له على الكبر إسماعيل ذلك الغلام الحليم...

سَـارَّةُ وَرُسُـلُ اللهِ:

* كان لوطٌ ـ عليه السَّلام ـ ابن أخي إبراهيم يدعو قومه إلى عبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويحذّرهم غَضَبَ الله... إنَّ عذابَ الله شديدٌ....

* وعكف لوطٌ يدعوهم إلى الرّشاد، وألاَّ يتبعوا شهواتهم، فاتخذوا دعوته هزواً... ولم يزدهم دعاؤه إلا فراراً... وأنذرهم فما زادهم إلا نفوراً وإعراضاً، ولمّا ضاقوا بهِ قالوا له مستهزئين: ائتنا بعذابِ الله إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقين.

* إلا أنَّ لوطاً ـ عليه السَّلام ـ كان يرجو لهم الهداية، وكان يرجو أنْ يتوبوا من الفساد الذي يخالفُ الفطرة الإلهيّة... غير أنَّ القوم كانوا فاسقين، وكانوا مفسدين، هدّدوه قائلين: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنّهم أُنَاسٌ يتطهّرون...

* ولما يئسَ لوطٌ من هدايتهم، لجأَ إلى رَبِّهِ وقال: ربِّ انصرني على القوم المفسدينَ.

* كان ذلك في سَدُوم قرب الأردن.. أمّا في بيت المقدس فقد كان إبراهيمُ وسارّة وهاجر يشكرون ربّهم الذين منَّ عليهم بإسماعيل.

* كان هؤلاء الثَّلاثة ينتظرون مَنْ يَفِدُ عليهم مِنَ الأضياف ليحسنوا نُزُلَه، ويكرموه أشدَّ الكرم...

* وكان سيّدنا إبراهيم... عليه السَّلام ـ يلقّبُ بأبي الضّيفان[1]، وقد أثنى عليه الله في القرآن الكريم بالكرم وحُسْن الضّيافة.... ولكنَّ أمْراً ما حَبَسَ عنه الضّيوف بضعة أيام... شقَّ عليه ذلك... بيد أنَّه رجعَ إلى ربِّه فهو الحليم الكريم.

* وذات يوم بسطتِ الشَّمْس أشعتها على الأرض المقدسة فصافحت كلّ شيء... ومضى شطر النّهار... فإذا رجالٌ قادمون نحو خيمة أبي الضِّيفان سيّدنا إبراهيم.

* طفح قلبه سروراً.. ارتسم البِشْرُ على وجهه... فرح بهم فرحاً شديداً... وكذلك زوجه سارّة، سُرّت بهم سروراً عظيماً...

* دَنَا الرِّجالُ مِنَ الخيمةِ... كانوا ثلاثة... عندما اقتربوا منْ إبراهيمَ قالوا: سلاماً. قال إبراهيمُ: سَلامٌ.

---

(١) أورد ابنُ قتيبة ـ رحمه الله ـ أوّليّات مباركة لسيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فقال:
إبراهيمُ أوّل مَنْ ضاف الضّيف.
وأول مَنْ ثرد الثّريد وأطعمه المساكين.
وهو أول من قصَّ شاربه، واستحدّ، واختتن، وقلم أظفاره، واستاك، وفرق شعره، وتمضمض، واستنثر، واستنجى بالماء.
وهو أول مَنْ شاب وهو ابن مئة وخمسين سنة. (المعارف ص ٣٠).
وذكر ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ بسنده عن عكرمة قال: كان إبراهيم خليل الرحمن ﷺ يكنى أبا الأضياف. (الطّبقات الكبرى ١/ ٤٧).
وقد أشار الشّيخُ عبد الغني النابلسي ـ رحمه الله ـ إلى ذلك كلّه من قصيدة نقتطفُ منها قوله:

أبـو الضَّيفـان إبـراهيـم قَصـدْي ... خليـل الله ذو المجـد الأثيـلِ
جميـعُ الأنبيـاء إليـه تنمـى ... ويفخـرُ فيـه جيـلٌ بعـد جيـلِ
عظيـم القَـدْر أوّاهٌ حليـمٌ ... وثيـقُ القلـب بـالـرّب الجليـلِ
وأسـرارُ الخليـل هنـاك لاحـتْ ... فـأذهلـتِ الخليـلَ عـن الخليـلِ

* كلمة خفيفة لطيفة أنيسة، زرعت في قلبِ إبراهيمَ الطُّمأنينة... ما أحلاها من تحيّةٍ..!!...

* نظر إبراهيمُ إلى ضيوفه. فرأى ضيوفاً لم يُضفْ مثلهم حُسْناً وجمالاً وبهاءً ووسامةً... كانت وجوهُهم تشعُّ بالنُّور، وأجسامهم في غايةِ الرّوعة، ورائحتهم تفوح بالشّذا... عبق المكانُ بأطيبِ الطِّيْبِ...

* في سرعةٍ أجلسهم إبراهيمُ.. وأعدَّ لهم مُتّكَأً، وراغَ[1] إلى أهله... إلى سارَّة... ليعدَّ لهم الطّعام ويأتي به وفيراً مباركاً يكفي عشرات...

* وجاء إبراهيمُ بعجلٍ سمين مشويٍّ... كان العجلُ من خيارِ بَقَرِهِ... كان العجل شهياً يسرُّ النّاظرين... ويمتع الآكلين.. حمله إلى ضيوفِه الغرباء... ثمَّ قدّمه بيده إليهم، ثمَّ جلس ليأكلَ معهم...

البِشَـارَةُ العَظِيْمَـةُ:

* في ناحيةِ الخيمة، قامتْ زوجُ إبراهيم العجوز سارّة تخدم الضّيوف، وكانت تقومُ على رؤوس الأضياف كما جرتْ به عادةُ النّاس منَ العرب وغيرهم.

* لم يُقْبِلْ على الطَّعام أَحَدٌ من هؤلاء الضّيوف، ولم تمتد يَدْ واحدٍ منهم إلى اللحم.... فلمّا رأى أيديهم لا تصلُ إلى العجل الحنيذ نَكِرَهُمْ وأوجس[2] منهم خيفةً[3] حين لم يأكلوا من طعامه.

---

(١) «راغ»: راغ يروغ رَوْغاً وروغاناً: مال وحاد.
وراغ إلى كذا: مال إليه وأقبل عليه سِرّاً.
وراغ عليه: أقبل عليه سرّاً.
وقد وردت لفظةُ راغ في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع في سورتين: في الصّافات آية (٩١ و٩٣) والذّاريات آية (٢٦).

(٢) «الوجسُ»: هو الصّوت الخفي، ويطلق على ما يعتري النّفس من الشّعور والخواطر عند الفزع.

(٣) عندما رأى إبراهيم ـ عليه السّلام ـ أنَّ أيديهم لا تمتدُّ إلى الطَّعام، فزعَ وخاف من

* توزّعتِ النّظرات بين إبراهيم وضيوفه، قال لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢] بينما نظرتْ سارّة إلى إبراهيم، وضحكت لتخفّفَ مِنْ روعِهِ ثم قالت له:

عجباً لهؤلاء الضّيوف، إنّا نخدمهم بأنفسِنَا تكرمةً لهم، وهم لا يأكلون طعامنا[1].

* عندئذ كَشَفَ الضُّيوفُ عن حقيقتهم، وأعربوا عن هويّتهم، قالوا: نحنُ ملائكة الله مررنا عليك... ثم طمأنوه وبشّروه... ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذّاريات: ٢٨].

* كانتِ البِشَارةُ بإسحاقَ من زَوْجِهِ العقيم سارّة... ثم أخبروه أنّهم في مهمّةٍ إلهية عُلْويةٍ من لدن عليم حكيم، وهذه المهمة يجبُ تنفيذها سريعاً... ذكروا لهم أنّهم أُرسلوا إلى قومٍ مجرمين، قوط لوط حتى يُرسلوا عليهم حجارةٍ من طين مسوّمة عند ربّك للمسرفين... أخبروه بأنَّ لوطاً استنصرَ ربَّه لينصره على القوم المفسدين، فبعثهم الله لنصرته، وها هم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾؟

* سمعتْ سارّة البُشْرى من الملائكةِ الكرام، فبُغتَتْ وفُوجئت، ونَدَّتْ منها صيحة الدّهش، وعلى عادة النِّساء ضربتْ خدَّهَا بكفِّها وقالت متعجبة: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾!!!...

ثم قالت: هل أحمل، وأَلِدُ، وأرضع! إنَّ عمري يقتربُ من التّسعين وقد

= ضيوفه، وذلك مَنْ يُقدَّمُ إليه الطَّعام ثم لا يأكل منه فإنّه يُخيف، ويشعر بأنّه ينوي خيانة أو غدراً بحسب تقاليد أهل البدو. ومن المعروف أنَّ سيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ قد هاجر من أرض الكلدانيين ـ في العراق مسقط رأسه ـ وعبر الأردن وسكن بأرض كنعان في البادية.

(١) انظر: تاريخ الطّبريّ (١/ ١٥١).

كنتُ في حالة الصِّبَا عقيماً لا أحبل[1]...

* تعجّبتْ سارّة من هذه البُشْرى الغريبة... إنَّها الآن عجوز... بل كانت في الأصل عقيماً عندما كانت في سِنِّ الإنجاب... تساءلت قائلة: يا ويلتا أَأَلِدُ وأنا عجوز[2]؟! وهذا بعلي شيخاً، إنَّ هذا لشيءٌ عجيب[3].

* قال الإمامُ الرّازي[4] ـ رحمه الله ـ في هذا المقام ما مفاده:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢١١) وتفسير الخازن (٦/ ٢٤٥) وحسن الأسوة (ص ٢١٩ و٢٢٠).

(٢) قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ لما قالت: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ وتعجّبت، أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أَمْرِ الله، أي: من قضائِهِ وقدره، أي لا عجب أنْ يرزقكما الله الولد وهو إسحاق. (تفسير القرطبيّ ٩/ ٧٠).

(٣) كما أنَّ سارة في تعجبها عرّفتْ بحالها الذي لا يلائم الحَبَلَ، عرَّفَتْ بحال زوجها سيّدنا إبراهيم، الشّيخ المُسِنّ، فأشارت إليه قائلة: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ أي: كبير لا يولد لمثله...

(٤) «الرّازي»: محمّد بن عمر بن الحسين فخر الدِّين الرَّازيّ القرشيّ البكريّ ـ من ذريّة سيّدنا أبي بكر الصّديق عليه سحائب الرضوان ـ الشّافعيّ المفسّر المتكلم. وُلد سنة (٥٤٤هـ) في الرّي، ورحل إلى بلاد عديدة، وأتقن علوماً كثيرة وبَرَزَ فيها. قال ابنُ خلكان في الرازيّ: فريد عصره، ونسيج وحده، شهرته تغني عن استقصاء فضائله، وتصانيفه في علم الكلام والمعقولات سائرة.
وقد وصفه الصّفديُّ في كتابه: «الوافي بالوفيات» بقوله: اجتمع له خمسة أشياء ما جمعها الله لغيره فيما علمته من أمثاله وهي: سعة العبارة في القدرة على الكلام، وصحة الذّهن، والاطلاع الذي لا مزيد عليه، والحافظة المستوعبة، والذّاكرة التي تعينه على ما يريده في تقرير الأدلة والبراهين.
وللرازيّ عدد من المصنّفات المفيدة التي لا تُحصى منها: «المحصول» في أصول الفقه، و«شرح المفصل» للزّمخشريّ، و«إعجاز القرآن» و«مناقب الشّافعيّ» وغيرها كثير جداً، وله: «التّفسير الكبير» المعروف باسم: «مفاتيح الغيب» ويمتاز هذا التفسير بأنّه جمع فيه بين المباحث الكلامية والفلسفية والدِّينية، وردَّ فيه على تأويلات المعتزلة للقرآن، وضمَّنه محاولته في التّوفيق بين الفلسفة والدِّين، =

لما تكلّم الملائكةُ مع زوجها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ بولادتها استحيتْ سارّةُ، وأعرضتْ عنهم، وصاحت صيحةَ تعجّب كما جرت عادة النِّساء حيثُ يَسْمَعْنَ شيئاً مِنْ أحوالهن يَصِحْنَ صيحةً معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب.

وقد استبعدت سارّة أنْ تَلِدَ لوضعين من اجتماعهما فيها:

أحدهما: كبر السّنِّ.

الثّاني: العقم.

لأنّها كانت لا تلدُ في صِغَرِ سنِّها، وعنفوان شبابها، ثم عجزت وأيست فاستبعدت، فكأنّها قالت: يا ليتكم دعوتم دعاءً قريباً من الإجابة، ظنّاً منها أنَّ ذلك منهم كما يصدر من الضّيف على سبيل الإخبار من الأدعية، كقول الدَّاعي: الله يعطيك مالاً ويرزقك ولداً.

فقالوا: هذا منّا ليس بدعاء، وإنّما ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ ثمّ دفعوا استبعادها بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

* نسيتْ سارَّةُ أنَّ الملائكةَ الكرامَ هُم الذين يحملون البُشْرى من عند مليك مقتدر، ردّها الملائكةُ إلى الحقيقة الإلهية، حقيقة القدرة التي لا يقيّدها

= واستقصى آراء المتقدمين وناقشها. قال السُّبكيُّ عن تفسير الرازيّ: فيه مع التّفسير كلّ شيء.

أقول: والحقيقة إنَّ تفسير الرازي متعة من المتع التي تَرفدُ العقولَ وتغذيها بألوان المعارف والعلوم والآداب، فيكاد يكون هذا التفسير دائرة معارف حوت من كلّ فَن بطرف.

كان الرازيّ من تلامذة محيي السنّة الإمام البغويّ، وعنه نقل كثيراً من معارفه وعلومه. توفي الرازي في (٢١) من محرم سنة (٦٠٦هـ) في هراة، وخلف تركة عظيمة وأثراً لا تمحوهُ الأيام، رحمه الله تعالى.

(طبقات المفسرين للسيوطي ص ١٠٠ و١٠١) و(معجم المفسرين ٢/ ٥٩٦).

(١) التّفسير الكبير للرازي (٢٨/ ١٨٤ و١٨٥) ملخصاً.

شيء، إنّها القدرةُ الإلهيّةُ التي تدبّر كلَّ أَمْرٍ بحكمةٍ وعلْم[1]: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧٣].

* يقول الإمام النّسفيُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره في هذا المقام:

وإنَّما أنكرتِ الملائكةُ تعجّبها لأنّها كانت في بيتِ الآيات، ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعَادات، فكان عليها أنْ تتوقَّرَ ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النّساء النّاشئات في غير بيت النّبوّة، وأنْ تسبّح الله وتمجّده مكان التعجّب، وإلى ذلك أشارتِ الملائكةُ حيثُ قالوا: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أرادوا أنَّ هذه وأمثالها ممّا يكرمكم به ربّ العزّة، ويخصّكم بالإنعام به يا أهل النّبوّة، فليست بمكان عجيب، وهو كلام مستأنف علل به إنكار التّعجب كأنّه قيل: إياك والتعّجب لأنَّ أمثال هذه الرّحمة والبركة متكاثرة مِنَ اللهِ عليكم[2].

* عرفت سارّةُ إذن أنَّ أضيافَها منَ الملائكة، وعرفْ مهمتهم التي أرسلوا إليها لتدمير قوم لوط، فاستبشرتْ عند ذلك غضباً لله عليهم، وضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم بالله وعنادهم فبشّرتْها[3] الملائكة بإسحاق، ثم يعقوب إكراماً لها... قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وهذا دليل على أنّها

---

(١) إنَّ تعجب سيدنا إبراهيم وزوجه سارّة ـ عليهما السَّلام ـ من البشارة بسيدنا إسحاق ـ عليه السَّلام ـ لا يدلّ على أنَّهما أنقصا من قدرة الله ومشيئته العليا، أو الشكِّ في شيء من هذا، وإنَّما هو غلبة الأمر المعتاد والسُّنَّة الجارية، ودليل هذا أنَّه تنبّه ـ عليه السَّلام ـ بأدنى تنبيه: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

(٢) تفسير النّسفيّ (٢/ ١٩٧).

(٣) التّبشير يكون بالخير، وقد يكون بالشّر إذا كان مقيّداً به. يقال: بشّره تبشيراً إذا أخبره بخبر يظهر أثره على بشرةِ وجهه. وللمزيد من هذا اقرأ كتابنا: «المبشّرون بالنّار» ففيه توضيح لهذا المفهوم.

تستمتعُ بوجود ولدها إسحاق، وثم مِنْ بعده يُولد ولده يعقوب؛ أي: يولد في حياتها لتقرَّ عينها ولا تحزن.

* قال القرطبي[1] ـ رحمه الله ـ: كان بين البَشارة والولادة سَنَة، وكانت سارّةُ لم تَلِدْ قبل ذلك، فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة؛ وإبراهيم يومئذ ابن مئة سنة[2].

* وانطلق جُندُ اللهِ الملائكةُ إلى تَنْفيذِ مهمتهم، فقد كادتْ جيوشُ الظَّلام تتهيأُ للرّحيل، وبدأ الصُّبح يستعدُّ ليحتلَّ أماكن الليل في سَدُوم... وقف إبراهيم وسارّة ينظران....

---

(١) «القُرطبيُّ»: محمّد بن عمر بن يوسف الإمام أبو عبد الله القرطبيّ الأنصاريّ المالكيّ، يُعرف بالأندلس بابن مغايظ. نشأ بفاس بالمغرب، وزار البلاد العديدة.
وصفه السّيوطي بقوله: كان إماماً زاهداً مجوّداً للقراءات عارفاً بوجوهها بصيراً بمذهب مالك حاذقاً بفنون العربية، وله يدٌ طولى في التفسير.
كان القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ من عباد الله الصَّالحين، والعُلماء العارفين، والزّاهدين في الدّنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، وكانت أوقاته كلّها معمورة بالتّوجّه إلى الله وعبادته تارة، والتّصنيف تارة أخرىٰ، والتّعليم أحياناً.
روى عن القرطبيّ الزّكيّ المندريّ والشهاب القوصيّ وغيرهما... ومن أشهر آثار القرطبيّ تفسيره «الجامع لأحكام القرآن». ويُعتبر هذا التفسير من أشهر التّفاسير في دنيا التّفسير، ومن أوسعها، فقد جمع فيه من كلّ فنٍّ أشهر بطرف، من أسباب نُزولٍ، وقراءات، وأقوال السَّلف، وتفسير القرآن بالقرآن ثم بالحديث، وضمنه ذخيرة كبيرة من الأدب والشّعر، ويُعتبر تفسير القرطبي بحقّ نادرة من نوادر الدينا.
وصف ابنُ فرحون هذا التفسير فقال: وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً، أسقط منه القصص والتّواريخ. وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ.
وُلد القرطبي بقرطبة سنة (٥٥٨هـ) ومات مصر سنة (٦٣١هـ) وعمره (٧٣ سنة) رحمه الله تعالى.
(معجم المفسرين للسيوطي ص ١٠٣) و(الدّيباج المذهّب ترجمة القرطبي).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٤٧) وانظر حسن الأسوة (ص ٣٢٠).

* إنَّ الله سيجعل عاليَ قرية سدوم سافلها... دنت ساعة الصِّفر... وقُضِيَ الأَمْرُ... صارت القريةُ الظّالم أهلها عبرة كعادٍ الأولى، وثمودَ، وقوم نوحٍ من قبل... إنّهم كانوا هم أظلم وأطغى...

* وفي الصَّباح رأى إبراهيم لوطاً وأهله قادمين إلا امرأته كانت من السّاخرين، فأصابها ما أصاب قومها من الهلاك، فأصبحت من الخاسرين. أمّا إبراهيمُ ولوط ومَنْ معهم فقد خرّوا لله ساجدين، وسبّحوا بحمدِ ربِّهم الذي اختصّهم برحمةٍ منه وفَضْلٍ، ونَجّاهم من القوم الظالمين.

أمُّ نَبـــيٍّ:

* هو ذا إسحاق ـ عليه السَّلام ـ يصطفيه ربُّه ليكون نبياً، وها هي ذا سارّة تغمرُهَا سعادةٌ عظيمةٌ جعلتها تزدادُ شكراً وذِكراً لله ربِّ العالمين.

* ومع الذّكريات البعيدة القريبة راحت سارّة تذكر النّعم الرّبانيّة التي أسبغها الله عليها.

* تذكّرتْ عندما صكتْ وجهَها لما بشّرها[1] رسلُ ربّها بإسحاق.... تذكرت ذلك جيداً وتهلّلتْ ـ يومئذ ـ بالفرحِ وضحكتْ... فقد تحقق وَعْدُ اللهِ ووهب لها ولزوجها إسحاق...

* أصبحت سارّة ضاحكة السِّنِّ منذ ولدتْ إسحاق، ومنذ بشّرها رسل الرَّحمن به... وهل هناك ما هو أفرح للقلب وأنعم للنّفس من أنْ تَلِدَ عجوزٌ عقيم بعد اليأس؟!!.

* فاضتْ نِعَمُ اللهِ على سارّةَ... وعلى إبراهيم... وعلى أهلِ البيتِ الإبراهيميّ... ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

* إنَّها رحمة عظيمة إذ وهب الرّحمنُ لإبراهيم وسارَّة على الكبر إسماعيل

---

(١) من الآداب اللطيفة التي نوّه عنها القُرآن الكريم استحباب البشارة والتّهنئة بالمولود، ففي التَّهنئة بالمولود تقوية للأواصر والرّوابط بين الأُسَر والعوائل، ويُستحب لمن فاتته البشارة أنْ يهنىء بالدعاء للوليد.

وإسحاق. . . وَمنَّ على البيتِ الإبراهيمي بأنْ جعل في ذريته النّبوّة والكتاب والحكمة. . . اصطفى الله هذا البيت ليكون نوراً للعالمين. . .

* أضحتْ سارّةُ الآن طاعنة في السِّنِّ. . . وأصبح إسحاق بقربها تأْنَسُ به نفسها، ويفرح به قلبها، كانت لا تترك لحظة تمر إلا وتثني فيها على ربِّ العالمين. . . كان شعارها: الحمد الله ربّ العالمين. . .

* أمَّا إسحاق فكان أبواه يكبرانه كثيراً، ولذا فإنَّ بعض النَّاسِ كانوا يعجبون من هذا الفارق الكبير. . . .

وأورد ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ بسنده عن ابنِ إسحاق قال:

كان إسماعيل بِكْر إبراهيم وأكبر ولده، فلمّا ولدتْ سارّةُ لإبراهيمَ إسحاقَ، فذكر لي بعضُ أهلِ الكتاب أنّها لما ولدت، جعل الكنعانيون يقولون: ألا تعجبون لهذا الشيخ ولهذه العجوز، وجدوا صبياً لقيطاً فأخذاه؛ يزعمان أنَّه ولدهما، وهل يلدُ مثلها مِنْ النِّساء؟!!.

فكوَّنَ اللهَ صورةَ إسحاق على صورةِ إبراهيم حتى لا يراه أَحَدٌ إلا قال: والله إنَّه لمن الشَّيخ[1].

* وكبر إسحاق ـ عليه السَّلام ـ وكان بعد بلوغه منْ أولي العلم بالله وبدينه. . . وأضحى إسحاق[2] هو الغُلام العليم. . . وهو المُبشَّر به سارّة وإبراهيم، قال الله عزَّ وجلَّ في حكم التَّنزيل: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (ص ١٣٥) تراجم النساء، وانظر المعارف (ص ٣٠) وعلّق ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ على هذه القصّة فذكر بأن سيدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أول من شاب وعمره (١٥٠ سنة)، وعندها وَسَمَ الله سبحانه إبراهيم بالشَّيب.

(٢) ورد ذكر إسحاق ـ عليه السَّلام ـ في (١٦) موضعاً من القرآن الكريم، وتوزّعت سيرته في ثماني سور وهي: البقرة، آل عمران، النساء، الأنعام، إبراهيم، مريم، الأنبياء، وص.

مِنْ مَكَـارِمِ سَـارَّةَ وكَرَامِتِهَـا:

* هذه المرأة الصّدّيقة الصّادقة ذات مكانة عظيمة عند مليك مقتدر، عند الله ربِّ العالمين، إذ اختصَّها الله سبحانه بالجنّة، وأوْكَلَ إليها وإلى زوجها إبراهيم كفالة أطفال المسلمين ورعايتهم، وعن هذا يحدّثُنا أبو هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«أولادُ المسلمين في جَبَل في الجنّةِ يكفلهم إبراهيمُ وسارّة، فإذا كان يوم القيامة دفعوهم إلى آبائهم»[1].

* ومن مكارم سَارّة أنَّها آثرتْ جاريتها على نفسها، وأعطتها لزوجها، فقد كانت هاجر ذات هيئة، فوهبتها سارة لإبراهيم وقالت: إنّي أراها وضيئة، فخذها لعَلَّ اللهَ أنْ يرزقك منها ولداً...

* وكانت سارّةُ قد مُنِعَتِ الولدَ، لمْ تَلِدْ لإبراهيمَ حتى أيست، وكان إبراهيمُ قد دعا ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصّافات: ١٠٠] فأُخّرتِ الدّعوةُ حتى كبر إبراهيم وعقمت سارّة، ثمّ إنَّ إبراهيم تزوّجَ هاجر، فولدت له إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ.

* ولما وُلِدَ لإبراهيم إسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ اشتدَّ حُزْنُ سارّة على ما فاتها منَ الولد... ثم إنَّها أرجعتْ كل ذلك إلى مشيئةِ الباري جل جلاله، فبُشِّرَتْ بإسحاق، وأكرمها الله به، فكان غلاماً عليماً، جعله الله منْ رسلِهِ الكرام الذين اختصّهم الله لهداية البَشَر، كما بُشِّرَتْ بأنَّ إسحاق يكون نبيّاً ويلدُ نبيّاً، فكان هذا بشارة لها بأنْ ترى وَلَدَ ولدِهَا... وعاشت حميدة، عاشت حتى رأت إسحاق، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوب، عليهما السَّلام جميعاً.

﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾:

* في يومٍ من أيّام الله، كانت سارّة ترتّلُ شيئاً من صُحُفِ إبراهيمَ المطهّرة... تلك الصُّحُف التي أنزلها الله عليه... كان صوتُها نديّاً كصوتِ

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (ص ١٣٦) تراجم النّساء.

الملائكةِ حينما زفّوا إليها البشارة بإسحاق... كان صوتُها يسري في سكونِ الليل، ويمسُّ شغاف القلوب، فتصلها بخالقها الذي أحسن كلَّ شيء خَلقَه...

* كان إبراهيمُ ـ عليه السّلام ـ يسمعُ إلى سارة وهي تناجي ربها وتقرأ الصّحف المباركة المطهّرة... وكان ابنها إسحاق ـ عليه السّلام ـ يستمع إلى ترتيلها الملائكي الذي دفعه لأن ينحني ويلثم أطراف يديها ويقبل رأسها...

* كانت سارّةُ رضي الله عنها تناجي ربَّها كلَّ صبح ومساء، وتبتهل إليه دائماً... فقد رأتْ ما وعدها ربُّها حقاً... رأت ابنها إسحاق وحفيدها يعقوب... كانت دائماً تلهج بالثّناء على الله... وكانت تذكر الله.. ألا بذكرِ الله تطمئنُ القلوب... وترتوي النّفوس...

* ظلّت سارّةُ كذلك إلى أنْ جاءت سكرةُ الموتِ بالحقّ... ماتت سارّة... ماتت زوج الخليل وأم الغلام العليم، وجدّة يعقوب النّبي الكريم..

* صَعِدَتْ روحُها إلى بارئها راضية مرضية... في الأفق الأعلى قيل لها: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾.

* وقفَ إبراهيمُ وإسحاقُ ويعقوبُ ينظرون إلى سارَّةَ، كانت أعينُهم قد اغرورقتْ بالدّموع... راحَ إبراهيمُ ـ ومن خَلْفِهِ إسحاق ـ يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. إنّا على فراقك لمحزونون.

* كان يوم فراقها يوماً مشهوداً في البلاد التي بورك فيها...

وفي أرضِ الخليل[1] بفلسطين يثوي جثمان سارّة... تلك السّيّدة

---

(١) ذكر الشيخ عبد الغني النّابلسي ـ رحمه الله ـ في كتابه الطّريف: «الحضرة الأنسيّة في الرحلة القدسيّة» أنه توجد بالخليل عينٌ تسمى: «عين سارّة» وهي نضّاحة بالماء المعين الفرات السّلسبيل. أقول: وربما تُنسب هذه العين للسّيدة سارة، رضي الله عنها.
وقد أشار أحدُ الشُّعراء إلى هذه العين، وإلى عين أخرى اسمها عين حلحول فقال =

الجليلة التي خطَّ القرآنُ الكريم سيرتها؛ لتكون قدوة للنّساء في الإيمان والتَّسليم..

* ذُكِرتْ سارّةُ في القرآن لتكون سيرتها إمتاعاً للأسماع، ولتكون مثلاً أعلى لكلِّ امرأة في كلِّ زمان ومكان... لتكون قدوة في كلِّ الصِّفات الخيِّرة التي تجعل من الحياة الزّوجية رمزاً للسَّعادة في طاعةِ اللهِ ربِّ العالمينَ...

* تلكم هي سارّة أُمُّ الأنبياء، وزوج أبي الأنبياء، فهل تكون قدوة لنا في هذه الحياة؟! رضي الله عن سارّة وأرضاها.

* * *

= في قصيدة:

يا حبّذا جبلٌ من الخليل ويا ... ما أطيبَ العيش فيه تحتَ زيتونِ
وعينُ سارّة لا أنسى مواردها ... وعين حلحول أعني عين ذات النّون

وقد أشار الشّيخ عبد الغني النّابلسيّ أيضاً إلى عينِ حلحول وعين سارة، فقال من قصيدته اللامية الشّهيرة:

بدتْ للعين أنوارُ الخليلِ ... وعمّتْ رحمةُ الربِّ الجليلِ
وإنّ بعين حلحول عيوناً ... لنا قرّت لدى ذاك السّبيلِ
وجئنا عين سارة فاستقينا ... جميعاً من زلال سلسبيلِ

وأشار النّابلسيّ أيضاً في قصيدة أخرى إلى عين سارة فقال:

ولم أنسَ الطلول ودير مجّا ... وأعلاماً بدت من عينِ سارا

ب ـ هاجر زَوْجُ إبْرَاهِيْمَ عليه السلام

أُمُّ العَـرَبِ:

* سيّدةٌ كريمةٌ، وأمُّ نبيٍّ حليم، وزوجُ نبيٍّ كان أمّةً وَحْدَهُ. . امرأةٌ كانت بركةً على خليل الرحمن سيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ منذ أوّل يوم وهبها مَلِكُ مصرَ لزوجه الصّديقة الصّادقة سارَّةَ ـ عليها السَّلام ـ.

* كان ذلك الموقفُ يعبقُ بطيوبِ الإيمان، ذاك الذي ظهرتْ فيه سارّة على أكْمَلِ ما تكون العَابدات القانتات الصّدّيقات. . .

* كان خليلُ الرّحمن إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في شَوْقٍ إلى الوَلَدِ. . . إلى الذُّريَّة. . . كان يدعو ربَّه سِرّاً وعلانية أنْ يهب له مِنَ الصَّالحينَ. . .

* وفي لحظةٍ منْ لحظاتِ العناية الإلهيّة أتى أَمْرُ اللهِ من فوقِ سَبْعِ سموات. . . أتى الأَمْرُ الإلهيُّ رقيقاً رفيقاً يأمرُ إبراهيمَ أنْ يتزوّج هذه السّيدةَ الكريمة، ألهم سارّة أنْ تَهَبَ جاريتها لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

* كان أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً. . . قَدَّرَ اللهُ أنْ تكونَ ضيفتنا أُمّاً لإسماعيل ـ عليه السَّلام ـ أُمّاً للعرب؛ أمّاً لخير أمّةٍ أُخرجت للنّاس. . . أُمّاً للذين غُرِسَتْ نبتتهم الصَّالحة في أُمِّ القُرى بَكَّة ـ مكّة ـ التي بارك الله فيها. . . وفيما حولها. . . وجعلَ أفئدة منَ النَّاسِ تهوي إليها. . .

* هاجر[1] تلكم السَّيِّدةُ الشَّريفة التي كانت أمَّ العرب. . . هي زوجُ سيّدنا

---

(١) أخبارُ مكةَ للأزرقيّ (١/ ٥٤) وشِفَاء الغرام للفاسيّ (٢/ ٥٢) ومفحمات الأقران (ص ١٢٨) وغرر التّبيان (ص ٢١٢) والبداية والنّهاية (١/ ١٥٠) وتاريخ مدينة دمشق =

إبراهيم نبيّ اللهِ وخليله ـ عليه السَّلام ـ وأمّ نبي الله إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ.

* والآن دعونا نَشْهَدُ تلك الوقَفات المباركة مع هذه المرأة التي أخرجها الله من مصرَ، وجاء بها من عند الكَفَرة، وأَحْسَنَ إليها بأنْ جعلَها منَ المُصطَفَيَاتِ اللاتي ذهب الدَّهر بمقالاتهن، وأقرَّ مقامهن، وكُنَّ القدوة الحسنة لسائر نساء الدُّنيا في كلِّ فضيلة، وفي كلِّ خيرٍ يؤدي إلى السَّعادة في الدَّارَيْنِ، ويؤدي إلى إسعاد الزَّوجين في ظِلِّ مرضاةِ الخالق البارىء سبحانه، إذ كانت رجواها في بدايةِ الأَمْرِ سلامة دِينِها، وآخر دعواها أنِ الحمدُ لله...

هَاجَر وطَرِيْقُ النُّـورِ:

* لم يَبْقَ منْ مِصر[1] شيءٌ في ذِهْنِ هَاجَر. تلاشت أطيافُ الذِّكرياتِ من ذاكرتها... كانت امرأة مخلصة كلّ الإخلاص لسيدتها سارّة ولمولاها إبراهيم.. سلامٌ على أهلِ هذا البيت الذي يفوحُ برحيقِ الإيمانِ وعبق الإسلام... وأريج الطُّهرِ والطَّهارة.

* كانت هاجر تقومُ على خدمةِ سيّدتها على أَحْسَنِ وجهٍ وأكملِه... رأت في سيّدتها سارّة ما لم تَرَ من امرأة في حياتها...

* كانت سارّة امرأةً جميلةَ الوجهِ، كريمةَ الطَّبعِ... رقيقةَ المشاعر، أمّا هاجر فقد وصفتها المصادر بأنَّها كانت جارية شَعراء كحلاء جعدة مفلّجة

ـ رحمهم النساء ـ (ص ٤١٥) والكامل لابن الأثير (١/ ١٠١) وتاريخ الطبريّ (١/ ١٥٢) والمعارف (ص ٣٠) وفتح الباري (٦/ ٤٦٢) وتفسير الصّاويّ (٢/ ٢٤٢) وتهذيب الأسماء واللّغات النّوويّ (١/ ١٠١) والسّيرة النّبويّة لابن هشام بشرح أبي ذر الخشنيّ (١/ ٣٩).

(١) ذكر ياقوت الحمويّ ـ رحمه الله ـ بأن هاجر من قرية بمصرَ تدعى «ياق» وقال: وقيل: قريةٌ كانت بمصر عند أم دُنين، منها كانت هاجر أمّ إسماعيل ـ عليه السلام ـ ويقال: من قرية قرب الفرما يقال لها: أمّ العرب.
(معجم البلدان ٥/ ٤٢٦).

الثّنايا، حسناء، عربية اللسان والحسب[1].

* أحبّتْ هاجر سيّدتها حبّاً خالَطَ نفسها... رأت فيها معاني الخير كلِّهِ... في إحدى ساعاتِ المناجاةِ كانتْ سَارةُ تقفُ بين يَدَي خالقها تدعوهُ خوفاً وطمعاً، سِرّاً وعلانيةً...

* دخلتْ هاجرُ فرأتْ سارَّة تصلّي.. سمعتها تقرأ كلاماً لم تستطع معرفةَ معناه... إلا أنَّها شعرتْ بأنَّ أشعةً مِنْ نورٍ تساقطتْ على نفسها... شعرتْ بأنَّ الطُّمأنينةَ تتوضَّعُ في أعماقِ قلبها...

* في أدبٍ واستحياء سألتْ هاجرُ سيّدتَها العجوز العابدة القانتة قالت لها: يا سيدتي... ما الإلهُ الذي تعبدينه؟!.

* كانت هاجر ذكيةً، ذات نفسية صافية مُشرقة.. وحياء شديد.. وإذ ذاك شعرت السّيّدة الصّدّيقة سارّة بأنَّ هاجر تبحثُ عن الحقيقة... تبحث عن النُّور الإلهيّ، تريد أنْ تصِلَ نفسها بالخالقِ الباري...

* في إيمان العابدين ونورِ اليقين قالت سارّةُ لهاجر: أيتها الفتاة الطّيّبة، نعبدُ الله الذي لا إله إلا هو، خالق السّموات والأرضِ، وربّ كلّ شيء، وخالق كلّ شيء يُحيي ويُميت، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

* صمتتْ سارّةُ قليلاً وهي ترقبُ هاجر التي وعتْ كلَّ حرفٍ كانت تقوله، ثم أخذت سارّةُ تقول:

إنَّ هذا الإله الذي نعبده هو الأوَّلُ والآخرُ، والظَّاهرُ والباطن، وهو بكلِّ شيءٍ عليم...

* ثم بدأتْ سارّةُ تبذرُ بذورَ الإيمان، وتغرسُ غِراسَ اليقين في هاجرَ التي كانت نفسُها تستقبلُ تلك الإشاراتِ الإيمانية مِنْ سارّةَ... كان نورُ الإيمان يغلِّفُ قلبَ هاجر... أفهمتها سارّة بأنَّ إبراهيمَ رسولُ ربِّ العالمين... علّمَتْها أنَّ الله يصطفي من الملائكةِ ومن النَّاس رسُلاً مبشّرين ومنذرين

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (ص ٤١٥) تراجم النّساء.

ومعلّمين؛ لئلا يكون للنّاس على اللهِ حجَّة بعد الرُّسل. . . علّمتها كيف تسلم وجهها لله ربِّ العالمين. . .

* لاحظتْ سارّة أنَّ هاجر تفهم كلّ جملةٍ وكلّ كلمة تقولها. . . كانت تصغي إليها بكلِّ جوارحها. . .

* شعرت هاجر بأنَّ مسحةً نورانيةً رقيقةً قد مسَّتْ نفسها ومسحت قلبها. . . أحسّتْ بأنّها قريبة من ينابيع الخيرات ومنابع النُّور. . . أضحت تشعرُ بدفء الإيمان، وعظمة الصِّلَة بالخالقِ البارىء. . .

* في بيتِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ راحت هاجرُ تسمعُ ما يقوله إبراهيم وما يدعو إليه، كان كلاماً جميلاً حقاً، يدخل إلى النُّفوس، ويقعُ موقعاً حسناً على القلوب. . . شعرت بأنَّ روحها تتألقُ بنور إلهيّ. . .

* وسرعان ما آمنتْ هاجرُ بما يدعو إليه إبراهيم. . . آمنت باللهِ ربِّ العالمين. . . ربّها وربّ إبراهيم، وربّ كلّ شيء. . . هَجَرَتْ هاجرُ كلَّ شيءٍ في سبيل إيمانها بالله، أصبحتْ مؤمنة بالله، وقد امتلأت نفسُها عزّةً وكرامة وضياء. . .

* كانت هاجرُ راضيةً؛ لأنَّ اللهَ سبحانه أرادَ لها الرُّشْدَ والرَّشاد. . . وهداها إلى عبادتِه. . هداها إلى صراط مستقيمٍ دِيْنَاً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً. . .

* كانت لا تفتأ تحمَدُ الله على هذه النِّعمة الإيمانية التي خلَّصَتْها من عبادةِ الآلهة والأصنام. . .

* تولّدت بذهنها ذكرياتٌ مِنْ جديد. . لقد أتى الله بخليلهِ إبراهيم إلى مصرَ لينقذَها من براثنِ الكفر، ومن ظلمات الشّرك والإشراك. لم يَدُرْ بذهنها ـ وقتذاك ـ أنَّها ستكونُ من النِّساء الأوائل في قافلة الإيمان في تاريخ النِّساء. . . وفي دينا النِّساء الشَّهيرات. . . وفي دنيا شهيرات النّساء، ولم تَدْرِ هاجر أنّها المرأةُ التي بارك الله فيها. . . والتي يعدُّها ليومٍ عظيم. . .

* هل عرفت أنَّها ستكون زوج نبيّ . . وأمّ نبيّ؟! والله يفعل ما يشاء. . .

كان هذا في عِلْمِ الله سبحانه، والله لا يطلع على غيبه أحداً...

* يبدو أنَّ سارّةَ وهاجر أحبّتْ كلّ واحدةٍ منهما الأخرى بادي الرأي... ويبدو أنَّ هاجَرَ قد سارتْ على دربِ العبادة الذي سلكته سارّة.. راحت تترسّم خطاها في كلِّ مكرمة...

* كانت تشعر كأنَّ فيضاً من الحكمةِ يُسْكَبُ في وجدانها، فيملأُ نفسها نوراً... كانت تشعر بأنَّ ينابيعَ النُّورِ قد تفجَّرتْ في أعماقِها تفجيراً.

* ما أسعد اللحظات التي يقضيها الإنسانُ في ظلال الإيمان! وظلال العبادة والمناجاة!!! إنّه يُحَلِّقُ عالياً في سماء الأبرار...

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

* تنفّس صُبْحُ يومٍ من الأيام.. وتبسّم فجرهُ في عيون الدُّنيا... وتألّق نورٌ من جهةِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كان يدعو الله.. كان يقول ضارعاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] سألَ إبراهيم ربَّه أنْ يرزقَه ذريّة طيّبةً، أَنْ يَهَبَهُ وَلَداً صالحاً.

* كانت سارّةُ هي الأخرى في مناجاة مع ربّها... سمعتْ مناجاةَ إبراهيم ودعاءه وتوسّلاته إلى اللهِ ربِّ العالمين.

* سرى في نفسها خيطُ حزنٍ عميق... إنّها عجوزٌ.. وإنّها عقيمٌ. وإنَّ بَعْلَها شيخٌ كبيرٌ، فأنّى يكون لهما وَلَد؟! وزاد من حزنها أنَّ زوجَها إبراهيم يودّ أنْ يكونَ له وَلَدٌ... إنَّه يشتاقُ إلى ذريّةٍ طيّبةٍ.

* نظرتْ سارَّةُ إلى السَّماء نظرةَ خشوعٍ وانكسار إلى الله عزّ وجلّ.. يبدو أنّها دعتِ اللهَ أنْ يهبَ لزوجها ما تقرُّ بهِ عينها وعينه.

* مضتْ أيامٌ وأيام.. كان إبراهيم يلحُّ ويدعو الله أنْ يهبَه الولد.. جاءتِ البُشْرَى الإلهية بذلك... كان لهذه البشارة مقدماتٌ ومسبّبات... ولها وقتٌ معلوم.

* في أَحَدِ الأسحارِ، دخلتْ سارةُ بيت هاجر.. رأتها في موقفٍ عظيم..

كانت مع خالقها. . كانت تستغفرُ الله وتدعوه، كانت تصلّي في خُشُوعٍ. . . وبدأ وجهها يتألّقُ بنورِ الإيمان. . .

* وقفت سارّة تنظرُ إلى هذه المرأة المصريّةِ التي حطّتْ بها المقاديرُ الإلهية في بيتِ المقدس. . .

لم تُحْدِثْ سارّة أيّة حركة كي لا تشعر بها هاجر. . وكيلا تنشغل بها عن مناجاتها وقنوتها. . .

* وفي تلك اللحظات النّديّة الصّافيةِ، تسلَّلَتْ إلى ذهن سارّة فكرة ندية. . . ربما كانتِ الفكرةُ وَحْياً أو إلهاماً منَ اللهِ تعالى؛ إنَّ هاجرَ جاريتُها أَخْدمها لها جبّار مصرَ. . . ماذا لو وهبتْ هاجر إلى إبراهيم؟ إنَّها في ريعان الشَّباب. . وربما تنجبُ له ما تشتهيه نفسه من الذّريّة. . من الصَّالحين.

* استقرّتْ هذه الفكرة في ذهن سارّة استقرار الطِّفلِ الوديع الوحيد إلى صدرِ أمِّهِ. . . عادت سارّةُ تنظرُ إلى هاجرَ نظرةً فيها عطفٌ وحنانٌ وخيرٌ. . .

* قفزتْ إلى وجدانها تلك الفكرة لتدعوها إلى الإسراع فيما خطر ببالها منذ لحظات. . لماذا لا تَهَبُ هاجر إلى إبراهيم؟ وكأنَّ وَحْياً هَمَسَ في أعماقِ نفسها يناديها بصوت رخيٍّ نديٍّ: يا سارّة، لعلّ الله يجعل لكِ من هذا خيراً؛ ولعلّ الله قد ساقَ هذه الجارية المصرية لسعادتك. . .

* شعرت سارّة براحةٍ تغمرها. . وأحسَّتْ بسرور يتوضّع في أعماقها لتلك الهمسات. . حقاً إنَّ هاجرَ تستحقُّ كلَّ خير، وتستحقُّ كلَّ مكرمة. . .

* كم رأتها في الأسحار وهي مستغرقة بذكْرِ الله؟. كم شعرت ببصيرتها وقد استنارت بنور اللهِ؟. . .عرفَتْ ذلك من ملامحها. . . من تصرفاتها. . . من صِدْقِ وفائها. . . ووفاء صِدْقها. . .

* أمّا هاجرُ. . .فقد أرادَ اللهُ لها الخيرَ كلَّهِ. . كانت تصلّي، وتذكر، وتسبّح بالعشيِّ والإبْكَار. . وهَبَتْ نفسها لله. . ذاقتْ حلاوة الإيمان، فلم تعرِف الوحشة بعد أنْ عرفتْ مسالك الإيمان الذي يفتح مسالك الأبصار، وينير مسالك البصائر. . . كانت تأنسُ باللهِ. . وتحبُّ مَنْ يحبّه. .كانت

تستغفرُ الله في الليل والنّهار، وعند إدبار النجوم. . .

* وصَلَتْ هاجرُ العبادة بالصّلاح. . وصَلَتْ حَبْلَها بحبلِ الله. . باتَ قلبُها مشغولاً بالله. . نسيتْ مصرَ، ونسيتْ أهلها. . نسيت ذلك النّعيم الذي كانت تعيشه في قصور مَلِك مصر. . .

* إنّها الآن في نعيمٍ حقيقيّ. . نعيم لا يزول. . نعيمٍ يرفعُ الأبرار إلى الدّرجات العُلى. . . لقد ارتقتْ بنفسها وروحها إلى الأفقِ العلويّ، فرأتْ بعين البصيرة كرامة الله لها. . . أنعم الله عليها باتباع خليله إبراهيم. . . وأكرمها بخدمته. . . إنَّ هذا لهو الفضلُ المبينُ. . . لا شك إنّها سمعت عن معجزة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ عندما أُلقي في النّار. . . كان في سَلامةٍ وسَلامٍ، سلام من ربِّ العَالمين، لأنّه أَسْلَمَ وجهه لله ربِّ العالمين.

* وأمّا إبراهيم الذي وفّى، فقد كان في صَفَاء روحيٍّ مع بارئه، أوحي إليه أنَّ هذه الأرض سيورثها الله لذريّتك. . . أوحي إليه أيضاً. . سيجعل الله في ذريتك النّبوّة والكتاب. . . هَتَفَ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ من أعماقه: هذا رحمة من ربّي. . . هذا من فضل ربّي.

* أبلغ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ زوجه سارّة بحديث الذّرية والنّبوّة والكتاب. . تهلّلت أساريرُ وجهها بالفرح. . ورفرفتْ نفسُها، وحلّقتْ عالياً في صَفَاءٍ ربانيّ لم تعهد له من قبلُ صفاء. .

* أنطقها اللهُ الذي أنطقَ كلَّ شيء. . . قالت في سرورٍ لزوجها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ: هذه هاجر، خُذْهَا لعلَّ الله عزَّ وجلَّ أَنْ يرزقَك منها الولد. . .

* ألاَ ما أعظم تلك المقولةِ مِنْ سارّة. . . حقاً إنّها لتضحية تفوق قدرة البَشَر أنْ تدفعَ زوجة عزيزة مكرمة بيدها امرأة أخرى إلى زوجها الذي تحبُّه من أعماقِ قلبها.

* إنها تضحيةٌ عُظمى أنْ تتنازلَ عن مركزها السَّامي كزوجةٍ وحيدة لرسولِ اللهِ لامرأةٍ أخرى. . . أياً كانت تلك المرأة. .

* إنَّ سارَّةَ كانت كفؤاً للتّضحية . . . عرفتِ الله وآمنتْ به، وتوكّلت عليه، وأسلمتْ وجهها له . . . إنْ أَمَرَها بأمْرٍ وجَبَتْ عليها طاعتُهُ وهي راضية. فَلَهُ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بعد، وهو فعّال لما يريد، وليتحقق وَعْدُ الله، وإنَّ وعْدَهُ كان مَأتياً.

* ولما وهبتْ سارّةُ هاجرَ لإبراهيم دخل بها، فحملت منه، وهكذا أراد الله أنْ يجزيَها جزاء الشّاكرين، وأنْ يعلي قدرها، ويرفع مكانتها فوق نسوة عصرها؛ ليأتي النَّسلُ المبارك الذي يرثُ مشارق الأرض ومغاربها.

* وجاء مَلَكٌ مِنْ الملائكةِ ـ لما كانت حاملاً ـ قال لها: إنَّ الله جاعلٌ من هذا الغلام الذي حَمَلتِ خيراً. . بشَّرها أنّها ستلدُ ابناً، وتسمّيه إسماعيل. . . يده على الكلِّ، ويدُ الكلِّ به، ويملك جميع بلاد إخوته. . شكرت هاجر الله عزَّ وجلَّ على ذلك[1].

قال ابنُ كثيرٍ ـ رحمه الله ـ:

وهذا البشارة انطبقتْ على ولده محمّد صلوات الله وسلامه عليه، فإنَّه الذي سادت به العربُ، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً، وآتاها الله من العِلْمِ النَّافع والعمل الصَّالح ما لم تُؤْتَ أمّة منَ الأُممِ قبلهم، وما ذاك إلا بشرفِ رسولها على سائر الرُّسل، وبركة رسالته وعين سفارته، وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض[2].

* وجاء اليومُ الموعود، وأشرقتِ الدُّنيا بنورِ ربِّها. . . أحسّت هاجر بآلامِ الوضع. . . بعد لحظاتٍ انبعث صوتُ طِفْلٍ. . ولدت هاجر غلاماً سويّاً هو إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ.

* كان عُمْرُ إبراهيم إذ ذاك (٨٦ سنة) على ما ذكره أصحاب التّواريخ والسِّير، وكانت السّنون قد نالتْ منه؛ إلا أنَّها زادته مهابة وشرفاً. . . كان

---

(١) عن قصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٦٥) بتصرف.
(٢) المصدر السّابق.

الشَّيْبُ وقاراً له. . . وكان في عينيه بريقٌ أخّاذ يشعُّ منهما، فيملأ النّفوس جلالاً واحتراماً.

* عندما ولد إسماعيل خَرَّ إبراهيم وسارّة وهاجر لله ساجدين. . . وقالوا: الحمد للهِ الذي صَدَقَنَا وعده. . . ثم جعل إبراهيم يقول: ربِّ إني أعيذُه بك وذريته منَ الشَّيطان الرَّجيم. .

* راحت هاجرُ تقومُ الليلَ تُصَلِّي للهِ ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً؛ إذ منَّ الله عليها بنعمةٍ كبرى. . . وإذ اصطفاها من نساء مصر لتنجبَ ذريّة لخليلهِ إبراهيم.

* آتاها ربّها في الدنيا حَسَنة. . وجعلها أُمّاً لرسول حليم، وأُمّاً لابن الرسول الكريم إبراهيم الذي وعده أنّه يورثه المشَارق والمغارب من الأرض.

* وسيؤتيها في الآخرة ـ إن شاء الله ـ حسنة، فتكون مع الصَّابرين الذين وعدهم دخول الجنّة دون حساب. . . وأنْ تكونَ مع المتكئين على الأرائك في جنّات النّعيم لا ترى فيها شمساً ولا زمهريراً.

هَاجَـرُ فـي أمِّ القُـرَى:

* عاشتْ هاجَرُ في بدايةِ ولادتها أياماً سعيدةً وهي قريرة العين بطفلها. . كانت ترى السَّعادة من بريقِ عينيه، أعطته كلَّ ما تملك من عَطْفٍ وحنان. . كان أبوهُ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يرى أنَّ دعاءه قد تحقّقَ في هذا الغلامِ. . عرف أنّ في ابنه إسماعيل بشارَتَيْن:

الأولى: وهو ما يزال في بَطْنِ أمّه إذ أخبره ربّه أنّه سيهَبَهُ غلاماً زكياً؛ عرف أنّه ذكرٌ، وهذا أفرحُ لقلبه.

* والثّانية: بعد الولادة. . . بشّرهُ ربّه أنَّ إسماعيل سيبلغ مبلغ الرِّجال، وأخبره بأنّه ستظهرُ فيه صفات الكمال، وصفاء الذّات، ويتوّج تلك الصِّفات: الحلم؛ وهذه الصّفة لم يوصف بها غيرهما ـ عليهما السَّلام ـ.

* وقيل: ما نُعِتَ الأنبياءُ عليهم السَّلام بأقلَّ مما نعتهم بالحِلْم، وذلك لعزّةِ وجوده، ولا شكَّ أنَّ الحلمَ هو رأس الصَّلاح، وأصل الفضائل، ومنبع

الأحكام، وعَلَمُ المعالي. قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: ما سمعتُ الله يجلُّ عباده شيئاً أجلّ مِنَ الحلم[1].

* بدأت الغَيْرَةُ تَتسلّلُ إلى قَلْبِ سارّة، وبدأت كرامتُها تتفجّر في نفسها... اشتدّت بها يوماً بعد يوم.. لم تَعُدْ سارّةُ تطيقُ العيش مع ضرّتها... صارت تضيقُ بها وبولدها.

* كان قلبُ سارّة التقية الصّدّيقة العابدة ليتسع لإسماعيل وأمّه، فقد نشأت في كَنَفِ خليل الرحمن، وصُنِعَتْ على عينه، وتعلّمت أنّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ، وأنّ ما عند الله خير للإبرار.. ولكنّ هذا كله لحكمة إلهية، وأمْرٍ ربّاني... لا يعلمه إلا العليم الخبير.

* طلبت سارّة من إبراهيم أنْ ينيّبَ هاجر عنها... وناشدته باللهِ أنْ يخرجَهما من عندها.

قال ابن قيمّ الجوزيّة ـ رحمه الله ـ:

إن سارّةَ امرأةُ الخليلِ غارتْ من هاجر وابنها أشدَّ الغَيْرَة، فإنّها كانت جارية، فلمّا ولدتْ إسماعيل وأحبّه أبوه اشتدَّت غيرةُ سارّة، فأمره الله سبحانه أنْ يبعدَ عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرضِ مكةَ لتبرد عن سارّةَ حرارة الغيرة، وهذا مِنْ رحمته ورأفته تعالى[2].

* وعرفت هاجر ذلك... أسلمت وجهها للهِ ربِّ العالمين، كان إيمانُها بذلك معقوداً بكمال العبادة، رأت بعين بصيرتها أنَّ اللهَ لن يضيعَها إذ اختارها حليلة لخليله.. وكأنَّ القائل عناها بقوله:

قلـــوبُ العـــارفيـــنَ لهـــا عيـــونٌ

تـــرى مـــا لا يـــراهُ النَّـــاظـــرونـــا

---

(١) البحر المحيط لأبي حيّان (٧/ ٣٦٩) والكشاف للزمخشري (٣/ ٣٤٧) وتفسير القاسميّ (١٤/ ١١٧) وتفسير الماورديّ (٣/ ٤٢١).

(٢) انظر: زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/ ٧٤ و٧٥).

أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أنْ خَذ هاجر وابنها إسماعيل، واخرج إلى الأرضِ المباركة، تلك البقعة التي أراد اللهُ أنْ يبارِكَ فيها للعالمين مكة، أمّ القرى..

* قال الصَّاويُّ[1] ـ رحمه الله ـ في حاشيته على الجلالين: أَمَرهُ الله تعالى بالوحي أنْ ينقلَها إلى مكةَ، وأتى لها بالبُراق، فركبَ عليه هو وهاجر والطّفل[2].

* نزل خليلُ الرَّحمن وهاجر وإسماعيل بوادٍ غير ذي زرع، لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا حياة... لم يكن بالوادي أحد إلا الله عزَّ جلَّ، وإلاَّ الذين أُمِرَ بخروجهم ليُعْلي كلمته، ويتمّ نوره، وكيما تتحقق مشيئته.

* نظر إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ إلى زوجِهِ هاجر وابنه إسماعيل نظرةً فيها معاني الرّأفة كلّها.. ولكنّه راجِعٌ منْ حيثُ أتى، إنّه أَمْرُ الله فلا رادَّ لحكمِهِ..

إذَنْ لا يُضَيّعنَا الله:

* أنزلَ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ هاجرَ وطفلها الرَّضيع قربَ بيتِ الله المحرم.. وضع عندهما جراباً[3] فيه تمر، وسقاء فيه ماء... ثم ذهب

---

(١) «الصَّاويُّ»: أحمدُ بنُ محمد الخلوتيّ، الشّهير بالصّاويّ... أحد فقهاء المالكية، وأحد المفسّرين المجودين. وُلد أحمد الصّاوي سنة (١١٧٥هـ) في مصرَ في «صَاءِ الحَجَر» وإليها نسبته؛ وتلقّى علومه الشّرعية بالأزهر.
من كُتُبه التفسير المشهور: «حاشية الصَّاوي على تفسير الجلالين» ويمتاز هذا التفسير بجمالِ العرض وحُسْنِ التنسيق، كما أنَّ فيه مسحةً من الأدب والنّحو، ولم يَخْلَ من بعض المَسحات الصُّوفية التي توزّعتْ في أجزائه الأربعة، وفيه كذلك بعض التّحقيقات المفيدة.
انتقل الصّاويّ إلى المدينة المنورة، وأكمل بها بقيّةَ حياته، وبها مات سنة (١١٨٧ هـ) وعمره (٦٦ سنة) رحمه الله تعالى.
(معجم المؤلفين ٢/ ١١١) و(معجم المفسرين ١/ ٧٧) مع زيادة وتصرف.

(٢) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين (٢/ ٢٤٢).

(٣) «الجراب»: وعاء يُحفظ فيه الزاد.

إبراهيمُ منطلقاً إلى بيت المقدس؛ وتبعته هاجر فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟!.

لم يتكلّم إبراهيم، ولم يردَّ بحرفٍ واحد، فالأوامرُ الإلهية والأحكام الرّبانيّة لا يُناقشُ فيها.

راحتْ هاجر تهرولُ خلفه وتقول: أين تتركنا؟!.

لم يلتفتْ إبراهيمُ إليها امتثالاً لأَمْرِ الله، إنَّه ذاهبٌ إلى اللهِ... إلى خالقه كي تتحققَ مشيئةُ الباري.. إنَّ الله فعّالٌ لما يريد.

كرّرت هاجرُ قولها مراراً: أين تتركنا يا إبراهيم؟! لكنَّ إبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ لم يُكلّمْها أبداً.

لكَ أنْ تتصوّرَ امرأة معها رضيعها في أرضٍ جرداءَ لا زرع فيها ولا ضرع، لا أنيس، لا زاد ولا ماء... ليس معهما سوى الله عزَّ وجل.

ماذا ستفعل؟ وكيف ستعيش؟ ومتى سيأتي إبراهيم؟ ولماذا يذهب ويتركها وطفلها وحيدَيْن؟. تساؤلات كثيرة دارت في ذهنها..

* إلا أنَّ إبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ كان يدركُ أنَّ أَمْر الله لا بدّ وأنْ يمضي... ورغم إلحاح هاجر عليه، وسؤالها له أين تتركنا؟ لم يردَّ عليها، ولم يلتفتْ إليها حتى إذا ما عاد نورُ اللهِ إلى قلبها، وكان يقينُها بالله أقوى من كلِّ شيء، عندئذ قالت له: آلله أَمَرَكَ بهذا؟ قال إبراهيمُ: نعم... ربّي أمرني بهذا..

* وكأنَّ سكينةً احتلتْ قَلْبَ هاجر.. ونوراً سَقَطَ على نفسها.. إنَّ كانَ اللهُ أَمَرَهُ بأنْ يحملها وإسماعيل إلى هذا الوادي.. فإنَّ الله يريدُ أنْ يتمَّ نعمته عليها.. وعلى رضيعها.

* وفي تلكَ اللحظات الحرجة، وقفتْ هاجر وقالت في ثقةِ المؤمنِ المطمئنِ، وفي ثِقَةِ العَارفِ بالله.. قالت لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ: إذنْ لا يضيّعنا الله...

* الله أكبر... ما أعظم الإيمان إذا خالط النُّفوس! الله أكبرُ.. ما أجمل

اليقين بالله إذا استقرَّ في القلوب! عندئذ يتحركُ الإنسان في دائرةٍ تشعُّ بالمعارف، ويمشي في طريق مبارك.. طريق واضح فيه نور اللهِ..

* ذهب عن هاجرَ الروعُ وما كانت تجده من وحْشَةٍ، ونزل في قلبها أَمْنٌ وسلامٌ... عادت إلى قرب بيت الله الحرام.. أدركت أنَّها وزوجها وابنها من أهلِ الله.. ومن يكن مِنْ أهلِ الله فلا يخافُ ولا يحزن ولا يرهقُ.. ردّدت في نفسها ثانية: إذن لا يضيّعنا الله.. فامضِ يا إبراهيم لما أمرك به الله[1].

* وأمّا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فقد انطلق حتى إذا كان عند الثَّنيّة حيثُ لا تراه هاجر، استقبل بوجههِ البيت، ثم دعا ربَّه، ورفع يديه فقال[2]: ﴿رَّبَّنَآ

---

(١) لاحظْ ـ عزيزي القارىء ـ أنَّ السَّيدة هاجرَ ـ رضي الله عنها ـ كانت مِثالاً للزّوجةِ الصَّالحةِ الوفية التي تعينُ زوجها على طاعة الله عزّ وجلّ، وتساعده على الدّعوةِ إلى دينِ الله.
وإنَّها لكلمةٌ كريمة مباركة، تلكمُ التي قالتها لزوجها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كلمةٌ عظيمةٌ تشيرُ إلى صِدْقِ إيمانها، وإيمان صدقها، وعظيم ثقتها بالله، ويقينها، وتوكلها عليه جل جلاله: آلله أمرك بهذا؟... إذن لا يُضيعنا.. وكأنَّها تقول لإبراهيم: ما دام هذا الأَمْرُ منْ ربِّ العالمين فإنَّا نطيعُ ونلبّي ونؤمنُ، ولن يتركَنا ربّنا سبحانه للهلاك.
وكان من حصل لهم من مظاهر عناية الله عزَّ وجلَّ من نَبْعِ ماء زمزم، وقدوم قبيلة جرهم ـ كما سنرى ـ ومما لا يعلمه إلا الله من أمورِ العناية والرعاية لهم.
إنّ ذلك كلّه نتيجة لصدق الإيمان، وحقيقة التوكّل على الله حقّ التوكّل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢].
ويمكنني الآن أنْ أقول: ألا فلتقتدي النّسوة ـ بأمِّ العرب هاجر ـ في حسن الطّاعة لله عزّ وجلّ، ومساعدة الأزواج على طاعة الله سبحانه فيما أمر، وليقتدين بهاجر وسارة وغيرهما من فضليات النّساء، وليكنّ في صفِّ الواثقات بالله، ومن صنف المتوكلات عليه، ومن فصيلة الصّادقات معه، ليكون المجتمع إيجابياً يسير نحو الخير... ونحو الرشاد.

(٢) «الثَّمراتُ»: الثّمر، وهو حَمْلُ الشّجر، اسم جنس واحدته ثمرة، وتجمع ثمرة على ثمار وثمرات وربما على ثُمُر. ويقال: أثمر الشجر؛ إذا طلع ثمره. وقد يكنى بالثَّمر والثمرات عن المال المستفاد. =

﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧][1].

كَرَامَـةٌ لأُمِّ إِسْمَاعِيْـلَ:

* ترك سيِّدنا إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ زوجَه هاجر وابنه إسماعيل في ذلك المكان المُقْفِر، ومن ثم عاد راجعاً ليكمل رسالة النّبوّة التي أَمَرَهُ الله بإبلاغها للنّاس...

* جلستْ هاجرُ ترضع وحيدها.. أخذت تمدُّ عينيها إلى ما حولها... السَّماء فوقها... الجبالُ من حولها.. بحارٌ من الرِّمال تموجُ على الأرض، وتمتدُّ إلى ما لا نهاية...

* سَكَنَ منْ حولها كلُّ شيءٍ... حتى ذكرياتها سكنتْ هي الأخرى، لم تَعُدْ تخطر بذهنها أية فكرة..

* راحت هاجر تأكلُ من جراب التّمر، وتشربُ من سقاء المال... ونفد

= أقول: وقد تحققت دعوة سيّدنا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ واستفاد أهلُ مكةَ من أموال الحجاج من جميع بلدان العالم، كما أنَّ الثّمرات تُجبى إلى أمِّ القرى في جميع فصول السنة، وهذا من فضل الله ورحمته.
هذا وقد وردت لفظة الثّمرات (١٢ مرة) في القرآن الكريم في ست سور وهي: البقرة آية (٢٢ و ١٢٦ و١٥٥ و ٢٦٦) والأعراف آية (٥٧ و١٣٠) والرّعد آية (٣) وإبراهيم آية (٣٢ و٣٧) والنّحل آية (١١ و٦٩) ومحمّد آية (١٥).

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٥٦) بشيء من التّصرف. وانظر: آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (ص ١٢٠) والدّر المنثور للسيوطي (٥/ ٤٦ و٤٧) ومروج الذّهب (١/ ٤٦) والتّفسير الكبير للرازيّ (١٩/ ١٠٧ و١٠٨) وتفسيريّ الخازن والبغويّ (٤/ ٤٧ و٤٨) ودلائل النّبوّة للبيهقيّ (٢/ ٤٧ و٤٨) وشفاء الغرام (٢/ ٥ و٦) وتفسير الطّبري(١٣/ ٢٢٩ و٢٣٠) والكامل لابن الأثير (١/ ١٠٣) وتفسير القرطبيّ (٩/ ٣٦٨ و٣٦٩) وتاريخ الطبريّ (١/ ١٥٤) والبداية والنّهاية (١/ ١٥٤) وأخبار مكة (١/ ٥٥) ومعجم البلدان (٣/ ١٤٨) وغيرها كثير.

الماءُ، أحست بالعطش. . . وعطش ابنها وراح يتلوّى، كانت الشّمسُ ملتهبةً تثيرُ الإحساس بالعطش. . .

*نظرت هاجر إلى ابنها وهو يتلوّى من العطش، فأحسّتْ بأنَّ أحشاءَها تتمزَّقُ. . . كاد عقلُها يطيش، إنَّها لا تستطيعُ أَنْ تنظر إلى وحيدها وحبيبها وهو يذوي كالزَّهرة، ويبكي منْ ألمِ الجوع والعطش والحَرِّ. . إنَّ كبدها تكادُ أنْ تنفطرَ. . لقد أصبح الموقفُ صعباً وحرجاً وضيقاً. . ولكنْ عند التَّناهي يكونُ الفرج. .

* بدأ إسماعيل يبكي أكثر وأكثر. . . جعلتْ هاجرُ تتلفتْ تبحثُ عن ماء. . . وعن كَثَب وجدت «الصَّفَا» أقرب جبل إليها، راحت تمشي مسرعة حتى وصلت إليه. . . وهناك صَعِدَتْ عليه، ثم استقبلتِ الوادي وقالت: لو نظرتُ لعلّي أحسُّ أَحَداً.

* لم يكن هناك شيءٌ. . . ولم تَرَ أحداً، ولم تسمعْ حِسّاً، هبطتْ مِنْ على الصَّفا، حتى إذا بلغتِ الوادي رفعتْ طرف ثوبها، ثم سَعَتْ سَعْيَ الإنسان المُتْعب، حتى جاوزتِ الوادي، ثم أتت جَبَل «المروة» فقامت عليه ونظرت لترى أحداً، لكنَّها لم تَرَ أحداً.

* وراحتْ هاجرُ تسعى بين الصَّفا والمروة سبع مرات، وهي تتلهفُ على رؤيةِ أَحَدٍ لعلّه ينقذُ ابنها من الموتِ عطشاً.

* لم يَدُرْ بخلدِ هاجر في تلك اللحظة الوجيعة الحرجة التي استولى عليها الجزع، أنَّ ملايينَ المؤمنين على مَرِّ السِّنين سيسعون بين الصَّفا والمروة سبعة أشواط، تخليداً لذكرى ما كان في ذلك السَّعي من البركة. . . سيظلُّ ذلك باقياً إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

* ولما أشرفتْ هاجرُ على المروة سمعتْ صوتاً فقالت: صَهٍ[1]! ـ تريد

---

(١) «صه»: كلمة بمعنى اسكتي.

نفسها ـ ثم أصاخت السَّمْعَ، فسمعتِ الصَّوْتَ أيضاً. . فقالت: قد أسمعتَ إنْ كان عندك غواث.

* فانطلقت إلى حيثُ كان ابنها. . فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء. .

* وطارتْ هاجرُ فرحاً، واستبشرتْ، وجعلتْ تخوضُه في فرحٍ، وتغرفُ من الماء في سقائها وهو يفورُ بعدما تغرف.

* ترحَّمَ نبيُّنا محمّد ﷺ على هاجرَ فقال: «يَرحمُ الله أمَّ إسماعيل لو تركتْ زمزم[1] ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانتْ زمزمُ عَيْنَاً مَعِيناً»[2]. وقال بعضهم:

وجعلـــتْ تَبْنـــي لـــه الصَّفـــائحـــا
لـــوتـــركَتْـــهُ كـــانَ مـــاءً سَـــافِحـــا

---

(١) «زَمْزَم»: هي البئرُ المباركة المشهورة في المسجد الحرام زاده الله تعالى شرفاً، بينها وبين الكعبة (٣٨ ذراعاً) قيل: سميت زمزم لكثرة مائها، وقيل: سميت بضم هاجر إم إسماعيل لمائها حين انفجرت، وهي سُقيا الله سبحانه لإسماعيل ـ عليه السَّلام ـ ويُقال لها: طَعام طُعْم وشفاء شقم، وشراب الأبرار، وجاء في الحديث: «ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم» رواه مسلم وأحمد والبيهقي، وجاء: «ماء زمزم لما شرب له» رواه أحمد والحاكم والبيهقي.
قال النوويّ ـ رحمه الله ـ مَنْ شرب ماء زمزم لحاجة نالها، وقد جرّبه العلماء والصّالحون لحاجات أخروية ودنيوية فنالوها بحمد الله تعالى وفضله.
ونقل ياقوت الحمويّ عن مجاهد أنه قال: ماء زمزم إن شربتَ منه تريد شفاء شفاك الله، وإن شربتَه لظمأ روّاك الله، وإن شربتهَ لجوعٍ أشبعك الله.
ولزمزم فضائل كثيرة لا تحصر في هذا المقام، ولا يزال بركاتها موجودة إلى وقتنا الحاضر.
(تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ١٣٨ ـ ١٤٠) و(معجم البلدان ٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨) مع الجمع والتصرف.

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٥٨) حديث رقم (٣٣٦٤) وانظر: دلائل النّبوّة للبيهقي (٢/ ٤٨) وأخبار مكة للأزرقي (١/ ٥٤ ـ ٥٦) والطّبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٥٠).

* شربتْ هاجرُ وارتوتْ وأرضعتْ ولدها، وإذ بالمَلَكِ الكريمِ عند زمزم خاطبها فقال لها: لا تخافي الضَّيعة، فإنَّ ها هنا بيتَ الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يضيّعُ أهله..

* وتهلّلتْ هاجرُ يفرحِ مَلَكَ مشاعرها، فقد حملها الله إلى بيتِهِ الحرام، إلى البيت العتيقِ المباركِ الذي سيبنيه ولدها إسماعيل، وزوجها خليل الرحمن...

* هنيئاً لهاجر... إنَّها تعيشُ في أشرف بقعة مباركة طاهرة في الأرض... في بقعة طيّبة جعلها اللهُ مثابةً للنَّاس وأمْناً... وبارك فيها للعَالمين.. حقاً إنَّ هذا لهو الفضل المبين.

هَـاجَرُ وَمَـاءُ زَمْـزَم:

* في تلكَ البقعةِ المباركةِ، عند البيت المحرّم، تحققت مشيئةُ اللهِ.. من تلك الأسرةِ الصَّغيرة المؤلفة من هاجر وابنها، تَكَوَّنَ حول زمزم مجتمع كبير، أصبحت أفئدة النَّاسِ تهوي إلى ذلك المكان. لقد نَبَضَ الوادي بالحياة بعد القَفْرِ والفَقْرِ..

* كانتِ البئرُ لهاجر، ولم تكن ملكية خاصة، بل سَمَتْ عن أنْ تكون ملكية خاصة، إنَّها للجميع يَرِدُها مَنْ يشاء، لا يُصَدُّ عنها إنسان.. وهذا ما كان.. فقد مرّتْ بهم رُفقَة من جرهم، ونزلوا في أسفلِ مكةَ، وهناك رأوا طائراً يحومُ في الجو، فقالوا متعجبين: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء! وأرسلوا واردهم ليرى الخبر.

* انطلق الواردُ، فنظر عن كَثَب فرأى الماء، وإذا بهاجر عند نبع زمزم، وتقدم رسول جرهم إلى هاجر وقال لها: أتأذنين لنا أنْ ننزلَ عندك؟.

قالت مرحّبة: نعم، ولكنْ لا حقَّ لكم في الماء..

قال: نعم، قَبِلْنَا.

* وجاءت قبيلةُ جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وأنعامها، وتحلّقُوا حول الماء، ومنذُ ذلك اليوم دبَّتِ الحياةُ هنالك. وإذا بالوادي الذي ليس فيه زرعٌ

ولا ضرعٌ ولا أنيسٌ ولا حياةٌ، ينبضُ بالحياة والحيويَّة، فقد فتح الله عليه بركاتٍ من السَّماء، وبركاتٍ من الأرضِ.

* سبّحتْ هاجرُ بحمدِ ربّها، وخرّتْ ساجدة شاكرة لأَنْعُمِهِ، رأتْ من إكرامِ الله لها ولابنها ما جعلها في عداد الشَّاكرين.

الرَّسُولُ مُحمّدٌ يَرْوِي قِصَّةَ هَاجَرَ:

* أَمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَه وخليلَه إبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ بحملِ ابنه البِكْر إسماعيل وأمّه هاجر إلى مكةَ، فذهب به وبأمِّهِ إلى هذا الوادي المقفر الذي لا يوجد به أحد...

* بعد أنْ تركهم هناك، ابتهل إلى اللهِ داعياً بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

* ولا يوجد في القرآن الكريم غير هذه الآية مما يبيّن هذه القصة، ولكنَّ الحديثَ النَّبويَّ الشَّريفَ جَاءَ ففضَّلَ ما أجمله لنا القرآنُ الكريمُ.

* ففي صحيحِ البُخاريّ وردتْ هذه القصّة مفصّلة موضحةً.. أخرج الإمامُ البُخاريُّ ـ رحمه الله ـ بسنده عن سعيد بن جبير، قال ابنُ عبَّاس ـ رضي الله عنهما:

أوَّل ما اتخذ النِّساء المِنْطَقَ [1] من قبلِ أمِّ إسماعيل، اتّخذت منطقاً لتعفي أَثَرها على سارّة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ـ وهي ترضعه ـ حتى وضعها عند البيتِ عند دوحةٍ [2] فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكةِ

---

(١) «المِنْطَق»: بكسر الميم وسكون النّون وفتح الطّاء، هو ما يُشدُّ به الوسط، ومنه النّطاق... وكان الانتطاق من عادة النّساء العربيات؛ ومن هذا سُميت أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين. اقرأ سيرة أسماء مفصلة في كتابنا (نساء من عصر النّبوة ١/ ٣٣٩ ـ ٣٦٨) فسيرتها قدوة لكلّ النّساء.

(٢) «الدوحة»: الشجرة الكبيرة.

يومئذ أَحَدٌ، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووَضَعَ عندهما جراباً فيه تَمْرٌ؛ وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أمّ إسماعيل فقالت:

يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنْسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفتُ إليها.

فقالت له: آلله أمرك بهذا؟.

قال: نعم.

قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعتْ..

فانطلقَ إبراهيمُ حتى إذا كان عند الثّنيّة حيثُ لا يَرَوْنَه، استقبل بوجهِهِ البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

* وجعلت أمُّ إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السِّقاء عطشتْ، وعطشَ ابنها، وجعلتْ تنظرُ إليه يتلوّى ـ أو قال يَتَلَبّط[1] ـ فانطلقتْ كراهيةَ أنْ تنظرَ إليه، فوجدتِ الصَّفا أقرب جَبَلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلتِ الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداً، فهبطتْ من الصَّفا، حتى إذا بلغتِ الوادي، رفعتْ طرفَ ذراعها، ثم سَعَتْ سَعْيَ الإنسان المجهود[2] حتى جاوزت الوادي، ثم أتتِ المروةَ فقامت عليها فنظرتْ هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداً، ففعلت ذلك سَبعَ مرّات.

قال ابنُ عبّاس: قال النّبي ﷺ: «فذلكَ سَعْيُ النَّاس بينهما...».

فلمّا أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهٍ ـ تريد نفسها ـ ثم تسمّعت أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غِواث، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحثَ بعقبه ـ أو قال: بجناحيه ـ حتى ظهرَ الماءُ، فجعلت

---

(١) «يتلبّط»: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض.

(٢) «المجهود»: الذي أصابه الجهد، وهو الأمر المشق.

تَحُوضُه[1] وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفوزُ بعد ما تغرف.

قال ابنُ عبّاس قال النّبيُّ ﷺ: «يرحُم الله أمّ إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً[2]» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافوا الضَّيْعَةَ فإنَّ ها هنا بيت اللهِ يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يضيّع أهله.

وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرّابية، تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرّتْ بهم رُفْقة من جرهم ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكةَ، فرأَوا طائراً عائفاً[3]، فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على الماء، لعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ، فأرسلوا جرياً[4] أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا ـ قال وأمّ إسماعيل عند الماء ـ؛ فقالوا: أتأذنين لنا أنْ ننزلَ عندك؟.

فقالت: نعم؛ ولكنْ لا حَقَّ لكم في الماء...

قالوا: نعم.

قال ابنُ عبّاس: قال النَّبيُّ ﷺ: «فألفى[5] ذلك أمّ إسماعيل وهي تحبُّ الأنس، فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم[6]...» الحديث...

---

(١) «تحوضه»: أي تجعله مثل الحوض.

(٢) «معيناً»: أي ظاهراً جارياً على الأرض.

(٣) «العائف»: الذي يحوم على الماء ويتردد إليه ولا يمضي عنه.

(٤) «الجري»: الرسول.

(٥) «ألفى»: وجد.

(٦) فتح الباري (٦/ ٤٥٦ و٤٥٧) حديث رقم (٣٣٦٤) وانظر: دلائل النبوة للبيهقيّ (٢/ ٤٧ ـ ٤٨) وشفاء الغرام (٢/ ٥ ـ ٧) وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ١٠٥) والنسائي في فضائل الصحابة وابن حبان في الصحيح (٦/ ١٠ و١١) برقم (٣٧٠٥).

إبْـرَاهِيـمُ يَـزُورُ هَـاجَرَ:

* خرج إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ ليزور هاجر وإسماعيل. . إنَّ الله أَمَرَهُ أنْ يسكنَ ابنه وزوجه في ذلك الوادي القفر. . لقد تركه وأمّه ولم يَضَعْ عندهما غير جراب من تَمْرٍ، وسقاء فيه ماء. . . كان يعلم علم اليقين أنَّ التَّمر لا يكفي هاجراً إلا أياماً معدودات. . وأنَّ الماء سينفدُ بعد قليل، وليس بالمكان أحد وليس به ماء. .

* لم يشغلْ قلبه بأمرهما، إذْ أَمَرَه ربّه أنْ يتركهما هنالك، فكان عليه أنْ يمتثلَ أَمْرَ اللهِ. . واللهُ يتولاهما برحمته، فهو يتولى الصَّالحين. . .

* عند البيت المحرّم رأى إبراهيمُ زمزم. . . ووجد أمّةً مِنَ النَّاس يسقون. . . وَوَجَدَ حياةً وحركةً. . . فانشرحَ صدرُهُ؛ واطمأنَّ قلبه، إنّه يشهدُ رحمةَ اللهِ وبركاته يسبغها على أهل بيته. . .

* هي ذا هاجر، المؤمنة الشّاكرة تعيشُ في كَنَفِ الله، وفي بيت الله، ومعها ابنها إسماعيل تحوطه العناية الإلهيّة قُرْبَ البيت العتيقِ الذي سيبنيه مع أبيه إبراهيم.

* تقدَّم إبراهيمُ من سَكَن هاجر. . . كان الليلُ قد أرخى سدوله على أمّ القرى وما حولها. . . خيّمَ سكونٌ على الكون. . . وقَفَ إبراهيمُ قُرْبَ بيتها. . . إنَّ صوتَها يلامس سمعه، كان صوتُها رفيقاً رقيقاً وهي تقرأُ في صحف إبراهيم، وتعلّمها إسماعيل، نزلتْ سَكِيْنَةٌ على قَلْبِ إبراهيم، وأفعم فؤاده بالرِّضا، إنَّها ذريَّة طاهرة مباركة بعضها من بعض، إنَّ الله يهدي الشَّاكرين إلى صراطٍ مستقيمٍ. . .

* كان لقاء البيت المؤمن أمتع لقاء قرب البيت العتيق، وكان سرورُ إبراهيم عظيماً بزوجه وابنه الذي بدتْ عليه أماراتُ الحِلْمِ والعِلْمِ. . لقد خرج إسماعيل من بيت إبراهيم وهو طفل رضيع. . . وصدعَ إبراهيمُ لأَمْرِ الله، وإنْ كان قلبه تعلّق بابنه وشُغف به حبّاً.

* أراد اللهُ أَنْ يشبَّ إسماعيل عند بيته المحرم. . ذلك أَمْرُ الله وحكمته،

ولقد اصطفى الله هاجر وزوجها إبراهيم لتكون أمّ إسماعيل؛ تلك المرأة الحامدة الصَّابرة التي ترجو لقاء الله.. وطاعته... والتَّسليم لأَمْرِهِ... ففازت مع الفائزين بمرضاة الله.

أُمُّ الـذَّبِـيْـحِ:

شبَّ إسماعيلُ ـ عليه السَّلام ـ وصار يسعى في مصالحه كأبيه إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ وسُرَّ إبراهيمُ بإسماعيلُ الذي يرافقه الآن في الحياة، ها هو ذا يأنس بابنه الوحيد إسماعيل... لقد بلغ من العمر بضعة عشر عاماً.

* وذات يوم نام إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فرأى في المنام أنَّه يذبح إسماعيل... قال النَّبيُّ الأكرمُ محمّدُ ﷺ: «رؤيا الأنبياء وحيٌ»[1].

* أدركَ إبراهيمُ ـ عليه السَّلام ـ أنَّها إشارة من ربِّهِ للتَّضحية... فماذا؟ إنّه لا يتردّدُ... ولا يخطر له إلا خاطر الإيمان والتّسليم...

* لم يسألْ: لماذا يأمرني ربّي بذبحِ ابني الوحيد؟! ولم تراوده الظُّنون... لقد تغلَّبَ ـ بفضلِ الله ـ على جميع الوساوس.

* عرض إبراهيمُ رؤياه على إسماعيل...: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ... ﴾ [الصّافات: ١٠٢].

* إنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ عَرَضَ على ابنه أَمْرَ اللهِ ليأخذ ذلك طاعة وإسلاماً لينال أَجْرَ الطَّاعة... وليسلم هو الآخر، ويتذوّق حلاوة التَّسليم...

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٨٧ و٢٨٨) حديث رقم (١٣٨) ورواه البخاريّ أيضاً برقم (٨٥٩) في الأذان، وانظر: الدّر المنثور للسّيوطي (٧/ ١٠٤) وتفسير الطّبريّ (٢٣/ ٧٨) وتفسير الخازن (٦/ ٢٨) وتفسير القرطبيّ (١٥/ ١٠٢).

* وللإمام الخازن[1] ـ رحمه الله ـ في تفسيره كلامٌ لطيفٌ في هذا الموقف، يقول:

فإنْ قُلْتَ: لِمَ شاوره في أَمْرٍ قَد عَلِمَ أنَّه حَتْمٌ مِنَ الله تعالى؟ وما الحكمةُ في ذلك؟

قلتُ: لم يشاوره ليرجعَ إلى رأيه، وإنَّما شاوره ليعلمَ ما عنده فيما نزل به من بلاءِ اللهِ تعالى، وليعلم صَبْره على أَمْرِ الله، وعزيمته على طاعته، ويثبّت قَدَمه، ويصبّره إنْ جزعَ، ويراجع نفسه ويوطّنها، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكسب المثوبة بالانقياد لأَمْر اللهِ تعالى قبل نزوله[2].

* لم يرفضْ إسماعيلُ ـ عليه السَّلام ـ ذلك الأَمْرَ الرَّبّانّي العظيم، بل لم

---

(١) «الخازنُ»: عليُّ بنُ محمّد بن إبراهيمَ الشّيحيّ الصّوفيّ المعروف بالخازن، نسبته إلى «شيحة» من أعمال حلب. وُلدَ الخازنُ في بغداد سنة (٦٧٨هـ). . . كان إماماً عالماً بالتّفسير والحديث، وله مشاركة في بعض العلوم من فقهاء الشّافعيّة. . سَمِعَ في بغداد من ابن الثّعالبيّ، ثم انتقل إلى دمشقَ فسمع من القاسم بن مظفّر وغيره.
كان خازنَ الكتبِ بالمدرسة السّميساطية، فاشتهر بالخازن بسبب ذلك وكان حَسَنَ السَّمْتِ والبِشر والتّودد، وكان مِنْ أهلِ العلم، جمع وألّفَ أشياء، فمن ذلك «مقبول المنقول» في عَشْر مجلدات جمع فيه بين مسنَديْ الشّافعي وأحمد والكُتُب السِّتّة والموطأ وسنن الدارقطنيّ ورتبه على الأبواب، وله «لباب التأويل في معاني التّنزيل» في تفسير القرآن، وهو معروف بتفسير الخازن، وتفسير الخازن هذا اختصره من «معالم التّنزيل» للبغويّ، وضَمَّ إليه ما نقله ولخصّه من تفاسير مَنْ تقدم عليه.
والخازن مكثرٌ من رواية التّفسير المأثور إلى حدٍّ ما، وتفسيرهُ مملوءُ بالأخبار التّاريخية، والقَصَصِ الإسرائيلية الذي لا يكاد يسلم كثيرٌ منه أمام ميزان العلم الصّحيح والعقل السّليم.
توفي الخازن في حلبَ في شعبان سنة (٧٤١هـ) وعمره (٦٢سنة) رحمه الله تعالى.
(طبقات الشّافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ١٩٤) و(طبقات المفسّرين للداودي ١/ ٤٢٦).

(٢) انظر: تفسير الخازن (٦/ ٢٨).

يتردّدْ، أو يتلجلج، وإنّما قال مطيعاً لله ولرسوله، مستجيباً واثقاً مطمئناً: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصّافات: ١٠٢]... لقد صدق إسماعيل فيما وعد به أباه إبراهيم، وأثنى عليه ربّه في الذِّكر الحكيم.. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

* واستعدَّ النَّبيّان الأب وابنه لتنفيذ ما أُمِرا به... وأَسْلَما أمرهما لله وفوضاه إليه، وخضعا لمشيئتِهِ... لقد أَسْلَمَا، وصرع إبراهيم ابنه على جبينه... كان الابتلاء قد تمَّ، والامتحان الرباني قد وقعَ... ولم يَعُدْ إلاَّ ألم الذّبح، وإلا الدّم المسفوح، والجسد الذَّبيح.

* في تلك اللحظة، ظهرت نتائجُ الامتحان، جَازَ النَّبيّان امتحانهما[1] بنجاحٍ موفّقٍ... جاء النّداءُ العلويُّ مُبَشِّراً بهذا...: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[2] [الصّافات: ١٠٤ ـ ١٠٧]...

---

(١) قال الزّمخشريّ ـ رحمه الله ـ في الكشاف، والرازيّ ـ رحمه الله ـ في التّفسير الكبير عن هذا الامتحان:
حين أراد إبراهيم ذبح إسماعيل قال: يا بني خُذِ الحَبْل والمُدْيَة، وانطلقْ بنا إلى الشِّعْبِ نحتطب، فلمّا توسطا شعب ثبير أخبره بما أُمر...
فقال له: اشدد رباطي لا أضطرب، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيءٌ منْ دمي فينقص أجري وتراه أمّي فتحزن، واشحذ شفرتك، وأسرع إمرارها على حلقي حتى تجهز عليّ ليكون أهون فإنَّ الموت شديد، واقرأ على أمّي سلامي، وإن رأيت أنْ تردَّ قميصي على أمّي فافعل، فإنَّه عسى أن يكون أسهل لها.
فقال إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ: نِعْمَ العونُ أنتَ يا بنيّ على أَمْرِ الله...
(الكشّاف ٣/ ٣٤٩ و٣٥٠) و(التّفسير الكبير ٢٦/ ١٣٨).

(٢) صاغ هذه الحادثة ورسمها شعراً العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي ـ رحمه الله ـ فقال من قصيدة:

وَجَاءَ الوحيُ في الرؤيا إليهِ ... بذبحِ ابنٍ لهُ شَهْمٍ نبيلِ
فأتكاه ليذبحه امتثالاً ... لأَمْرِ المالك الحقِّ الكفيلِ=

في تلك اللّحظات التي كان فيها إبراهيمُ يؤدي دوره بامتثال أَمْرِ ربِّه كان إبليسُ يقوم بالوسوسة لهاجر. . .أتى أمَّ إسماعيل ليفتنها في ابنها، ليبذر بذور الشَّكِّ في نفسها. . .

* تقول بعض الرّوايات: إنَّ إبليسَ أتاها في صورة رجلٍ وقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟.

قالت: ذهب به ليحتطب منْ هذا الشِّعبِ. . .

قال: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه. . .

قالت: هو أرحم به وأشدّ حبّاً له منْ ذلك.

قال: إنَّه يزعم أنَّ الله أَمَرَهُ بذلك!.

قالت له بحزم: إن كان ربّه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه.

وحاول إبليس كذلك أنْ يعترضَ لإبراهيمَ وإسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ ولكنَّه رجَعَ بغيظهِ، ونكَصَ على عقبيه لمْ يَنَلْ ممّا رسمه من مكْرٍ. . . ولم يُصِبْ من آلِ إبراهيم شيئاً مما أراد، وامتنعوا منه بعون الله[1].

* وقد صور قصّة الذَّبيح شعراً أميّة بن أبي الصَّلْت الشَّاعر الجاهلي المشهور، فقال:

ولإبـــراهيـــمَ المـــوفّـــي بـــالنَّـــذْ
رِ احتســـابـــاً وحَـــامـــلَ الأَجْـــذَالِ[2]
بِكْـــرَهُ لـــم يكـــنْ ليصبـــرَ عنـــه
لـــو رآه فـــي معشَـــرٍ أقتـــال[3]

= ولـــم تقطـــعْ بـــه السّكيـــنُ حتـــى فـــداهُ اللهُ بـــالكبـــشِ الجليـــلِ

(١) عن تفسيرَيْ البغوي والخازن (٦/ ٢٩) بشيء من التّصرف والاختصار، وانظر تفسير القرطبيّ (١٥/ ١٠٥) والكامل (١/ ١١١ و١١٢).

(٢) «الأجذال»: مفردها؛ جذل: وهو ما عظم من أصول الشّجر المقطع.

(٣) «أقتال»: مفردها؛ قِتل، وهو العدو.

أَبُنـــيَّ إنّـــي نـــذرتُـــك للـ
ـــهِ شحيطاً فاصبرْ فذلك حَالي[1]
فـــأجـــابَ الغُـــلامُ أَنْ قـــالَ فيـــه
كـــلُّ شـــيءٍ للهِ غيـــر انتحـــالِ[2]
أبتـــي إنّـــني جـــزيتُـــك بـــالله
ـــهِ تقيّـــاً بـــه علـى كـــلِّ حَـــال
فـاقْـضِ مـا قـد نـذرتَ للهِ واكفـفْ
عـن دمـي أنْ يمسَّـه سِـرْبَـالـي[3]
واشـــددِ الصَّفْـــد لا أحيـــد عـــن السِّـ
ـكّيـن حَيْـدَ الأسِيـرِ ذي الأَغْـلالِ[4]

إنّـــني آلـــمُ المحـــزَّ وإنّـــي
لا أمـــسُّ الأذْقـــان ذات السّبـــالِ
ولـه مـديـة تخـايـل فـي اللحـ
ـــمِ هـــذام حنيـــة كـــالهـــلال[5]
جعَـــلَ اللهُ جِيـــدَهُ مِـــنْ نُحـــاس
إذْ رآهُ زولاً مِـــــــــــنْ الأَزْوَالِ[6]
بينمـــا يخلـــعُ السَّـــرابيـــل عنـــه
فَكَّـــه ربّـــه بكبـــشٍ جُـــلال[7]

---

(١) «شحيطاً»: ذبيحاً.
(٢) «الانتحال»: الادعاء والكذب، ومنه قيل: شِعر منحول: أي مكذوب مُدَّعى.
(٣) «سربالي»: السربال: القميص.
(٤) «الصَّفد»: ما يوثق به من حبل أو غلّ.
(٥) «المدية»: السكين ـ هُذام: قاطعة سريعة.
(٦) «الزّول»: الفتى الظَّريف، أو الشّجاع الذي يتزايل النّاس من شجاعته.
(٧) «جُلال»: عظيم.

قـــال خُـــذْهُ وأرســـل ابنـــك إنـــيّ
للـــذي فعـلتُمـــا غيـــر قـــالِ[1]
والـــدٌ يتّقـــي وآخـــر مـــولـــو
دٌ فطـــاراً منـــه بسـمـــعٍ فعـــالِ[2]
ربّمـــا تجـــزعُ النّفـــوس مـــن الأَمْـ
ـــرِ لـــه فَـــرْجَـــةٌ كَحَـــلِّ العقـــالِ

مَنِ الذَّبِيْحُ؟

* اختلفَ المفسّرون في مسألةٍ مفادها: أي وَلَدَيْ إبراهيم هو الذّبيح، إسماعيل أم إسحاق؟.

والصَّحيح والرَّاجح الذي يُعوَّل عليه أنَّ الذّبيح هو إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ والدَّلائلُ في هذا كثيرة جداً. . . .

منها أنَّ الذَّبْحَ كان بمكّة، وكان إسماعيل وأمُّه هاجر في مكةَ، بينما كان إسحاق وأمّه سارّة بالشَّام.

قال الأصمعيُّ ـ رحمه الله ـ: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن الذَّبيح إسحاق كان أمْ إسماعيل؟.

فقال: يا أصمعي أين عَزَب ـ ذهب ـ عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكةَ؟ وإنَّما كان إسماعيل بمكةَ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة[3].

* وقال القرطبّي ـ رحمه الله ـ: احتجَّ مَنْ قال إنَّه إسماعيل بأنَّ الله تعالى وَصَفَه بالصَّبر دونَ إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ

---

(١) «قالي»: مبغض.

(٢) انظر: ديوان أمية بن أبي الصلت (ص ٤٤٠ ـ ٤٤٤) وتاريخ الطبريّ (١/ ١٦٧) مع الخلاف والزيادة في بعض الروايات.

(٣) تفسير القرطبيّ (١٥/ ١٠٠) والتّفسير الكبير للفخر الرازيّ (٢٦/ ١٣٤) وللرازيّ ـ رحمه الله ـ كلام رائع في أنَّ الذبيح إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ وساق أدلة مقنعة عقلية أيّد فيها رأيه.

﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]. وهو صبره على الذَّبح، ووصفه بصدقِ الوعدِ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ...﴾ [مريم: ٥٤] لأنَّه وَعَدَ أباه من نفسه الصَّبر على الذّبح فوفى به، ولأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ [الصَّافات: ١١٢] فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيّاً؛ وأيضاً فإن الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فكيف يُؤمر بذبْحِ إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب[1].

* وللإمام ابن قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ كلامٌ في غاية الرَّوعة يحدّدُ فيه أنَّ الذَّبيح هو سيّدنا إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ يقول: إنَّ الله سبحانه أجرى العادة البشرية أنَّ بِكْرَ الأولاد أحبّ إلى الوَالدَيْن ممن بعده، وإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لما سأل ربّه الولد ووهبه له، تعلّقتْ شعبةٌ من قلبه بمحبتّه، والله تعالى قد اتّخذه خليلاً؛ والخِلَّة: منصبٌ يقتضي توحيد المحبوب بالمحبّةِ، وألاَّ يشاركَ بينه وبين غيره فيها، فلمّا أَخَذَ الولدُ شعبةً من قَلْبِ الوالدِ، جاءت غَيْرَة الخِلّة تنتزعها من قَلْبِ الخليل، فأمره بذبحِ المحبوب[2]، فلمّا أقدم على ذبحه، وكانت محبةُ الله أعظم عنده من محبّةِ الولد، خلُصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذَّبْحِ مصلحة، إذ كانتِ المصلحةُ إنّما هي في العزم، وتوطيد النَّفْس عليه، فقد حصل المقصود وفُدِي الذّبيح، وصدّق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرّب تبارك وتعالى، ومعلوم أنَ هذا الامتحان

---

(١) تفسير القرطبيّ (١٥/ ١٠١).

(٢) ذكر القرطبي ـ رحمه الله ـ قصَّة لطيفة طريفة ظريفة خفيفة عن قصة الذبح فيها معان حلوة، ونحن نوردها لما فيها من طرافة، ونترك للقارىء الكريم حرية الرأي فيها والحكم عليها.
قال بعض أهل الإشارة: إنَّ إبراهيمَ ادعى محبّة الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرضَ حبيبه محبّة مشتركة، فقيل له: يا إبراهيم اذبح ولدك في مرضاتي، فشمّر وأخذ السّكين وأضجع ولده، ثم قال: اللهم تقبله مني في مرضاتك، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد، وإنما المراد أن تردّ قلبك إلينا، فلما رددت قلبك بكليته إلينا، رددنا ولدك إليك. (تفسير القرطبي ١٥/ ١٠٥). =

إنَّما حصل عند أوّل مولود، ولم يكن ليحصل في المولودِ الآخر دون الأول، بل لم يحصلْ في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظّهور[1].

* وذكر ابنُ كثيرٍ ـ رحمه الله ـ في التَّفسيرِ؛ أنَّ عالماً يهودياً أسلم زمنَ عمر بن عبد العزيز، وحسن إسلامه، فسأله عمر بن عبد العزيز، أي ابني إبراهيم أُمِرَ بذبحه؟.

فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإنَّ يهودَ لتعلم بذلك، ولكنَّهم يحسدونكم معشر العرب على أنْ يكون أباكم الذي كان من أَمْرِ الله فيه، والفضل الذي ذكر الله تعالى له لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمونَ أنّه إسحاق؛ لأنَّ إسحاق أبوهم[2].

* ويوافق هذا ما ذكره الإمام ابنُ قيّم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم «زاد المعاد» حيث يقول:

وإسماعيل هو الذّبيح على القول الصَّواب عند علماء الصَّحابة والتَّابعين ومنَ بعدهم، وأمّا القول بأنَّه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً.

وسمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول:

هذا القول إنّما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنَّه باطلٌ بنصِّ كتابهم، فإنَّ فيه: إنَّ اللهَ أَمَرَ إبراهيم أنْ يَذْبَحَ ابنه بكْرَهُ، وفي لفظ: وحيده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أنَّ إسماعيل هو بكْر أولاده، والذي غرّ هؤلاء أن في التَّوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق.

قال: وهذا الزّيادةُ من تحريفهم وكذبهم، لأنَّها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك. ولكنَّ اليهودَ حسدت بني إسماعيل على هذا الشَّرف، وأحبّوا أنْ

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٧٤ و٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ١٧) بشيء من التصرف.

يكونَ لهم، وأنْ يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أنْ يجعلَ فضله لأهله[1].

* وأودُّ أنْ أختمَ هذه الفقرة بما أورده القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ قال: سُئل أبو سعيد الضَّرير عن الذّبيح فأنشد:

إن الـذَّبيـح ـ هُـديـت ـ إسمـاعيـل
نَطَـقَ الكتـابُ بـذاكَ والتَّنْـزِيـلُ
شَـرفٌ بـه خَـصَّ الإلـهُ نبيَّنـا
وأتـى بـه التَّفسيـر والتَّـأويـلُ
إنْ كنـتَ أمَّتَـه فَـلاَ تُنْكِـرْ لَـهُ
شَـرَفـاً بـهِ قـدْ خَصَّـهُ التَّفصيـلُ

هَـاجَرُ وإِسْمَاعِيْـلُ وبنـاءُ البَـيْتِ:

* كانت هاجرُ قريرةَ العين بما حَبَاها الله مِنْ نِعَمٍ جليلة... فزوجها خليل الرحمن، وابنها إسماعيل صنو أبيه... وها هو إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يتهلّل بِشْراً، فقد أَمَرَهُ اللهُ سبحانه أنْ يَبْنَي للهِ بيتاً يحجُّ إليه النَّاسُ من كلِّ فجٍّ عميق، وقد هداه الله إلى مكانه وحدده له.

وسأل إبراهيم هاجر: أينَ إسماعيل؟.

قالت: ماذا تريدُ من إسماعيل؟.

قال: أبشري يا هاجر، لقد أمرني ربّي عزّ وجلّ أنْ أبنيَ له بيتاً، وأمرني أنْ يكونَ إسماعيل هو الذي يعينني في ذلك.

وسجدتْ هاجرُ للهِ شكراً أن اصطفى ابنها إسماعيل ليكون له شرف بناء بيت الله الذي جعله قياماً للنّاس وجعله مثابة وأَمْناً لهم.

* وقام إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السَّلام بتخطيط البيت، وربّما راحتْ

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧١ و٧٢).

هاجرْ تساعدهم بذلك، وعكفوا على العملِ، ما أعظم تلك السّاعات إنَّهما يبنيان بيتَ الله!!...

* لقد غمرهما شعور عزّ الطّاعة إذ خصَّهما الله بشرف بناء البيت من دون العَالمَين، فهل بعد هذا من شرف؟![1] ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩][2].

* انتهى بناء الكعبة، وراح إبراهيمُ وإسماعيلُ وهاجر ومَنْ معهم من المسلمين يطهّرونَ بيتَ اللهِ للطّائفينَ والقائمين والرّكع والسُّجود... يبدو أنَّهم غسلوها بماء زمزم.

* صدرتِ الأوامرُ الإلهية لإبراهيم بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ..﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨] وأتت وفود الحجيج... وأدت مناسك الحج...

* كانتِ هاجر غارقة في ذكرياتها... تلاشى كلُّ شيء أمام عينيها، وفي

---

(١) «مناسكنا»: متعبّداتنا في الحج. والفعل منها: نسك ينْسك نَسْكاً: تطوع لله بقربة وعبادة، ومن ذلك يقال: نسك: ذبح ما يتقرّب به إلى اللهِ تعالى كالهدي في الحج. ويُقال للذبيحة: نسيكة.
والنُّسكُ: العبادة، ويقال للذبيحة، وقد يكون جمعاً للنسيكة.
والمَنْسك: موضع العبادة، وغلب في مُتَعَبَّدِ الحج، كِمَنى وعرفة، وموضع الذبح وزمانه وقد يأتي بمعنى العبادة، وبمعنى الذبح، ويفسره بعضهم في بعض المواطن بالعيد والجمع مناسك.
وقد وردت كلمة مناسكنا مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة البقرة الآية (١٢٨).

(٢) دلائل النّبوّة للبيهقيّ (٢/ ٥٢) وأخبار مكة (١/ ٥٨ و٥٩) بشيء من التصرف.

ذهنها... وقفت أمام الصَّفا... عرفت أنَّ الله قد غمرها بفضله وأَنْعُمه وكرمه... أخرجها الله من الظُّلُماتِ إلى النُّور، وهداها سواءَ السَّبِيل، وَهَبَ لها إسماعيل... جعلها بَـرَكةً يوم أكرمها بزمزم... كان لها شرف المشاركة في بناء البيت الحرام... لم يخطر ببالها أنْ يجعلَ الله عزّ وجلّ سعيها بين الصَّفا والمروة من شعائر الله... الله يختصُّ برحمته مَنْ يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* صار سَعْيُ هاجَرَ بين الصَّفا والمروةَ من شعائر الله.. كانت هاجرُ مؤمنة مُسْلمة أَمْرَها لله، فجزاها الله خير الجزاء.. أليس لله بأعلم بالشَّاكرين؟!.

* كانت ترى جموع الحجيج وهم يؤدُّون مناسكهم.. يسعون بين الصَّفا والمروة... لم تملك نفسها.. ذرفتْ عيناها الدّموع.. سجدتْ شكراً لله.. كان لسانُها يلهجُ بالشُّكْرِ والثَّناء على الله...

* وعندما أذّن إبراهيمُ في النَّاس بالحجِ كانت هاجر زوجه أول امرأة في الدُّنيا ـ يومذاك ـ تلبّي النّداء..، وسجّلت بذلك أولية طيّبة في سجل نساء الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام.

الأَيَّـامُ الأَخِيْـرَةُ:

* كانت هاجَرُ تجلسُ إلى الحرم.. وكانت تجيلُ الطَّرفَ في الكعبةِ المشَّرفَةِ.. كانت الذّكرياتُ ترفرفُ على ذهنها فتنقلها إلى عالَمٍ آخر... ثم تعود إلى نفسها فترى عظيم كرم الله لها؛ كانت كلماتُها يوم تركها إبراهيم وحيدةً مع رضيعها برداً وسلاماً: إذن لا يضيعنا الله... نعم ها هم في أحضان أمِّ القُرى، وفي كنفِ الله عزَّ وجلَّ.

* وها هي الآن عند البيت المحرم تؤدي عبادتها وفروضها، كانت هاجرُ تملأُ مكةَ حياةً، كانت تجمع صبيان جرهم، ومن ثَمَّ تحفّظهم صحف إبراهيم، وربّما علَّمَتْهُم الكتابة، فقد ورد أنَّها كانتْ أوَّل مَنْ خطَّ القلم في مكَّة... استمرت هاجر على هذه الحالة زماناً حتى تركت أطيب الأثر في نفوس النَّاس...

* كانت جليلة القدر. . . لها رفعة ومهابة في النُّفوس، أحبَّها النَّاسُ الذين نزلوا عندها حبّاً مِنْ أغوار نفوسهم. كانوا وصبيانهم يهرعون إليها، ويصغون إلى أحاديثها العذبة التي تأخذ بالقلوب فَتصِلُها بخالقها، فقد كان حديثها عامراً بالإيمان يحرك العواطف، ويمسُّ شغاف القلوب.

* امتدتِ الحياةُ بهاجر إلى أن بلغتْ تسعين سنةً[1]، وذات يومٍ، شعرت هاجر بقربِ لقاء الله. . وكانت متهلّلَةَ الوجه، فرحةً بهذا اللقاء. . . أحبّتْ هاجرُ أنْ تكون نظراتها الأخيرة إلى البيت العتيق.

* رأت ولدها إسماعيل، ولمست البركة التي وعدها الله في إسماعيلَ وذريّته. . عندئذ تهلّلت أساريرُها. . . سمعت أصوات العابدين. . وابتهالات الطَّائفين. . . ودعاء الصَّالحين. . وفي تلك اللحظات أسلمت روحها إلى بارئها.

* تلكم هي هاجر زوج إبراهيم وأمّ إسماعيل. . . إنَّ الله أكرمها، فقضى أنْ تكون في بيتهِ المحرم، وأنْ تُقْبرَ في الكعبةِ التي لا ينقطع الطَّواف حولها في الليل أو النَّهار. . .

* قضى الله عزَّ وجلَّ أَنْ تُدْفَنَ هاجر في الحِجْرِ[2] في الحرم الذي لا تتردّدُ فيه إلا الأنْفاس الطّاهرة. . . في المكانِ الذي لا يُسمع فيه لغوٌ ولا تأثيم. . في المكان الذي يغصّ بالطّائفين والقائمين والعابدينَ والرّكع السُّجود. . . في المكان الذي بناه زوجها وابنها بأَمْرِ الله ووحيه. . .

* وعلى مدار الأيام والأعوام والتّاريخِ، يذكر النّاس هاجر، ويذكرون صبرها، ويتذكّرون وفاءها. . .

* يرحم الله أمَّ إسماعيل. . . لقد كان أسوة حسنة للنّساء من

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٥٢).

(٢) انظر: أخبار مكة (١/ ٥٦) وتاريخ مدينة دمشق (ص ٤١٧) تراجم النّساء، وشفاء الغرام (٢/ ٢٢) ونقل السّيوطيّ عن ابن سعد أن قبر أمّ إسماعيل تحت الميزاب بين الرّكن والبيت (الدر المنثور (٥/ ٥١٧).

بعدها . . . فهل تقتدي بهاجر النّساء؟! وهل يستفِدْنَ من مواقفها العطرة؟! .
رضي الله عن هاجرَ . . . وجَعَلَها في عليّين . . .

* * *

تم الكتاب بعون الله الملك الوهاب، والحمد لله على حسن توفيقه، وأسأله عز وجل أن ينفع بهذا الكتاب كما نفع بغيره من مصنفاتنا، إنه ـ سبحانة ـ على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فهرس المصادر والمراجع[1]

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن: للسّيوطي ـ تقديم وتعليق: د. مصطفى البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٨٧م.

٣ ـ آثارُ البلاد وأخبار العِبَاد: للقزويني ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٧٩م.

٤ ـ أخبارُ مكة: للأزرقي ـ تحقيق: رشدي الصَّالح ملْحِس ـ دار الأندلس ـ بيروت ط ٣ ـ ١٩٨٣م.

٥ ـ إرشادُ العقل السَّليم إلى مزايا القرآنِ الكريم: لأبي السّعود ـ دار إحياء التّراث العربيّ ـ بيروت.

٦ ـ أسباب النزول: للواحديّ ـ تحقيق: د. مصطفى البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٨٨م.

٧ ـ الاشتقاقُ: لابن دريد ـ تحقيق وشرح: عبد السَّلام محمد هارون ـ مكتبة الخانجي ـ مصر ١٩٥٨م.

٨ ـ الأعلام: لخير الدين الزِّركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط٨ ـ ١٩٨٩م.

٩ ـ إغاثة اللهْفَان من مصايد الشَّيطان: لابن قيّم الجوزية ـ تحقيق: محمد حامد الفقي ـ دار الجيل للطباعة ـ مصر.

---

(١) عدنا في هذا البحث إلى مئات المصادر في مختلف فنون العلوم وخاصة كتب التّفسير وكتب الحديث. وقد اكتفينا في هذه القائمة بذكر أهم المراجع، واكتفينا بالإشارة إلى المراجع الأخرى في ثنايا الكتاب.

١٠ ـ أمالي المرتضى: للشَّريف المرتضى ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٥٤م.

١١ ـ أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: للبيضاوي ـ مؤسسة شعبان للنّشر والتوزيع ـ بيروت.

١٢ ـ البدايةُ والنّهايةُ: لابن كثير ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٨م.

١٣ ـ بغيةُ الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة: للسّيوطيّ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة العصرية ـ بيروت.

١٤ ـ بهجةُ المجالسِ وأنسُ المجالسِ: لابن عبد البّر ـ تحقيق: محمد مرسي الخولي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٥ ـ التّاجُ الجامعُ للأصول: لمنصور علي ناصف ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط ٤.

١٦ ـ تاريخُ الإسلامِ ووفياتُ المشاهيرِ والأعلام: للذهبيّ ـ تحقيق: د. عمر تدمريّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٧م.

١٧ ـ تاريخُ الأممِ والملوك: للطّبريّ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت طـ ٢ ـ ١٩٨٨م.

١٨ ـ تاريخُ مدينةِ دمشق ـ تراجم النّساء: لابن عساكر ـ تحقيق: سكينة الشّهابي ـ دار الفكر ـ دمشق.

١٩ ـ تأويلُ مختلفِ الحديث: لابن قتيبة ـ تحقيق: محمد محيي الدين الأصفر ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٩م.

٢٠ ـ تحفةُ الأحوذيّ بشرحِ جامعِ التّرمذي: للمباركفوري ـ صححه: عبد الوهاب عبد اللطيف ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط ٣ ـ ١٩٨٧م.

٢١ ـ تفسيرُ الرّازي: لأبي بكر الرازي ـ تحقيق: د. محمد رضوان الدّاية ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٠م.

٢٢ ـ تفسيرُ البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسيّ ـ دار الفكر ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٣م.

٢٣ ـ تفسير الخازن وبهامشه البغويّ: للخازن والبغوي ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ مصر ط ٢ ـ ١٩٥٥م.
٢٤ ـ تفسيرُ القاسميّ: لجمال الدين القاسمي ـ علق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٧٨م.
٢٥ ـ تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ـ مكتبة المنار ـ الأردن ط١ ـ ١٩٩٠م.
٢٦ ـ التفسير الكبير أو مفاتيحُ الغيب: لفخر الدِّين الرازيّ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩٠م.
٢٧ ـ تفسيرُ الماورديّ النُّكتُ والعيونُ: للماورديّ ـ تحقيق: خضر محمد خضر ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ التراث الإسلامي ـ كويت ط١ ـ ١٩٨٢م.
٢٨ ـ تفسير المراغيّ: لأحمد مصطفى المراغي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٢٩ ـ تفسيرُ المنار: لمحمد رشيد رضا ـ دار المعرفة ـ بيروت ط٢.
٣٠ ـ التّفسير والمفسِّرون: لمحمد حسين الذَّهبي ـ دار القلم ـ بيروت ط ١.
٣١ ـ تفسير النّسفيّ: للنّسفيّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٨٢م.
٣٢ ـ تلخيصُ البيان في مجازات القرآن: للشّريف الرّضيّ ـ مؤسسة نهج البلاغة ـ ١٤٠٧هـ.
٣٣ ـ تنزيهُ الأنبياءِ عما نَسَبَ إليهم حثالة الأغبياء: لابن حمير ـ تحقيق: د. محمد رضوان الداية ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩١.
٣٤ ـ تنزيهُ القرآنِ عن المطاعن: للقاضي عبد الجبّار ـ دار النّهضةِ الحديثة ـ بيروت ـ لبنان.
٣٥ ـ تهذيب الأسماء واللغات: للإمام النووي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٣٦ ـ تهذيبُ التّهذيب: لابن حجر العسقلاني ـ دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة ـ طبعة مصورة.
٣٧ ـ الجامعُ لأحكامِ القرآنِ: للقرطبيّ ـ دار إحياء التّراث العربيّ ـ بيروت.
٣٨ ـ جامعُ البيانِ في تفسيرِ القرآن: للطّبريّ ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٨٤م.

٣٩ ـ حادي الأرواحِ إلى بلاد الأفراح: لابن قيّم الجوزية ـ تحقيق: يوسف بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩١م.
٤٠ ـ حاشية الصّاوي على الجلالين: للصّاوي ـ دار إحياء الكُتب العربية ـ مصر.
٤١ ـ حدائقُ الإنْعام: لعبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقيّ ـ تحقيق يوسف بديوي ـ دار الضّياء ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٩م.
٤٢ ـ حُسنُ الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النِّسوة: للقنوجي ـ تحقيق: د. مصطفى الخن ومحيي الدين مستو ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٥ ـ ١٩٨٥م.
٤٣ ـ حليةُ الأولياءِ وطبقاتُ الأصفياء: لأبي نعيم الأصبهاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٦٧م.
٤٤ ـ حياةُ الحيوان: للدميريّ ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ط٤ ـ ١٩٦٩م.
٤٥ ـ الدَّارس في تاريخِ المدارسِ: للنعيميّ ـ تحقيق: جعفر الحسينيّ ـ مطبوعات المجمع بدمشق ـ ١٩٥١م.
٤٦ ـ الدّرُّ المنثور في التّفسيرِ المأثورِ: للسّيوطيّ ـ دار الفكر ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٣م.
٤٧ ـ دلائلُ النّبوةِ: للبيهقي ـ تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٥م.
٤٨ ـ الدّيباجُ المذهّبُ في معرفةِ أعيان علماء المذْهَب: لابن فرحون المالكي تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور ـ دار التراث ـ مصر ـ القاهرة.
٤٩ ـ ديوانُ أمية بن أبي الصَّلت: جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحفيظ السَّطلي ـ المطبعة التعاونية بدمشق ـ ١٩٧٤م.
٥٠ ـ ربيعُ الأبرارِ ونصوصُ الأخبارِ: للزمخشري ـ تحقيق: د. سليم النّعيمي ـ دار الذّخائر للمطبوعات ـ إيران.
٥١ ـ رجالٌ مبشرون بالجنّةِ: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٩٢م.

٥٢ ـ رجالٌ من الإسلامِ ـ جزءان: لأحمد خليل جمعة ـ دار الهجرة ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٩٢م.
٥٣ ـ الرِّحلةُ الأنسيةُ في الرّحلةِ القدسيّةِ: لعبد الغني النابلسيّ ـ تحقيق: أحمد حسن العلبي ـ دار المصادر ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩٠م.
٥٤ ـ روحُ المعاني في تفسير القرآن الكريم والسَّبْعِ المثاني: للآلوسيّ ـ دار إحياء التّراث العربيّ ـ بيروت.
٥٥ ـ الرّوض الأنفُ ـ بهامش السِّيرة النّبويّة ـ: للسّهيلي ـ تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ مصر ـ ١٩٧١م.
٥٦ ـ زادُ المسير في علم التّفسير: لابن الجوزي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٨٤م.
٥٧ ـ زادُ المعاد: لابن قيّم الجوزية ـ تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٦ ـ ١٩٨٤م.
٥٨ ـ الزّهد: للإمام أحمد بن حنبل ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٣م.
٥٩ ـ سننُ ابن ماجه: تحقيق فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٩٧٥م.
٦٠ ـ سننُ أبي داود: إعداد وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٦١ ـ سننُ الترمذي: إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس ـ حمص ط١ ـ ١٩٦٦م.
٦٢ ـ سننُ النسائي: بشرح السّيوطيّ وحاشية السّنديّ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٦٣ ـ سيرُ أعلام النبلاء: للذهبي ـ تحقيق: ثلة من الأفاضل والعلماء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٨٥م.
٦٤ ـ الشّفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض ـ تحقيق: محمد أمين قره علي ورفاقه ـ مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٨٦م.

٦٥ ـ شفاءُ الغرامِ بأخبار البلد الحرام: للفاسيّ ـ تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمريّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٥م.
٦٦ ـ صحيحُ مسلم: دار الفكر ـ طبعة قديمة مصورة.
٦٧ ـ صحيحُ مسلم بشرحِ النووي: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ السعودية.
٦٨ ـ طبقاتُ الحفاظ: للسّيوطيّ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٣م.
٦٩ ـ طبقات الشافعية: لابن قاضي شهبة ـ صححه وعلق عليه: د. عبد العليم خان ـ دار الندوة الجديدة ـ بيروت ـ ١٩٨٧م.
٧٠ ـ طبقاتُ المفسِّرين: للداودي ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ لبنان.
٧١ ـ طبقات المفسرين: للسيوطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.
٧٢ ـ الطَّبقاتُ الكبرى: لابن سعد ـ تحقيق: إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت.
٧٣ ـ الطِّبُّ النّبويُّ: لعبد اللطيف البغدادي ـ تحقيق: يوسف علي بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٠م.
٧٤ ـ العبرُ في خبرِ مَنْ غبر: للذهبي ـ تحقيق: محمد زغلول ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٥م.
٧٥ ـ عونُ المعبودِ شرح سنن أبي داود: لأبي الطّيّب الأبادي ـ تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط٣ ـ ١٩٨٧م.
٧٦ ـ عيونُ الأخبار: لابن قتيبة ـ مصورة عن دار الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٣م.
٧٧ ـ غُرر التِّبيان في مَنْ لم يُسمَّ في القرآن: لابن جماعة الحموي ـ تحقيق: د. عبد الجواد خلف ـ دار قتيبة ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٠م.
٧٨ ـ غوطةُ دمشق: لمحمد كرد علي ـ دار الفكر ـ دمشق ط٣ ـ ١٩٨٤م.
٧٩ ـ فتحُ الباري بشرحِ صحيحِ البخاري: لابن حجر العسقلاني ـ حققه: محب الدين الخطيب ـ رقّمه وبوبه: محمد فؤاد عبد الباقي ـ أشرف على التصحيح: قصي محب الدين الخطيب ـ المكتبة السلفية ـ القاهرة ط٤ ـ ١٤٠٨هـ.

٨٠ ـ فتحُ القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية في علم التّفسير: للشّوكاني ـ دار الفكر ـ بيروت.
٨١ ـ الفرجُ بعدَ الشّدة: لابن أبي الدّنيا ـ تحقيق: ياسين السواس ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٢م.
٨٢ ـ الفرج بعد الشّدة: للتّنوخيّ ـ تحقيق: عبود الشّالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٨م.
٨٣ ـ الفلسفةُ القرآنيّةُ: لعبّاس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٦٩م.
٨٤ ـ فوائد في مشكلِ القرآن: لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ـ تحقيق: د. سيد رضوان علي الندوي ـ دار الشروق ـ جدة ط٢ ـ ١٩٨٢م.
٨٥ ـ القاموسُ المحيطُ: للفيروز آبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٧م.
٨٦ ـ قَصَصُ الأنبياء: لابن كثير ـ تحقيق: يوسف بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٢م.
٨٧ ـ الكاملُ في التّاريخ: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت.
٨٨ ـ الكاملُ في اللغة والأدب: للمبرد ـ عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة.
٨٩ ـ كُبرىٰ اليقينيات الكونيّة: للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ دار الفكر ـ دمشق ط٨ ـ ١٤٠٢هـ.
٩٠ ـ كتابُ ألف باء: للبلوي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ طبعة مصورة.
٩١ ـ كتاب الشُّكر لله عزّ وجلّ: لابن أبي الدنيا ـ تحقيق: ياسين السواس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٨٧م.
٩٢ ـ الكشّاف عن حقائقِ التّنزيلِ وعيون الأقاويل في وجوه التّاويلِ: للزمخشري ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٩٣ ـ لسانُ العرب: لابن منظور ـ طبعة مصورة من طبعة بولاق ـ مصر.
٩٤ ـ المبشَّرون بالنَّارِ: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٣م.

٩٥ ـ مجمعُ الأمثال: للميدانيّ ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السّنة المحمديّة ـ القاهرة ـ ١٩٥٥م.
٩٦ ـ مجمعُ الزَّوائد: للهيثمي ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت.
٩٧ ـ محاضراتُ الأدباءُ ومحاوراتُ الشّعراء والبلغاء: للرّاغب الأصفهانّي ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
٩٨ ـ مختصر تاريخ دمشقَ لابن عساكر: للإمام ابن منظور ـ تحقيق: عدد من الأفاضل ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٠م.
٩٩ ـ مروجُ الذّهب ومعادنُ الجوهر: للمسعوديّ ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار المعرفة ـ بيروت.
١٠٠ ـ مسند أبي يَعْلَى الموصلي ـ تحقيق: حُسين أسد ـ دار المأمون للتراث ـ دمشق ط١ ـ ١٩٨٤م.
١٠١ ـ المسنَد: لأحمدَ بنِ حنبل ـ دار الفكر ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٧٨م.
١٠٢ ـ المعارفُ: لابن قتيبة ـ تحقيق: د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ مصر ط٤ ـ ١٩٧٧م.
١٠٣ ـ معاني القرآن: للفرّاء ـ عالم الكتب ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٨٣م.
١٠٤ ـ معجمُ البلدان: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت.
١٠٥ ـ معجمُ المفسِّرين: لعادل نويهض ـ مؤسسة نويهض الثقافية ـ ط٣ ـ ١٩٨٨م.
١٠٦ ـ معجم المؤلفين: لعمر رضا كحالة ـ دار إحياء التراث العربيّ ـ بيروت.
١٠٧ ـ معرفةُ القرّاء الكبار على الطّبقات والأعصار: للذهبيّ ـ تحقيق: بشار عواد ورفيقه ـ مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٤م.
١٠٨ ـ مفتاحُ دار السّعادة ـ لابن قيّم الجوزية ـ مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ مصر.
١٠٩ ـ مفحماتُ الأقرانِ: للسيّوطي ـ تحقيق: إياد خالد الطّباع ـ مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٨م.

١١٠ ـ الموطأُ: للإمام مالك ـ صححه ورقمه: محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.
١١١ ـ نساءٌ مبشَّراتٌ بالجنّةِ: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٩٢م.
١١٢ ـ نساءٌ مِنْ عَصْرِ التَّابعين: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٢م.
١١٣ ـ نساءٌ من عصْرِ النّبوّةِ: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٢م.
١١٤ ـ نوادرُ المخطوطاتِ: تحقيق: عبد السّلام هارون ـ طبعه البابي الحلبيّ ـ مصر ط٢ ـ ١٩٧٢م.
١١٥ ـ هذه الشّجرة: لعبّاس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٧١م.
١١٦ ـ وفاءُ الوَفا: للسّمهوديّ ـ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ط٤ ـ ١٩٨٤م.
١١٧ ـ وفياتُ الأعيانِ: لابن خلّكان ـ تحقيق: د. إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
بطاقة شكر مفتوحة	٦
مقدمة الطبعة الثانية	٧
مقدمة الطبعة الأولى	٩
زوج النبي آدم عليه السلام	١٩
الله يخلق ما يشاء	٢٠
اسجدوا لآدم	٢٢
وخلق منها زوجها	٢٥
اسكن أنت وزوجك الجنة	٢٧
كيف كانت حياتهما؟	٢٨
إبليس يغرّر بآدم وحواء	٢٩
عتاب وتوبة	٣٣
اهبطوا منها جميعاً	٣٤
حواء زوج آدم النبي	٣٧
حواء في الأرض	٤٠
حواء ورحلة العبادة	٤١
أم البشرية	٤٢
قصة القربان	٤٥
فطوعت له نفسه قتل أخيه	٤٧

الموضوع	الصفحة

أم القاتل والمقتول ٤٨
حواء والرحلة الأخيرة ٥١
زوج النبي نوح عليه السلام ٥٣
يا رب اغفر لقومي ٥٤
صورة من عصيانها ٥٥
غلبت عليها شقوتها ٥٦
امرأة نوح وعبادة الأصنام ٥٧
امرأة نوح والدعوة ٥٩
حوار ومساومة ٦٢
أما ينصرك ربك ٦٤
ويصنع الفلك ٦٩
اركبوا فيها ٧٢
ضرب الله مثلاً ٧٥
زوج النبي لوط عليه السلام ٧٩
إلا عجوزاً ٨٠
فاتقوا الله وأطيعون ٨٢
من صفات قوم لوط ٨٤
أناس يتطهرون ٨٦
امرأة لوط وضيوفه ٨٩
رب انصرني ٩١
لننجينه وأهله إلا امرأته ٩٢
إنه مصيبها ما أصابهم ٩٩
زوج النبي إسماعيل عليه السلام ١٠٤
إن الله لا يضيع أهله ١٠٥

الموضوع	الصفحة

أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ ١٠٨
غلام حليم ١٠٩
غيرّ عتبة بابك ١١١
رعلة الزوجة المؤمنة ١١٤
زوج إسماعيل في القصص النبوي ١١٦
الولود الودود ١١٨
زوج النبي يعقوب عليه السلام ١٢١
زوج الكريم ١٢٢
مهر راحيل ١٢٣
قصة راحيل مع الأصنام ١٢٨
راحيل ورؤيا يوسف ١٣٠
ورفع أبويه على العرش ١٣٣
مع الصابرات الخالدات ١٣٧
زوج النبي أيوب عليه السلام ١٤٠
ربيع الأبرار ١٤١
ليا وحياة النعيم ١٤٣
صدّيقة بارّة ١٤٤
ادعُ الله أن يشفيك ١٤٦
هل رأيت نبيَّ الله؟ ١٤٩
هل صحيح ما ورد عن أيوب؟ ١٥١
ليا وشفاء أيوب ١٥٤
من إكرام الله لها ١٥٧
زوج النبي موسى عليه السلام ١٥٩
في رحاب التنزيل ١٦٠

الموضوع	الصفحة

الطريق إلى مدين ١٦٢
ما خطبكما؟ ١٦٣
إن أبي يدعوك ١٦٦
لباس الحياء ١٦٨
زواج موسى ١٧١
صفورا والرحلة المباركة ١٧٧
زوج النبي زكريا عليه السلام ١٨٤
في رحاب الطاهرات ١٨٥
هنالك دعا زكريا ربه ١٨٦
شأن الدعاء ١٩٠
البشرى العظمى ١٩١
وامرأتي عاقر ١٩٧
ربّ اجعل لي آية ٢٠٠
أم النبي التّقي ٢٠١
زوجا النبي إبراهيم عليه السلام ٢٠٤
أ ـ سارة: ٢٠٥
زوج نبيّ كريم ٢٠٥
إبراهيم وسارة ٢٠٦
من صفات سارة ٢٠٨
سارة والمحنة ٢٠٨
كرامة لسارة وإبراهيم ٢١١
سارة والحديث النبوي ٢١٢
سارة وهاجر ٢١٤
سارة ورسل الله ٢١٦

الموضوع	الصفحة

البشارة العظيمة ٢١٨
أألد وأنا عجوز؟ ٢١٩
أمّ نبيّ ٢٢٤
من مكارم سارة وكرامتها ٢٢٦
وادخلي جنتي ٢٢٦
ب ـ هاجر ٢٢٩
أم العرب ٢٢٩
هاجر وطريق النور ٢٣٠
ربّ هب لي من الصالحين ٢٣٣
هاجر في أمِّ القرى ٢٣٧
إذن لا يضيعنا الله ٢٣٩
كرامة لأم إسماعيل ٢٤٢
هاجر وماء زمزم ٢٤٥
الرسول محمد يروي قصة هاجر ٢٤٦
إبراهيم يزور هاجر ٢٤٩
أم الذبيح ٢٥٠
من الذبيح ٢٥٥
هاجر وإسماعيل وبناء البيت ٢٥٨
الأيام الأخيرة ٢٦٠
فهرس المصادر والمراجع ٢٦٣
فهرس الموضوعات ٢٧٢